

كنوز الأدب العالى

(٣)

رسول القيصير

تأليف

الكاتب الفرنسي

جول فيرن

ترجمة

حلمي مراد

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية

دار دلتا للنشر



رئيس مجلس الإدارة

المحاسب

أحمد التلاوى

الناشر

سليمان القلشى

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الأولى

الكتاب : رسول القيصر

المؤلف : جول فيرن

ترجمة : حلمي مراد

تصنيف الكتاب : رواية

تصميم الغلاف : محمد جمال

إخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ٢٠ × ١٤

رقم الإيداع : ٢٢٥٣٩ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : 7 - 130 - 776 - 977 - 978

العنوان : ٧ شارع الموسيقار على إسماعيل الدقي

التليفون : ٣٣٣٧٨٣١٩ - ٣٣٣٨٧٠٣٩

email : elyounnew@gamil.com

رسول القيصر

تتضمن وصفا مسهبا لروسيا وحالتها خلال ثورة التتار
في عهدا القيصري ، والمغامرات الرائعة التي تخللت
رحلة بطلها «ميشيل ستروجوف» وزميلته ، وما صادفاه
من أخطار

obeikandi.com

شخصيات الرواية

- القيصر إسكندر** : قيصر روسيا. قوى الشكيمة هادئ الطبع كتوم لأسراره، وقعت بينه وبين التتار حروب كثيرة.
- الجنرال كيسوف** : رئيس بلاط القيصر، وأمينه الخاص على أسرار دولته
- الغراندوق** : شقيق القيصر، وقائد جيشه في أركوتسك لحرب التتار، وكان محصورا في هذه المدينة.
- ميشيل ستروجوف** : رسول القيصر إلى شقيقه الغراندوق، يوزباشي في الجيش الروسي، ذكي شجاع.
- فيوفار خان** : حاكم التركستان وزعيم التتار وقائد ثورتهم، نشبت بينه وبين القيصر حرب شعواء.
- إيفان أوجارييف** : كولونيل روسي جرده الغراندوق من رتبة العسكرية فانضم إلى التتار وأصبح قائداً لجيوشهم ضد بلاده.

جوليفيه، وهاري : صحافيان، أولهما فرنسي، والثاني
بلونت إنجليزي يرسلان صحيفتيهما بأنباء
القتال.

فاسيلي فيدور : طبيب روسي نفاه القيصر في
أركوتسك.

نادية فيدور : ابنة الطبيب فاسيلي، وزميلة
ميشيل ستروجوف في رحلته.

مارفا ستروجوف : أم ميشيل ستروجوف، من بلدة
أومسك في سيبيريا، مخلصة لوطنها،
كبيرة النفس والقلب والعقل.

نيقولا بيجاسوف : موظف روسي بمكتب تلغراف مدينة
كوليفان.

سنجار : امرأة من الغجر كانت خادمة
وجاسوسة لإيفان أوجاريف.

مؤلف الرواية

«جول فرن» أديب فرنسي ولد عام ١٨٢٨م، وقد عرف منذ صباه بخياله الخصب الفذ. ولكنه لم يكن يعتمد على الخيال وحده في كتاباته. وكان يستفز إعجاب الجغرافيين بوصفه للأماكن الكثيرة النائية التي يكتب عنها، كما كان يثير إعجاب العلماء بتنبؤاته التي تتضمنها مؤلفاته. وقد اعترف أكثر من مخترع بفضل كتابات «جول فرن» عليه. ومما قاله عنه ماركوني: «صور فرن للناس رؤى محببة تمنوا أن يفعلوا مثلها. وحفزتهم إلى محاكاتها».

وحينما طار الأميرال «بيرد» فوق القطب الجنوبي، قال «لقد كانت كتابات (فرن) ترشدني أثناء رحلتي».

وكان أول مؤلفاته كتاب بعنوان: خمسة أسابيع في بالون، كان قطعة من الخيال الشائق الممتع، عرضه على ناشر يدعى «بيرهتزل» فأبدى إعجابه بكل صفحة من صفحاته، وخرج المؤلف لا بعقد اتفاق خاص بهذا الكتاب وحده، وإنما بعقد لتأليف كتابين في كل عام لمدة عشرين سنة بأجر لم يكن يحلم به أحد في ذلك الحين.

وبعد بضعة أشهر، كان القراء يتخاطفون مجلة اتفقت معه على أن يكتب فيها فصولاً تتضمن وصف رحلات وأسفار إلى مناطق نائية، وقد تنبأ «فرن» في هذه الفصول باكتشاف القطب الشمالي قبل أن يكتشف بنحو نصف قرن، ثم كتب قصة أخرى بعنوان «رحلة إلى مركز الأرض»، قام أبطالها بالغوص إلى باطن الأرض في «أيسلندا».

وظل «فرن» خمسة وأربعين عاماً ينتج كتباً من هذا اللون تباع بالملايين بين الخاصة والعامة في مختلف أنحاء المعمورة، وقد كان يستقى وقائعها من قراءاته العديدة، ثم يضيف عليها من خياله الخصب، وقد ظهر أنه قرأ قبل تأليف كتابه «من الأرض إلى القمر» ما لا يقل عن خمسمائة كتاب، ومات «فرن» في عام ١٩٠٩، وهو في السابعة والسبعين

حفلة في القصر الجديد

- مولاي، برقية جديدة ..
- من أين جاءت؟
- من «تومسك»
- هل قطعت أسلاك التليفون إلى أبعد من تلك البلدة؟
- نعم ؛ منذ أمس!
- إذن أرسل يا جنرال برقية إلى تومسك كل ساعة، ودعني على اتصال بما يحدّ في هذا الشأن.
- فقال الجنرال كيسوف: «حسنًا، يا مولاي».

تبدلت هذه العبارات في الساعة الثانية صباحًا، في الوقت الذي بلغت فيه الحفلة المقامة في «الباليه نوف» - القصر الجديد - قمة روعتها وبهائها، وكانت موسيقى بعض فرق الجيش تواصل منذ بداية السهرة عزف رقصات «البولكا» و «المازوركا» و «الفالس» المختارة، وجموع الراقصين والراقصات تتضاعف وتزداد في الصالونات الفاخرة لهذا القصر، المقام

على قيد خطوات من «المنزل الحجري العتيق» حيث وقعت في الماضي كثير من المآسي الرهيبة. وكان مارشال البلاط الكبير ينجز مهامه الدقيقة بمعاونة بعض النبلاء، حاملي رتبة الغراندوق «الدوق العظيم» وأركان حربهم وضباط القصر، وقد ساهموا جميعا في الإشراف على تنظيم الرقص، بينما تألفت الدوقات وزوجات كبار موظفي الدولة العسكريين والمدنيين في ثيابهن الأنيقة وحليهن الماسية الثمينة.

وحين أعطيت إشارة البدء بعزف مقطوعة «البولونيز» الشهيرة «لشوبان» بادر المدعوون من جميع الطبقات، إلى الاشتراك في هذه الرقصة الوطنية المحبوبة، فاختلطت الأثواب الطويلة المزينة بالدنتلا، وتداخلت وتفرقت على هيئة رائعة تحت أضواء مائة من الثريات الفاخرة، تنعكس أضواؤها على المرايا العديدة التي تزين جدران القصر العظيم، فكان المنظر كله مما يبهر القلوب والأبصار.

وبدت حركات الأضواء الباهرة تنبعث من خلال زجاج النوافذ المستديرة الكبيرة أشبه بانعكاس حريق هائل، فيه مفارقة صارخة لظلام الليل الذي يغلف القصر من الخارج، واسترعى هذا أنتباه بعض المدعوين الذين لم تجذبهم حلبات الرقص، فوقفوا إلى جوار النوافذ يتأملون هذه اللوحة الطبيعية وما يرتسم على صفحاتها من أشباح بعيدة مختلطة، وظلال باهتة لأبراج الأجراس المتناثرة هنا وهناك.

وتحت شرفات القصر المنحوتة، كان نفر من الحرس يروحون ويجيئون وعلى أكتافهم بنادقهم، وعلى رؤوسهم خوذاتهم ذات الأطراف المدببة التي تلتمع كاللهب على الأضواء المنبعثة من الداخل، وكان الواقفون إلى النوافذ يسمعون وقع هؤلاء الحراس وهم يسيرون فوق أحجار الطريق المربعة بانتظام، لعله يفوق انتظام خطوات الراقصين في القصر على «باركيه» الصالونات.

ومن وقت لآخر كانت تتردد صيحة الديدبان من مخفر إلى مخفر، وأحيانا يختلط نداء النفير بأنغام جوقة الموسيقى ويثب بنشازه ألعانها المتسقة، وأمام واجهة القصر كانت تبدو كتل السفن التي تتهدى على صفحة نهر قريب فتترامى أنوارها وتتراقص على الماء، بينما يتناثر رذاذ الماء على وجوه الجالسين في الصفوف الأولى على سطحها.

وكانت الشخصية الرئيسية في الحفلة هي شخصية مقيمها الذى حرص الجنرال «كيسوف» على مخاطبته كما يخاطب الملوك، وكان يرتدى سترة بسيطة لضابط من ضباط الحرس، لا تتفق مع الأزياء الأنيقة التي ارتداها المدعوون، ولا مع الأردنية القوقازية الفاخرة التي يلبسها أفراد حاشيته المحيطون به، من ضباط جورجيا والقوقاز!

وكان الرجل فارغ القامة، بشوش القسمات، هادئ الوجه، وإن ارتسم القلق على جبهته،. يتنقل من جماعة

إلى جماعة بغير أن يتكلم إلا فيما ندر، وقد بدا كمن لا يلقي بالا إلى لهو الشباب من المدعويين، أو تصريحات الشيوخ ذوى المناصب الكبيرة ورجال السلك السياسي الدبلوماسي الذين يمثلون الدول الأوروبية الكبرى، وقد لاحظ اثنان أو ثلاثة من هؤلاء السياسيين على مضيفهم الكبير أعراض قلق لم يعرفوا أسبابه ودواعيه، ولكن لم يجروا أحدهم على سؤاله عنها !.

على أنه حرص برغم ذلك كله على ألا تؤثر دواعي قلقه الخفية في جو الحفلة، أو يعطل سيرها بحال من الأحوال، ولا عجب فهو أحد الملوك النادرين وقد تعود أن يطيعه شبه عالم بأسره من البشر طاعة عمياء.

وانتظر الجنرال كيسوف أن يصرفه مولاه من حضرته بعد ذلك، ولكن هذا ظل صامتا بعد أن تناول منه البرقية الواردة من تومسك وقرأها، ثم غامت جبهته، وبحركة غير إرادية أمسكت يده بمقبض سيفه، ثم ارتفعت إلى عينيه فحجبتهمما كأنما ضايقته الأضواء الباهرة، وحالت بينه وبين التفكير العميق المتزن، وأخيرا قاد الجنرال من يده إلى إحدى النوافذ وهو يقول له: «إذن فاتصالنا بالغراندوق شقيقي منقطع منذ أمس؟».

— نعم يا مولاي، بل يخشى ألا تستطيع البرقيات في القريب العاجل اجتياز حدود سيبيريا !.

— ولكن جيوش «أمور» و «أياكوتسك» و «ترانزبيكالي»، قد

- تلقت الأمر الزحف على «أركوتسك»، أليس كذلك؟
- إن هذا الأمر قد أرسل في آخر برقية استطعنا إرسالها عبر بحيرة «بايكال»
- لكننا ما زلنا على اتصال مباشر بحكومات «أومسك» و «يينيسسك» و «توبولسك» منذ بدء الغزو؟
- نعم يا مولاي، إن برقياتنا تصل إليها، ونحن على ثقة - حتى الساعة الراهنة - من أن التتار لم يتقدموا إلى أبعد من «إيرتيش» و «أوبي».
- وما من نبأ عن الخائن «إيفان أوجارييف»؟
- لا يا مولاي، ولا يعلم مدير البوليس : هل عبر الحدود أم لا ؟
- إذن فلترسل حالا نشرة بأوصافه إلى جميع المراكز التي نستطيع الاتصال بها تلغرافيا
- أوامر جلالتكم ستنفذ فوراً.
- ولتحرص على التزام الصمت التام فيما يتصل بالأمر كله !.

فحنى الجنرال رأسه مطيعاً في احترام وتوقير، ثم انسحب من أمام مولاه واندس في زحمة الحاضرين، وبعد حين غادر صالونات القصر بغير أن يتنبه إلى ذلك أحد، أما مولاه

فبقى هنيهة كالحالم، ثم اختلط بجمهور المدعويين من رجال السياسة والجيش، وقد استرد وجهه هدوءه الذى فارقه دقائق معدودات!.

ولم يكن الحديث الخطير الذى جرى في شأنه ذلك الحديث القصير مجهولا من الجميع كما حسب هو والجنرال، فالواقع أنه - وإن لم يتحدث فيه أحد بصفة رسمية - كان خبره قد بلغ إلى علم بعض الشخصيات الكبيرة، كما وصل في شيء من الغموض إلى رجال السلك السياسي، وكان موضع همس بين اثنين من المدعويين لا يرتديان الملابس الرسمية أو تزين ثيابهما أية نياشين وقد بدا عليهما كأنما تلقيا تعليمات واضحة في ذلك الشأن.

كان كلاهما كبير السن نحيل الجسم، وأحدهما فرنسي أسمر مثل سكان جنوب فرنسا، والآخر إنجليزي أصهب أحمر مثل أهل مقاطعة لانكشير، وبينما كان الفرنسي يتكلم في حدة مستعينا بتعبيرات عينيه وشفتيه وحركات يديه، كان زميله الإنجليزي هادئا باردا مقتصدا في حركاته وكلماته، وقد بدا عليه كأنما ليس في رأسه غير فكرة واحدة، وكان المراقب لهما يستطيع أن يحكم من الفارق الفسيولوجي الكبير بينهما أن أولهما كله عيون، وأن الثاني كله آذان!.

كان الفرنسي ذا عينين أكسبهما المران حدة وحساسية بحيث يمكن القول بأنهما كفلتا له ما يسمى بذاكرة

البصر، أما زميله الإنجليزي فكان كأنما خلق ليصغى ويسمع، بحيث كان يكفي أن تتلقف أذنه صوت إنسان ما كي يذكره ويستطيع تمييزه من بين ألف صوت ولو بعد عشر سنوات أو عشرين سنة!.

وقد أعانت حاسة كل منهما صاحبها في عمله بصورة رائعة، إذ كان الإنجليزي مراسل جريدة «الديلي تلغراف» والفرنسي مراسل جريدة فرنسية لم يذكر اسمها، وقد دعيا إلى تلك الحفلة التي أقيمت بالقصر الجديد ليلة ١٥ يوليو بصفتها الصحفية هذه!.

ومن نافلة القول الإشادة بما كان يتصف به الاثنان من شغف بمهنتهما، وحرص على الظفر بأهم الأنباء وأغربها، وشجاعة في مواجهة الأخطار التي يتعرضان لها بحكم عملهما، و«دم بارد» يجعلهما لا يخافان من شيء ولا يحجمان عن أمر في سبيل بلوغ غايتهما، فكانا في سياقهما للحصول على الأخبار يجتازان كل سياج، ويعبران الأنهار ويقفزان فوق الحواجز، بحماسة من يريدون السبق، أو الموت دونه!.

ولم تكن صحيفتهما تبخلان عليهما بالمال، وهو السلاح الأسرع والأقوى للاستعلامات حتى اليوم، ومن حقهما أن نضيف أن أحدا منهما لم يكن يعمد إلى التسمع من وراء الأبواب أو التطلع إلى ما فوق أسوار الحياة الخاصة لأحد

من الناس، وإنما كان مجالهما الوحيد ما يتصل بالسياسة والمجتمع أو - على حد تعبير الصحافة العصرية - كان اختصاصهما إجراء التحقيقات الصحفية السياسية والحربية، وسنرى - ونحن ننتبعهما عن كثب - أن لهما في أغلب الأوقات طريقة خاصة فريدة في استقراء الأنباء المهمة وملاساتها.

كان المراسل الفرنسي يدعى السيد «جوليفيه» وكان زميله الإنجليزي يدعى «هاري بلونت» وقد التقيا لأول مرة في هذه الحفلة الساهرة المقامة بالقصر الجديد، والتي كلفا بكتابة شيء عنه لصحيفتيهما، وكان المعقول أن يباعد بينهما تنافر طباعهما وشخصيتيهما، فضلا عما لا شك فيه من الغيرة التي يتبادلها أبناء المهنة الواحدة، لكن الذي حدث أن أحدهما لم يتجنب الآخر على أثر تعارفهما، بل حرص على مبادلة زميله استنتاجاته بصدد حوادث اليوم وتعليقه عليها، فكانا بمثابة صيادين يصطادان على أرض واحدة، وبذخيرة واحدة، وما كان يفوت أحدهما لم يكن يبعد أن يتنبه إليه الآخر، ومن ثم اقتضتهما مصلحتهما الذاتية أن يحشدا كل طاقتهما للملاحظة والرؤية والسمع، وبخاصة في هذه الليلة التي بدا فيها أن في الجو شيئا أو أشياء!.

وهكذا وقف الزميلان يتحدثان أثناء الرقص، بعد ثوان معدودات من خروج الجنرال كيسوف، وبدأ جوليفيه الحديث قائلا:

— حقا إنها حفلة رائعة يا سيدى

فقال هارى بلونت : «لقد أبرقت لصحيفتي بوصفها
وقلت إنها حقاً مدهشة!». .

فعاد جوليفيه يقول : «وقد وجدت من واجبي أن ألفت
ابنة عمى إلى ..» ، فقطع كلامه زميله الإنجليزي متسائلاً :
«ابنة عمك» ؟!

فقال : «نعم، ابنة عمى (مادلين) التي أراسلها، إنها
تحب أن تقف على كل شيء في حينه، وقد وجدت من
واجبي أن ألفتها إلى سحابة من الهم قد ظلت جبين
القيصر منذ هنيهة!». .

فقال بلونت : «كيف ؟ لقد بدا لي متهللاً!». .

قال : «بالضبط !»

فقال جوليفيه : «أتذكر يا مسيو بلونت ما حدث في
(زاكريت) عام ١٨١٢؟»

قال : «نعم أذكره كأنني شهدته !»

قال : «إذن فأنت تعلم أنه خلال حفلة أقيمت تكريمًا
للإمبراطور إسكندر، أخبره المختصون بأن نابليون قد جاوز
«نيمين» ومعه الحرس الفرنسي الأمامي، وبرغم خطورة
النبا الذى كان يمكن أن يعنى ضياع الامبراطورية، لم يبرح
الإمبراطور الحفلة، ولم يظهر شيء يكشف عن انزعاجه!». .

فقال الصحفي الإنجليزي: «وهذا ما فعله مضيفنا حين أنبأه الجنرال كيسوف بأن الخط التلغرافي بين الحدود وحكومة إيركوتسك قد قطع»

فسأله زميله الفرنسي: «إذن فأنت تعرف هذه التفصيلات؟»، ولما أوماً هذا برأسه موافقا، قال له: «أما أنا فقد كان من العسير عليّ! تجاهلها بعد أن وصلت برقيتي الأخيرة إلى أودنسك».

فقال: «إن برقيتي أنا لم تصل إلى أبعد من كراسنويارسك»

قال: «وإذن أنت تعلم أنه قد أرسلت تعليمات إلى الجيوش المعسكرة في نيكولافيسك؟».

فقال: «نعم، حدث هذا في الوقت الذي أبرقوا فيه إلى قوقاز حكومة وبولسك كي يتجمعوا».

فأوماً برأسه موافقا وقال: «وقد أبرقت إلى باريس بجميع هذه التفصيلات».

قال: «وسوف يطلع عليها غدا قراء الديلي تلغراف، رأييت فائدة إصاخة السمع لكل ما يقال؟»

فابتسم وقال: «وفائدة توجيه البصر إلى كل ما يرى، إنها حملة سيكون من الشاق تتبعتها».

فقال بلونت: «حسنا، وسوف ألتبعتها بدوري يا مسيو جوليفيه»

وحين افترق الصحفيان، كان كلاهما قريير النفس بأن الآخر لم يسبقه في استطلاع خفايا الأخبار، فقد كان الاثنان في هذا المضمار فرسي رهان.

وفي تلك اللحظة فتحت أبواب الصالات المفضية إلى الصالون الكبير، حيث مدت موائد طويلة، وضعت عليها الأواني الذهبية والخزفية الثمينة، بينما حفلت المائدة الرئيسية- المخصصة للأمراء والأميرات وأعضاء السلك الدبلوماسي- بالأواني والتحف النادرة التي أنتجتها مصانع « سيفر » العالمية، وقد انتشرت فوق غطاء فاخر للمائدة، وعكست أضواء الثريات المتألثة في سقف المكان.

وفي اللحظة التي بدأ فيها المدعوون يتفرقون في صالات العشاء، أقبل الجنرال كيسوف إلى حيث كان مولاه جالسا مرتديا سترة فرسان الحرس، فابتدره هذا في لهفة سائلا: «ما وراءك؟».

فأجاب بقوله: «لم تعد البرقيات تتجاوز تومسك يا مولاي !»
قال : «إذن عجل برسول في الحال!»، ثم نهض وغادر القاعة الكبرى إلى حجرة واسعة متصلة بها، وهي حجرة مكتبه الخاص وكانت مؤثثة بأثاث بسيط من خشب «الأرو» القديم، ففتح النافذة بشيء من الحدة، كما لو كان بحاجة إلى أن يملأ رئتيه بالأكسجين، وأخذ يستنشق هواء تلك الليلة الجميلة من ليالي يوليو، ويتطلع إلى سور ضخم محصن تقوم

داخله ثلاثة قصور وكنيستان وترسانة أسلحة، وتبين خارجه معالم ثلاث ضواح هي : كيتاي، وبيلوي، وزميليانوي، وهذه الضواحي تضم خليطا من الأحياء الأوروبية والصينية والتترية، تشرف عليها الأبراج والمناير والقباب الخاصة بثلاثمائة كنيسة يعلو كل منها صليب من الفضة، وهناك عند أقصى الأفق نهر صغير تعكس مياهه ضوء القمر الساجي!.
ذلك النهر هو نهر «موسكوبا» ، وتلك المدينة هي مدينة «موسكو».

أما القلعة المحصنة فهي «الكرملين»، وأما صاحب الشخصية الكبيرة الذى ارتدى سترة فرسان الحرس، ووقف هناك وذراعا معقودتان على صدره، وعلى جبينه سمة القلق والتفكير العميق، برغم الضجيج الذى ينبعث من القصر الجديد، فلم يكن سوى جلاله القيصر نفسه!.

روس وتتار

كان القيصر قد غادر فجأة صالونات القصر الجديد، في الوقت الذي بلغت فيه ذروة التآلق حفلته التي أقامها للسلطات المدنية والعسكرية وصفوة شخصيات موسكو، وذلك لأن أنباء خطيرة أبلغت إلى مسامعه عن أحداث تجرى على حدود جبال الأورال، لا تدع مجالاً للشك في أن هناك غزواً قريباً هدفه سلخ ولايات سيبيريا عن سلطان روسيا.

وسيبيريا - أو روسيا الآسيوية - مساحة من الأرض يبلغ مداها نحو ٥٦٠ ألف فرسخ، ويقطنها مليونان من السكان، وهي تمتد من جبال الأورال - التي تفصلها عن روسيا الأوروبية - إلى المحيط الباسفيكي، وفي جنوبها تقع بلاد التركستان والامبراطورية الصينية، وفي شمالها المحيط المتجمد الشمالي، وهي مقسمة إلى ولايات خمس هي : توبولسك، وينيزيسك، وأركوتسك، وأومسك، وأياكوتسك، وكانت هذه المساحة الشاسعة من البراري تستخدم منفي للمجرمين والمحكوم عليهم، ويمثل القيصر فيها حاكمان: يقيم أحدهما بأركوتسك عاصمة سيبيريا الشرقية، ويقيم

الآخر بتوبولسك عاصمة سيبيريا الغربية، ويفصل بين المنطقتين نهر «تشونا».

وفي الوقت الذى وقعت فيه حوادث هذه القصة لم تكن تخترق تلك الأقطار الشاسعة خطوط حديدية، برغم أن بعضها كان أرضا خصبة تصلح للزراعة، وبعضها غني بالمناجم التي تجعل باطن الأرض أثمن من سطحها، وإنما كانت الزحافات، هي وسائل المواصلات الوحيدة في أنحائها بجانب الخط التلغرافي الذى يربط بين أطراف الحدود الغربية والشرقية، وطوله أكثر من ثمانية آلاف ميل، وأجر الكلمة الواحدة بوساطته سبعة روبلات وتسعة عشر كوبيك، وتحمل البرقيات إلى بكين في عربة البريد فتبلغها بعد أربعة عشر يوما.

وهذا الخط هو الذى قطع عند مدينة تومسك، فسبب هذا للقيصر كثيرا من القلق والانزعاج وجعله ينفرد بنفسه في شرفة مكتبه الخاص، يفكر ويتدبر الموقف، ولكن لم تمض عليه في وقفته تلك لحظات حتى فتح الباب وظهر مدير البوليس على عتبته، فقال القيصر بصوت ملهوف:

— ادخل يا جنرال، وقل لي كل ما تعرفه عن «إيفان أوجارييف»

فقال مدير البوليس: «إنه رجل خطر جدًا يا مولاي»

قال: «أهو حاصل على رتبة الكولونيل؟ وهل هو ذكي؟»

فقال : «نعم يا مولاي، هو ضابط برتبة كولونيل، وهو على ذكاء مدهش، وذو طموح وثَّاب، لا يتراجع أمام عقبة أيَّا كانت، وقد ارتقى أخيرًا في شبكة مؤامرات سرية انتهت بتجريدته من رتبته بأمر سمو الغراندوق، ثم نفىه إلى سيبيريا»

فقال القيصر: «متى حدث ذلك؟»

فقال : «منذ عامين، لكن مولاي أصدر أمره بالعفو عنه بعد انقضاء ستة أشهر عليه في المنفى، فعاد إلى روسيا»
فقال القيصر: «ألم يعد إلى سيبيريا مرة أخرى؟»

قال: «عاد إليها، ولكن باختياره في هذه المرة، فلقد مضى العهد الذى كان فيه الشخص الذى يرسل إلى سيبيريا، لا يعود منها حيا!».

— ما دمت أنا على قيد الحياة فلن تكون سيبيريا منفي لا يعود الناس منه أحياء .

وكان القيصر يتكلم بلهجة زهو واضحة، لم تخف على مدير الشرطة، الذى لم يكن يقر سياسة الصفح والتسامح التى يسير عليها القيصر!

وعاد القيصر يسأل: «هل لم يعد (إيفان أوجارييف) إلى روسيا بعد تلك الرحلة الغامضة إلى سيبيريا؟».

فقال مدير البوليس: «لقد عاد بعدها يا مولاي»

قال : «وهل فقد البوليس آثاره منذ عودته هذه؟»

فقال : «لا يا مولاي ، لأن المجرم لا يصير ذا خطر حقيقة إلا منذ اليوم الذى يظفر فيه بالعفو!» .

وبدا التجهم في وجه القيصر ، إزاء هذا الانتقاد المستور لسياسته الداخلية ، لكنه تابع أسئلته قائلاً : «وأين كان إيفان في آخر مرة وقفتم فيها على أثره؟»

فأجابه مدير البوليس بقوله : «كان في مدينة بيرم يا مولاي»

قال : «وماذا كان يصنع هناك؟»

فقال : «كان يبدو عاطلاً لا يقوم بأي عمل ، ولكن مسلكه لم يكن يحمل على الارتياب فيه»

قال : «ألم يكن تحت مراقبة البوليس الأعلى؟» ، فقال : «لا يا مولاي»

فسأله القيصر : «إلى أين ذهب؟» ، فأجاب قائلاً : «لا أحد يعلم يا مولاي ، فمنذ ذلك التاريخ لم نعثر على أي أثر له» .

فقال القيصر : «أما أنا فأعلم أين ذهب ، إن عندي تقارير سرية عنه ، وأعتقد على ضوء الأحداث الأخيرة أنها صحيحة!» .

فقال مدير البوليس : «هل يقصد مولاي أن لإيفان أوجارييف يدًا في غزو التتار؟» .

قال : «نعم يا جنرال، وسأطلعك على ما تجهل في هذا الشأن، لقد غادر إيفان مدينة بيرم عبر جبال الأورال إلى حيث عسكر مدة في سيبريا داخل الخيام ونجح في إثارة شعور أهلها، ثم هبط إلى الجنوب نحو التركستان الحرة، وهناك وجد من بين رؤساء القبائل من وافقه على تسخير جنودهم للتتار في غزو الامبراطورية الروسية الآسيوية، وبعد أن تم الاستعداد للمؤامرة في الخفاء، انطلق الهجوم فجأة كالصاعقة، وها هي ذي سبل المواصلات قد قطعت بين سيبريا الغربية والشرقية، وأكثر من ذلك أن إيفان أوجاريف يدبر أمر الاعتداء على حياة شقيقي، إمعاناً في الانتقام!«.

وكان القيصر يتكلم في حدة، وهو يذرع الحجرة كالنمر الحبيس، ولم يجب مدير الشرطة بكلمة، وأن كان قد حدث نفسه بأن مؤامرة إيفان أوجاريف ما كانت لتتم أو تنجح لو أنه قام بها في الزمن الذي كان فيه القياصرة يضمنون فيه على المنفيين بالصفح!

وبقى مدير الشرطة صامتاً هنيئاً، ثم قال للقيصر الذي جلس متهالكاً على مقعد هناك :

— أحسب أن جلالتكم أصدرتم أمراً عاجلاً بصد هذا الغزو؟

فقال القيصر : «نعم، وقد كانت آخر برقية وصلت إلى «نيجي أودنسك»، تحمل الأمر بحشد جيوش عدة ولايات وتسييرها نحو جبال الأورال، ولكن لسوء الحظ لا بد من

انقضاء أسابيع قبل أن يتاح لها بلوغ مستعمرات الأعداء!»

قال : «وهل انقطع اتصال جلالتك بسمو الغراندوق شقيقكم الذى عزلن الآن في أركوتسك؟»

فقال : «نعم .. لكنه يعلم من البرقيات التي وصلت إليه ما اتخذت من إجراءات لنجدته بجيوش الولايات القريبة منه، وإن كان يجهل الدور الذى قام به إيفان أوجارييف في تدبير الغزو، كما يجهل النية التي بيثها هذا الخائن للاعتداء عليه، انتقاما منه بسبب الأمر الذى أصدره بتجريدته من رتبته، وتلخص خطة إيفان الانتقامية في أن يتوجه إلى أركوتسك منتحلا سماً مستعاراً، وهناك يعرض خدماته على الغراندوق الذى يجهل شخصه، وبعد أن يظفر بثقته، وفي الوقت الذى يكون فيه التتار قد بلغوا أبواب المدينة، يعتمد إلى تسليمهم إياها، ومعها أخي! ... لذلك أرى أن أول ما يجب أن نفعل هو إخطار الغراندوق بهذا التدبير الذى يجهل كل شيء عنه، وهذا يتطلب رسولا ذكيا شجاعا».

فقال مدير البوليس : «نعم يا مولاي، ولا سيما أن سيبريا موطن المتمردين والثوار!».

قال : «أتعنى أن المنفيين ينتظر أن ينضموا إلى الغزاة؟»

قال : «أرجو المعذرة يا مولاي»

فقال : «إنهم أكثر وطنية من هذا فيما أعتقد»

قال: «لكن بينهم كثيرين من المجرمين غير السياسيين يا مولاي!»

قال: «أوه إنني أدع أمر هؤلاء لك يا جنرال، إنهم حثالة النوع الإنساني، وهم لا ينتمون إلى أي وطن، أما الآخرون فلا أحسبهم ينسبون أن الغزو ليس موجهًا إلى شخص القيصر بل إلى روسيا ذاتها، وهم لم يفقدوا الأمل في أن يطاءوا أرضها مرة أخرى، وسوف يطاءونها!.. لكن كلا، لا يمكن أن يتعاون روسي مع تتاري في سبيل إضعاف سطوة حكومة موسكو!»

وكان القيصر على حق في ثقته بوطنية خصومة السياسيين الذين أبعادوا إلى سيبيريا حتى حين، ولا سيما أن سياسته نحو هؤلاء كانت تقوم على التسامح والرحمة بالقياس إلى سياسة أسلافة القساة، ولكن الموقف بإزاء الغزو كان ما يزال خطرًا برغم ذلك، لاحتمال انضمام قسم كبير من أهل سيبيريا إلى الغزاة، بغية الحصول على استقلالهم الذاتي، وقد طالما حضهم تتار التركستان على شق عصا الطاعة على موسكو والانسلاخ عن سلطانها.

والتتار ينتمون إلى جنسين: الجنس القوقازي، والجنس المغولي، وقد كان أهل التركستان الذين يهددون روسيا بالغزو من الجنس الأول. وكانت التركستان مقسمة إلى ولايات عدة، يحكم كل ولاية منها «خان»، وفي تلك الحقبة كان

أخطر الولايات التركستانية و أدعاها إلى الارتياح هي ولاية «بخارى» التي اشتبكت روسيا مرارا في منازعات مع حكامها بسبب تحريضهم سكان سيبريا على التمرد، ودعوتهم عشيرة «الكرجيز» إلى الانفصال عن سلطان حكومة موسكو.

وكان حاكم بخارى في ذلك الوقت «فيوفار خان» يسير على نهج أسلافه في سياسته العدائية نحو روسيا، وكانت ولايته تشغل مساحة ما تقرب من عشرة آلاف فرسخ مربع وسكانها يربون على مليونين وخمسمائة ألف نسمة، وجيشها يقدر بنحو ستين ألف مقاتل، يتضاعف عددهم إلى ثلاثة أمثاله في زمن الحرب، يضاف إليهم ثلاثون ألف فارس.

وكانت بخارى إلى ذلك ولاية غنية، ذات ثروة حيوانية ومعدنية ونباتية متنوعة، وبها تسع عشرة مدينة كبيرة وتعد مركز الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى، وقد اشتهرت «سمرقند» بأنها تضم قبر «تيمور لنك»، كما تضم القصر العظيم الذى يحتفظون فيه بالحجر الأزرق الكبير الذى يتعين على كل خان جديد أن يجلس فوقه على أثر اعتلائه منصبه، وتحمى القصر قلعة ضخمة محصنة أقوى تحصين، كما حمى الولاية كلها سلسلة من الجبال والبراري الشاسعة التي يضطر من يريد مهاجمتها إلى أن يحشد لذلك جيوشا جرارة.

وكان «فيوفار خان» حاكم الولاية رجلا شرسا طموحا، يعتمد إلى حد ما على معاونه حكام الولايات المجاورة كي

يمدوه بالمقاتلين القساة الشجعان، الذين يلقون بأنفسهم على العدو بغريزة التتري المستوحش، وعلى رأسهم قواد من رؤساء عشائر آسيا الوسطى الذين يدين رجالهم بالطاعة والولاء، وبهذا الاستعداد الضخم تزعم «فيوفار خان» مشروع الغزو الذى وضع خطته المحكمة ذلك الضابط المفصول إيفان أوجارييف، بدافع من طموحه وحققه، وكان عماد تلك الخطة قطع طريق سيبريا الرئيسي الكبير!

وبإيحاء من إيفان، قذف الأمير - كما يطلقون على «خان» بخارى - برجاله المقاتلين على الحدود الروسية، فغزوا مقاطعة «سميبلاتسك» واضطر المدافعون عنها من رجال القوقاز - وكانوا قلة ضئيلة العدد - إلى الانسحاب، بينما تقدم هو بجنون حتى جاوز بحيرة بلخاش، وكان في طريقه قد استمال إليه بعض سكان المناطق التي مر بها من قبائل الكرجيز، وهكذا مضى يكتسح بلدة بعد بلدة، ناهبا سالباً متلفاً مخرباً، ومجنوناً من استسلموا له، آسراً من قاوموه وفي ركابه أسرته وحاشيته على عادة ملوك الشرق، ومن بينها نساؤه وجواريه، وهو حريص على إبراز مظاهر القوة والسلطان اللائقيين بجبار عاتٍ مثله من المتشبهين بجنكيز خان!

ولم يكن أحد يعرف إلى أي مدى تغلغل جنوده، في الوقت الذى بلغ فيه نبأ الغزو إلى موسكو، ولا إلى أي مدى تفهقرت القوات الروسية أمام الغزاة؟ ذلك لأن الاتصال بين المدافعين والعاصمة كان معدوماً، ولا أحد يدري، هل قطع الخط بين

«كوليفان» و «تومسك» بيد الجيش الروسى المرتد، أم بيد جيش التتار؟ وهكذا انتشرت الأسئلة على الأفواه: وتساءل المختصون :

هل وصل «الأمير» إلى ولاية «ينسِنج»؟ وهل شبت النار في القطاع الجنوبي من سيبيريا الغربية؟ وهل امتدت الفتنة إلى المناطق الشرقية؟

ولم يكن ثمة من مجيب بعد أن فقد الرسول الوحيد الذى يسير بسرعة الصاعقة، ولا يخشى البرد ولا الحر، ولا يعوقه زمهرير الشتاء ولا هجير الصيف، فقد التيار الكهربائي الذى كان وحده يستطيع عبور تلك البراري الشاسعة، ولم يعد في الإمكان تحذير الغراندوق المحصور في «إيركوتسك» من الخطر الذى يهدده من جانب الخائن إيفان أوجارييف !.

رسول واحد آخر كان يستطيع أن يحل محل الخط المقطوع، وأن احتاج إلى وقت أطول كي يعبر الخمسة آلاف ميل من موسكو إلى إيركوتسك، كما أنه يحتاج إلى شجاعة وذكاء خارقين كي يخترق صفوف الثوار والغزاة ويصل إلى هدفه.

ولقد كان القيصر يتساءل : «ترى هل أجد هذا الرسول؟».

ميشيل ستروجوف

فتح باب مكتب القيصر، وأعلن الحاجب حضور الجنرال كيسوف، وسأل القيصر زائره في لهفة: «هل جئت بالرسول؟»، فقال الجنرال: «إنه هنا يا مولاي».

قال: «هل وجدت الرجل الذي نريده؟»، قال: «نعم»

فسأله: «أتعرفه جيداً؟ وهل له خدمات سابقة؟»

قال: «نعم يا مولاي، وقد نجح في عدة مهام خطيرة!»

فسأله: «أكانت هذه المهام في الخارج؟»

فأوماً برأسه موافقاً وأردف يقول: «في سيبيريا بالذات!»

قال القيصر: «ومن أين هو؟»، قال: «من أومسك، إنه سيبييري أصيل!»

فعاد يسأله: «أنتوافر فيه الصفات المطلوبة: الذكاء والشجاعة، وامتلاك الأعصاب؟»

قال: «نعم يا مولاي، وعنده كل ما يحتاج إليه لينجح حيث يفشل غيره!»

فسأله : «ما سنه؟» ، قال : «ثلاثون سنة»

قال : «أهو قوى البنية؟» ، قال : «وله طاقة كبيرة بحمل
البرد والجوع والظما والتعب ، لكأن جسمه من فولاذ!»

فقال القيصر : «وقلبه؟» ، قال الجنرال : «من ذهب يا مولاي».

فسكت القيصر هنيهة ، ثم قال : «ما اسمه يا جنرال؟»

فقال : «اسمه يا مولاي؟ ميشيل ستروجوف»

قال : «أستعد هو للسفر؟» . قال : «أنه الآن ينتظر أوامر
مولاي في قاعة الحرس»

قال : «فليدخل علي».

وبعد لحظات دخل ميشيل ستروجوف مكتب القيصر ،
فوجد هذا أمامه رجلا طويل القامة ، قوي المراس ، عريض
المنكبين ، واسع الصدر ، يمثل رأسه القوى خصال الجنس
القوقازي الحميدة ، وتتدلى من جبهته العريضة خصلات من
الشعر الثائر ، وكان وجهه في العادة شاحبا ، لا يحمر إلا
حين تسرع نبضات قلبه في المواقف التي تثير الانفعال ،
أما عيناه فزرقاوان نظرتهما صريحة مستقيمة برامة تنم عن
الشجاعة الفائقة ، وأنفه قوي واسع ، يشرف على شفيتين
بارزتين ، تفصحان عن طبيعة كريمة طيبة ، أما أبرز خصاله
فكان الحزم والحسم اللذان لا يعرفان التردد أو التقهقر.

وقف ميشيل أمام القيصر، كما يقف الجندي أمام ضابطه، وكان يرتدى سترة عسكرية أنيقة، يزين أكمامها الفراء، وعلى صدره العريض يلمع صليب وبضع مداليات، وكان ينتمى إلى فرقة «المراسلين» للقيصر، برتبة ضابط، وكان الذى يبدو من قسماته ومشيته وحركاته أنه يعرف كيف «ينفذ» الأوامر، والواقع أنه كان خير من يقوى على عبور البراري وتحمل المشاق وتخطفى العقبات، فضلا عن إتقانه لهجة أهالي المناطق التي سيمر بها وخبرته بعاداتهم وطباعهم، بحكم نشأته الصارمة في أحراش أومسك وتوبولسك، كما أراد له أبوه «بير ستروجوف» الذى مات منذ عشر سنوات - وأمه «مارفا» التي ما تزال تقطن أومسك، وكان أبوه صيادا بارعا في صيد الوحوش والدببة، قديرا على تحمل القيظ والزمهرير - الذى يصل أحيانا إلى خمسين درجة تحت الصفر! - ومنذ بلغ ابنه ميشيل الحادية عشرة صار يصطحبه معه في رحلات الصيد، ويحمله حبة كي ينجده بها - عند اللزوم - لأنه لم يكن يتسلح بغير السكين، وفي الرابعة عشرة أفلح ميشيل في اصطيد دبه الأول، وحده، ثم جر جثته ثلاثة أميال حتى بيت أبيه!..

وقد أفادته حياته على هذا المنوال، فلما صار رجلا، امتاز بقوته الخارقة على تحمل المشاق والتقلبات الجوية، واستطاع أن يبقى أربعاً وعشرين ساعة بغير طعام، وعشر ليال بغير نوم، وعرف كيف ينشئ لنفسه مخبأ في البراري

الموحشة العارية، وكيف يشق طريقه في الضباب الكثيف، مهتديا بالأثر التافه لوبر الثلج وأغصان الأشجار، وأعشاب الغابات، والأصوات البعيدة الغامضة، والطيور العابرة في اتجاه معين، وغير ذلك من العلامات الضئيلة التي تكشف لذكائه عن سر الطريق، وكان إذا غاص في الثلج، كما يغوص النصل في مياه سوية، أعانته صحته الفولاذية على النجاة سالما.

أما عواطفه فكان يختص بها كلها أمه العجوز، وقد أبت أن تفارق البيت الذى عاشت فيه مع أبيه دهرا سعيدا، في أومسك، فلما تقرر أن يفارقها ابنها، حين بلغ العشرين، كي يلتحق بخدمة القيصر أخذت منه وعدا بأن يزورها كلما مكنته ظروفه، وقد بر بوعده في كل مناسبة، وفي فرقة الرسل القيصرية الخاصة، أثبت الشاب كفاءة ممتازة، وذكاء نادرا، وخلقاً حميدا، ومثابرة على العمل، وعندما أرسل في مهمات خطيرة إلى القوقاز، ثم إلى أطراف روسيا الآسيوية، أظهر شجاعة فائقة وحذرا وحصافة وسيطرة على الأعصاب، فرضى عنه كل رؤسائه، وشق طريقة إلى الترقية بسرعة، وكان يكرس دائما إجازاته لزيارة أمه، برغم بعد الشقة ومصاعب السفر الطويل، لكنه لم يزورها منذ ثلاثة أعوام، حسبها كل منهما ثلاثة قرون، وكان ذلك لانتدابه للعمل في الجنوب، وقد أسعده أن وعده رؤساؤه بإجازة قصيرة، فأخذ يتأهب للرحيل لدى صدور التصريح له بالسفر.

ولكن ها هو ذا القيصر يطلبه؟ ، ترى ماذا يريد منه؟! ..
إنه يقف الآن أمامه وليس في ذهنه سوى فكرة غامضة عن
الغرض الذى دعي من أجله !

ولبت القيصر هنيهة ، يتأمل ميشيل بنظراته الفاحصة ؛
دون أن ينبس بكلمة ، بينما وقف هذا منتصباً بلا حراك ،
وراح يملئ عليه بهمس خطاباً قصيراً لا يجاوز السطور
المعدودة ، ثم تناول الخطاب وأعاد قراءته بعناية ، ثم مهره
بإمضائه ، ووضع في ظرف ختمه بالخاتم القيصري ، وعندئذ
نهض من مقعده وأشار إلى الرسول بالاقتراب ، فدنا ميشيل
بضع خطوات وتسمر في مكانه من جديد ، متأهباً لأى طلب
أو سؤال ، بينما رmqه القيصر بنظرة أخرى فاحصة ، ثم
سأله بصوت حازم : « ما اسمك؟ ».

قال : « ميشيل ستروجوف .. يوزباشي بفرقة رسل القيصر »

فسأله : « أتعرف سيبريا؟ » ، قال : « ولدت ونشأت فيها »

فقال : « إذن إليك هذا الخطاب ، أعهد إليك يا ميشيل
ستروجوف في تسليمه للجراندوق دون غيره ، يدا بيد ، في أركوتسك »

قال : « سيكون ما أمر به مولاي »

قال : « أنك ستتمر بمناطق يحتلها الثوار الأعداء ، ومن
مصلحتهم مصادرة هذا الخطاب ، ولتكن على حذر من
خائن يدعى (إيفان أوجارييف) قد تلتقى به في الطريق ».

قال: «سأكون على حذر تام يا مولاي»

وواصل القيصر تعليماته فقال: «حين تمر بأومسك لا تذر أمك هناك، وإلا عرف الأعداء شخصيتك»

فقال: «لن أزورها يا مولاي»

قال: «يجب ألا تقوى أية قوة على جعلك تفصح عن اسمك أو وجهتك، أقسم على ذلك؟».

قال: «أقسم يا مولاي»

فناولته الخطاب قائلاً: «تذكر دائماً أن سلامة سيبريا وحياة أخي قد تتوقفان على وصول هذا الخطاب».

فتناوله بإجلال وهو يقول: «سأوصله أو أقتل!»

فقال القيصر: «بل يهمني أن تعيش. قال: «إذن سأعيش، وأصل، تنفيذا لأمر مولاي».

قال: «اذهب إذن، تحرسك عناية الله، من أجل روسيا، ومن أجل أخي، ومن أجلي».

وأدى ميشيل ستروجوف التحية العسكرية للقيصر، وغادر الحجرة، ثم القصر، بينما التفت القيصر إلى الجنرال كيسوف وقال: «أعتقد أنك وفقت في الاختيار».

فقال الجنرال: «أعتقد أن ميشيل ستروجوف سيفعل أقصى ما يستطيعه رجل»

فقال القيصر: «نعم .. إنه رجل!».

المرحلة الأولى

كانت المسافة التي يتعين على ميشيل ستروجوف أن يعبرها بين موسكو وأركوتسك نحو خمسة آلاف ميل، ومنذ قطع الخط التلغرافي بين جبال الأورال وحدود سيبيريا الشرقية صارت الرسائل تنقل بواسطة رسل لا يستطيع أسرعهم أن يقطع المسافة في أقل من ثمانية عشر يوم، مع الاستعانة بكل التسهيلات التي تعطيها السلطات لرسل القيصر، فإن المدة العادية لقطع تلك المسافة لا تقل عن أربعة أسابيع أو خمسة!.

وقد كان ميشيل ستروجوف يفضل - وهو لا يخشى البرد والثلج - لو أن رحلته كانت في الشتاء، حيث تستحيل البراري كلها والأنهار إلى مساحة واسعة مصقولة من الجليد الذي تنزلق عليه الزحافة بسرعة فائقة، دون ما عقبة أو عائق، ومع أن كثافة الضباب واستمراره في الشتاء، فضلا عن البرد الرهيب والذئاب الجائعة التي تجتاح السهول آلاف منها أحيانا، كفيلة بإرجاع غيره عن مثل هذه المخاطرة.

ولعل ستروجوف قد أدخل في حسابه أيضا أن من حسنات الرحلة في الشتاء أن يعسكر الأعداء في المدن، احتماءً

من البرد، فيقل عدد جواسيسهم وورقائهم الذين يتعرض
المسافر لخطرهم في العراء والبراري المكشوفة، ولكن أنى
للسول أن يختار وقت الرحلة أو ظروفها؟.

وهكذا أعد ستروجوف عدته للسفر، وزوده الجنرال كيسوف
بالمال، وبجواز سفر مصطنع باسم «نيقولا كوربانوف - تاجر
متجول، مقره الرئيسي « أركوست» يخوله حق الركوب في
عربات البريد أو امتطاء صهوات جيادها، لكنه أمر ألا
يستخدم هذا الجواز إلا في مناطق روسيا الأوروبية، خشية
اكتشاف أمره لو ركب تلك العربات أو الجياد في أرض
الأعداء المليئة بالجواسيس، كما أوصاه الجنرال كيسوف
بالحرص على أن يبدو في كل الظروف تاجرا عاديا، لا
مبعوثا خاصا، ومن ثم عليه أن يتحمل جميع المضايقات
التي يتحملها المسافر العادي.

وفي ذلك العهد، لم يكن ركاب المسافر ذي الحிثة يضم
أقل من مائتي فارس قوقازي، ومائتي جندي من المشاة،
 وخمسة وعشرين فارسا خاصا، وثلاثمائة جمل، وأربعمائة
جواد، وخمس وعشرين عربة، وزورقين خفيفين، ومدفعين،
تلك كانت عدة المسافر عبر سيبيريا، لكن ستروجوف لم
يكن ليأخذ معه فارسا ولا مدفعا ولا جملا ولا جوادا، وإنما
عليه أن يسافر بالعربة أو الجواد إذا استطاع، أو على قدميه
إذا وجب السير على القدمين.

ولم تك الألف ميل الأولى تنبئ بصعوبة ما، فقد كان في متناول أي مسافر أن يستقل فيها القطار، فعربة البريد، فالسفينة البخارية فالجياذ المطهمة.

وهكذا، في صباح يوم ١٦ يوليو، خرج ستروجوف في لباس مدنى عادى، يحمل حقيبة سفر على ظهره، متجها إلى المحطة ليستقل أول قطار، ولم يكن يحمل أي سلاح، أو على الأقل كان هذا هو الظاهر، فقد دس تحت حزامه مسدسا وفي جيبه خنجرا، من النوع الذى يستعمله الصيادون في سلخ جلد الدب، دون أن يمزقوا فراءه الثمين.

وكانت محطة موسكو في ذلك الصباح مزدحمة بجمهور المسافرين والمودعين، فأخذ ستروجوف مكانه في القطار الذاهب إلى «نيجنى نوفجورود» حيث كان ينتهى الخط الحديدي في تلك الأيام، وهى مسافة تبلغ ٤٢٦ كيلومترا، يقطعها القطار في نحو عشر ساعات، أما بعد ذلك فكان أمام ستروجوف أن يختار السفر إلى جبال الأورال إما طريق البر، وإما طريق سفن الفولجا البخارية، تبعا للظروف.

وتمدد سروجوف في ركنه بالعربة كأنه يريد قتل الوقت بالنعاس، ولكنه لم يكن وحيدا في العربة فحرص على أن يظل متنبها ويصغى إلى كل حركة وحديث، وقد تبين من مناقشات رفقاءه في السفر - وجلهم من التجار القاصدين إلى سوق «نيجنى نوفجورود» - السنوية أن ثورة عشائر

الكرجيز وغزو التتار شاعت أنباؤهما في كل مكان واستأثرت باهتمام الجميع ، وبرغم أن المسافرين كانوا خليطا من اليهود والأتراك والقوقاز والروس وأهل جورجيا ، فقد كانوا جميعا يتحدثون باللغة الروسية ، ويعربون عن خشيتهم أن تكون الحكومة مقصرة في اتخاذ الإجراءات التحفظية لحماية المصالح التجارية في الولايات القريبة من الحدود ، أما فيما يتصل بالأخطار السياسية التي تهدد البلاد من جراء الغزو فقد حالت أنانيتهم دون أن يلقوا إليها بالا ، ولا سيما أن أحدا منهم لم تكن تداخله ريبة في أن هذا الشاب الذى انضم إليهم في العربة قد يكون ضابطا متنكرا ! ، ومن ثم استطاع أن يرهف سمعه للحديث الدائر وهو آمن ، فسمع شخصا تدل قبعته المصنوعة من فراء إستراخان على أنه إيراني ، يقول :

— يبدو أن أسعار الشاي آخذة في الارتفاع

فأجابه يهودي مسن قائلا : « لا خوف على الشاي من هبوط ثمنه ، فمن الممكن تصديره من ناحية الغرب ، وإنما الخوف على سجاد بخارى الذى يتعرض لأخطار الطريق من ناحية الشرق »

فسأله صاحبه : « إذن فأنت تنتظر رسالة من بخارى ؟ »

فقال : « بل رسالة من سمرقند ، ومن يدري ماذا يصيبها في البلاد التي تجتاحها جيوش الخان ! » .

ثم عاد الأول يقول: «إذا لم يصل السجاد، فأغلب الظن أن الخونة أيضا لن يصلوا!». .

فقال الثاني: «والأرباح؟، أواه يا إله إسرائيل، ألا تحسب لها حسابا؟»

وهنا انبرى له مسافر ثالث وقال: «معك حق، إن منتجات آسيا الوسطى سوف تختفي من الأسواق، بما فيها الأصواف والشحم وشيلان الشرق!». .

فأجابه رابع تبدو عليه سيماء الروس، وهو يضحك في سخرية ظاهرة: «حذار من أن تتلف الشيلان بالشحم!». .
فرد عليه محتدا: «أو هذا أمر يضحك؟»

وانضم إليه اليهودي قائلا: «يبدو أنك لست تاجرا!». .

فقال: «نعم إنني لست تاجرا يا سليل (إبراهيم) الوقور، وإنما أنا أشتري فقط ما أحتاج إليه لاستهلاكه الشخصي». .

وهنا التفت اليهودي إلى الإيراني قائلا: «إنه يمزح!». .

فأجابه هذا في صوت أجش: «أو أنه جاسوس!، فلنحذر ولا نتكلم أكثر مما ينبغي، إن البوليس لا يعرف الرحمة في هذه الأيام، والإنسان لا يستطيع أن يعرف شخصية المسافر معه!». .

وفي ركن آخر من العربة كانت جماعة أخرى تتحدث في السياسة والغزو أكثر مما تتحدث في التجارة، فقال واحد

منها: «إن جياد سيبريا سوف تصدر لحساب الحكومة، وسوف تتعذر المواصلات بين مختلف ولايات آسيا الوسطى».

فقال آخر : «أصحح أن قبائل (جركيز) المنطقة الوسطى قد تحالفوا مع الغزاة التتار؟ إنهم يقولون ذلك، ولكن من يستطيع أن يزعم أنه يعرف شيئا، على وجه اليقين في هذا البلد».

فقال الأول : «سمعت بعضهم يتحدثون عن حشد الجيوش عند الحدود، وعن تجمع قوقاز منطقة نهر (الرون) على ضفاف (الفلوجا) لمواجهة الجركيز الثائرين».

فقال الآخر : «إذا كان الجركيز قد اجتاحوا وادي (ارتيش) فإن طريق أركوتسك يصبح غير آمن، ولقد حاولت أمس أن أرسل برقية إلى (كياسنويارسك) فتعذر وصولها، ولشد ما نخشى أن يعزل الغزاة سيبريا الشرقية قبل مرور وقت قصير».

على هذا المنوال كانت تجرى الأحاديث في تلك العربة من القطار، وفي غيرها من العربات، في حذر بالغ يخشى التعرض بكلمة لنوايا حكومة موسكو أو الخوض فيها، وكان يجلس في عربة أمامية مسافر - يبدو أنه أجنبي - يكثر من توجيه الأسئلة إلى الركاب عن كل بقعة يمر بها القطار، وتجارتها، وصناعاتها، وعدد سكانها، ونسبة الوفیات من الجنسين، إلخ، وكان يقيد كل ذلك في دفتر مزدحم بالبيانات، كان ذلك الشخص السيد «جوليفيه» المراسل الصحفي الفرنسي الذي مر بنا ذكره، وكان يرمي من وراء

الإكثار من أسئلته إلى دس السؤال الذى يهمله معرفة جوابه بينها، كي يمر غير ملحوظ ! ، ولكن كان من الطبيعي أن يرتاب الركاب في أن يكون جاسوسا فيتحفظون في إجاباتهم عليه، ويتجنبون كل ما يمت بسبب إلى أحداث الساعة، وفي الوقت نفسه كان زميله الصحفي الإنجليزي جالسا في عربة أخرى من القطار نفسه، يسعى إلى الهدف ذاته، ولكن بطريقته الخاصة، بالاستماع أكثر من الكلام والسؤال، وبهذه الطريقة لم يثر حوله أي ارتياب في شخصه ونواياه، وخرج من تجسسه الصامت بهذه النتيجة التي خطها في مفكرته الخاصة: «المسافرون قلقون جدا على تجارتهم، ولا حديث لهم إلا عن الحرب، في حرية وجرأة غير عاديتين». ولما كان جالسا في الناحية اليسرى من القطار، المطة على الجبال، فقد أضاف بغير أن يكلف نفسه مؤونة التطلع إلى السهول الفسيحة التي إلى اليمين: «المناطق بين موسكو وفلاديمير جبليّة» .

وكانت الحكومة الروسية في أثناء ذلك قد أخذت إجراءات صارمة بإزاء تطور الأحداث الخطيرة ، لم تكن الفتنة قد جاوزت حدود سيبيريا ولكن الخوف من النتائج السيئة كان يعم مناطق نهر الفولجا القريبة من بلاد الجركيز، وكان البوليس ما زال يجد في أثر الخائن الفار «إيفان أوجارييف» الذى لجأ إلى استعداد الأجنب كي ينتقم لنفسه ، لكن أحدا لم يعرف هل هو مقيم مع «فيوفار خان» ، أم سافر

ليذكي نار الثورة في إقليم «نيجنى نوفجورود»، الذى يضم في موسم السوق السنوية خليطا من الفرس والأرمن، وأهل إقليم «كالوخ» الذين اشتهر بعضهم بإثارة الفتن والقتل داخل البلاد! .

إن هذه الامبراطورية الشاسعة التي تبلغ مساحتها ١٢ مليون كيلو متر مربع لا يمكن أن يكون فيها ذلك التجانس الذى تمتاز به الدول الأوروبية الغربية، وبين الشعوب المتباينة التي تؤلف شعبها لابد من جود بعض النشاز، ولا سيما إذا عرفنا أن تلك الشعوب تتكلم ثلاثين لغة مختلفة، ولئن كان الجنس السلافي هو الغالب بينها فإنها تضم غيره فئات من البولنديين واللتوانيين والكورلنديين والفنلنديين والأستونيين والألمان واليونان والتتار والقوقاز والمغول، وعشرات من الأجناس الأخرى ذات الأسماء الغريبة على الأذن الروسية، ومن ثم كانت وحدة هذه الامبراطورية المترامية معجزة ساهم في إتمامها عامل الزمن وحكمة الحكومات المتعاقبة.

وهكذا كان الظن الغالب أن «إيفان أوجارييف» المختفي قد أفلح في الانضمام إلى جيوش التتار، وبرغم ذلك كان المفتشون يقتحمون القطار في كل محطة كي يفحصوا أوراق المسافرين ووجوههم بعناية، تبعا لتقارير رجال البوليس التي رجحت أنه لم يغادر بعد روسيا الأوروبية، وكان المفتشون ينزلون كل مسافر يشكون في أمره من القطار، ويحتجزونه حتى يثبت شخصيته في أقرب مركز للبوليس، بينما يتابع القطار

سفره، وهناك في مركز البوليس كان المسافر المعتقل يعاني الأمرين من جراء تعنت الضباط الذين كفل لهم القانون سلطة واسعة وتحكما مطلقا باسم القيصر المتبوع بألقاب رسمية تبلغ العشرين سطرا أو تزيد!.

ووقف القطار في محطة «فلاديمير» لبضع دقائق، فأتىح لمراسل (التلى تلغراف) أن يتطلع بفضول إلى معالم محطة هذه العاصمة الروسية القديمة، بينما كان ركاب جدد يصعدون ليأخذوا مكانهم في عربات القطار المتفرقة.

وكان من بينهم فتاة صعدت إلى العربة التي يجلس فيها رسول القيصر المتنكر "ميشيل ستروجوف" وشاءت المصادفة أن تجلس في المقعد الخالي المواجه له مباشرة، وبعد أن وضعت بالقرب منها حقيبة متاع متواضعة من الجلد الأحمر، استكانت في مجلسها وخفضت بصرها دون أن تنظر حتى إلى رفقاء السفر الذين قضت الظروف بأن تزاملهم طيلة الساعات العديدة الباقية من الرحلة.

لم يستطع ستروجوف أن يقمع ميله إلى تأمل صبية حسناء، وحين وجدها غير مستريحة في مقعدها العكسي لاتجاه القطار عرض عليها أن تأخذ مقعده، لكنها اعتذرت شاكرة بإيماءة من رأسها، كانت سنها تتراوح بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، ذات وجه جذاب يمثل الجنس السلافي بكل نقائه وطهره، وصرامته بعض الشيء، وكانت

تبرز من تحت خمارها خصلات من الشعر الأشقر الذهبي،
المتناسب مع عينيها العسليتين اللتين تشع منهما نظرة
بالغة العذوبة والرقّة، وكانت ذات أنف مستقيم ووجنتين
شاحبتين غائرتين قليلا، وفم دقيق جميل، بدا كأنه نسي
الابتسام منذ زمن طويل، أما قوامها فكان طويلا رشيقا،
حسبما ظهر من خلال معطف الفراء الذى ترتديه، وكانت
قسماتها توحي بأنها على قدر كبير من النشاط المعنوي،
الأمر الذى لم يخف على عين ميشيل ستروجوف الفاحصة،
فقد استنتج من هيئتها أنها تأملت كثيرا في الماضي، وأن
المستقبل لا يتراءى لها في لون ضاحك، ومع ذلك بدا له
أنها عرفت كيف تكافح وما زالت مصممة على الكفاح في
جلد ومثابرة وعزم هادئ لا يلين، حتى في الظروف التي قد
تلين فيها أو تخور عزائم الرجال.

ذلك كان الأثر الذى خلفته المسافرة الحسنة في نفس
مرافقها الشاب «ستروجوف»، وكان هو بدوره ذا طبيعة
متوثبة، ومن ثم وجد متعة في أن يرقب الفتاة بانتباه
غير ملحوظ، وكانت ثيابها تجمع بين البساطة والنظافة
الفائقتين، وفي قدميها الصغيرتين حذاء من الجلد المتين
يناسب الرحلة الطويلة .

وخيل إلى ستروجوف من ملاحظته للفتاة أنها من أصل
يمت إلى إحدى دويلات البلطيق، ولكن ترى إلى أين تقصد
فتاة في مثل سنّها وحيدة محرومة من رعاية الأب أو الأم أو

الشقيق؟ ومن أين أتت؟ أمن أقاليم روسيا الغربية البعيدة؟ وهل تقصد إلى نيجنى نوفجورود أم إلى حدود الامبراطورية الشرقية؟ وهل سوف ينتظرها قريب أو صديق في المحطة التي ستهبط فيها، أو تراها ستجد نفسها وحيدة في المدينة التي تقصدها كما هي الآن في القطار، حيث لا أحد يعبأ بها، أغلب الظن أن الأمر كذلك، ولا سيما أن فيما يبدو من حركاتها ما يدل على أنها اعتادت السفر وحدها وعدم الاعتماد في الغربة إلا على نفسها.

لبث ستروجوف يرقب الفتاة باهتمام، لكنه لم يفكر في اغتنام الفرصة للدخول معها في حديث، برغم الساعات الطويلة التي سيقضيها معها في القطار قبل أن يصل إلى غايته، وكل ما فعله حين نام التاجر الذى بجانبها في مقعده، فمال رأسه على كتفه ومال جسمه الثقيل على الفتاة، أنه أيقظه في عنف ونبهه إلى فظاظة مسلكه، فتمتم التاجر الفظ بكلمات يشتم منها اللوم على تدخل الشاب فيما لا يعنيه، ثم مال على الجانب الآخر وعاد إلى نعاسه الثقيل، وإذ ذاك نظرت الفتاة إلى ستروجوف نظرة قصيرة ملؤها العرفان الصامت بالجميل.

لكن شيئاً طراً بعد قليل، دل الشاب على حقيقة شخصية جارته، ففي أحد المنحنىات العنيفة ارتج القطار رجة شديدة واندفع خارجاً عن القضيب فوق منحدر من الأتربة، وتعالص صيحات الفرع والضجيج، وتزاحم الركاب

على الأبواب يبغون النزول للنجاة بأنفسهم من الكارثة، وفكر الشاب فوراً في جارتته، فإذا هي جالسة في مكانها لا تريم، ولا تفكر في الفرار، وإن شحب وجهها بعض الشيء! وحين أيقن الفتى أنها باقية حيث هي، بقى حيث هو! وظل كلاهما في مكانه لا يبرحه!

وفي أثناء ذلك زال الخطر، وأصلح العطب، واستأنف القطار سيره بعد ساعة إلى «نيجنى نوفجورود»، فبلغها في منتصف الساعة التاسعة مساءً.

وقبل أن يهبط منه أحد صعد إليه مفتشو البوليس ففحصوا المسافرين، وأبرز الشاب جوازه المسجل باسم «نيقولا كوربانوف» فلم يجد المفتش غباراً عليه، ثم أبرزت الفتاة جوازها فقرأه المفتش بعناية خاصة، وتأملها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها، ثم سألها: «أنت من «ريجا»؟. فقالت: «نعم».

قال: «أذهبة أنت إلى أركوتسك؟، ومن أي طريق؟»، فقالت: «عن طريق بيرم».

فقال المفتش: «حسنًا، ولكن لا تنسى التأشير على جوازك في قسم بوليس نيجنى نوفجورود»

فأومات الفتاة برأسها موافقة، وفي أثناء ذلك كان ميشيل قد استولت على مشاعره عاطفة الإشفاق عليها، وكان يسأل

نفسه : كيف تسافر فتاة يافعة كهذه وحيدة إلى أطراف
سيبريا النائية التي يهددها الغزو؟، وكيف تصل؟، ترى
ماذا يحدث لها.

وانتهى التفتيش، وفتحت الأبواب، ولكن قبل أن يقترب
الشاب من رفيقته هبطت هي أولاً، واختفت في زحمة
الجماهير التي تملأ رصيف المحطة.

أمر من حاكم المدينة

تقع «نيجنى نوفجورود»، أو «نوفجورود السفلى» عند ملتقى نهري «الفولجا» و «أوكا» وهى عاصمة الإقليم الذى يسمى باسمها، وفي موسم السوق السنوية الشهيرة التى تقام فيها، والتي تبقى عادة ثلاثة أسابيع، يزيد عدد سكانها من خمسة وثلاثين ألفا إلى ثلاثمائة ألف، وتختلط فيها عشرات الأجناس من التجار الأوربيين والآسيويين الذين تؤاخي بينهم المهنة الواحدة.

وبرغم وصول القطار في ساعة متأخرة إلى المدينة، وجد «ستروجوف» رصيف المحطة يغص بالكتل البشرية من أهل المدينة، بقسميها اللذين يفصل بينهما مجرى الفولجا، واللذين بني الأعلى منهما فوق صخرة كبيرة تشرف عليها قلعة من تلك القلاع التي يسمونها في روسيا «كريمل».

وبادر الشاب بالتوجه إلى مركز الشركة التي تسير السفن البخارية بين المدينة وبين «بيرم»، فعلم أن السفينة «قوقاز» لن تبحر قبل ظهر اليوم التالي، أي بعد سبع عشرة ساعة، وهى فترة طويلة بالنسبة لشخص يتعجل الوصول إلى غايته،

لكنه لم يجد بدا من الاستسلام لحكم الظروف، ولاسيما أن أي طريق آخر للمواصلات لن يكفل له الوصول قبل ذلك.

وجعل همه البحث عن فندق أو حانة ليتناول العشاء والمبيت، وكان هذا عسيرا في وقت خمة المدينة بالوافدين عليها، لكنه وصل أخيرا إلى فندق «مدينة القسطنطينية»، حيث أعطاه صاحب الفندق غرفة مريحة لا بأس بها، قليلة الأثاث مليئة بصور العذراء والقديسين، فتناول عشاءه هناك، ثم قام بجولة في شوارع المدينة.

لماذا لم يأو إلى فراشه كي يستريح، مثلما ألف في رحلاته السابقة الطويلة بالقطار؟، هل فكر في المسافرة الحسنة التي زاملته أثناء الرحلة؟ هل خشى أن يصيبها مكروه في هذه المدينة الصاخبة؟ هل داعبه الأمل في أن يصادفها مرة أخرى ويتولى حمايتها؟ أما اللقاء فكان عسير التصور، وأما الحماية، فأى حق له فيها؟ صحيح أنها وحيدة وسط هذا الخليط العجيب من السياح، ولكن هل يقاس هذا بالمخاطر المقبلة الرهيبة التي تلقى الفتاة بنفسها فيها بإقدامها على التوغل في الشرق، نحو سيبيريا وأركوتسك؟

وقال الفتى لنفسه: «إن ما أعتزم عمله من أجل روسيا والقيصر، تعزمه هي من أجل من؟ ولماذا؟ إنها تملك التصريح بأن تعبر الحدود إلى حيث الفتن والقلق والعصابات التتريّة التي تعيث في البلاد فسادا...، ولكن، لعلها فكرت

في القيام بهذه الرحلة قبل أن يبدأ الغزو، بل لعلها لا تعلم من أمر الغزو شيئاً؟، ولكن كلا ، لقد تحدث الركاب على مسمع منها عن الاضطرابات التي تجتاح سيبريا، فلم تبد عليها الدهشة أو تطلب أي إيضاح، إذن فقد كانت تعلم، وقد أقدمت على الرحلة وهى تعلم، يا للمسكينة! لابد أن الدافع لها على الذهاب قويّ ملح، ولكن مهما تكن شجاعته فإن قواها سوف تخونها في الطريق إزاء متاعب الرحلة، فضلا عن مخاطرها وعقباتها، وهى لن تستطيع الوصول إلى أركوتسك؟».

وكان يسير في شوارع المدينة على غير هدى، اعتمادا على أن معرفته السابقة بها ستمكنه من الرجوع، وبعد أن مشى نحو ساعة جلس على أحد المقاعد الخشبية المتلاصقة على شكل دائرة في وسط ميدان كبير، ولم تكن قد انقضت عليه في جلسته تلك خمس دقائق حين أحس يدا توضع على كتفه بقوة، ورجلا طويل القامة يسأله بصوت جاف: «ماذا تفعل هنا؟».

فأجاب بقوله: «إنني أستريح قليلا»

فعاد الرجل يسأله: «وهل تعتزم قضاء الليلة على هذا المقعد؟»، فأجاب دون أن يفارقه الهدوء: «نعم، إذا راق لي ذلك». وهنا قال له محدثه: «اقترب كي أراك جيدا!»، فتمتم قائلا: «لا داعي لرؤيتك إياي!»

وبرغم الظلام الكثيف، استطاع الفتى أن يتبين في سائله هيئة شيخ من الغجر الذين يطوفون بعرباتهم في أزمان الأسواق، وتأييد ظنه حين لمح عن بعد شيخ العربية التي يتخذها الغجر مأوى لهم، وفي اللحظة التي اقترب فيها البوهيمي خطوتين أو ثلاثا من ستروجوف ليستجوبه، أقبل نحوهما شبح امرأة ابتدرت الشيخ قائلة في صوت جاف ولغة هي خليط من السيبيرية والمغولية:

— أjasوس آخر؟، دعه وتعال لتناول عشاءك، إن الفطائر تنتظرك.

لم يملك الشاب نفسه من الابتسام، للصفة التي نعتته المرأة بها، وهو الذى كان بدوره يتجنب الجواسيس، بينما أجابها البوهيمى على الفور: «معك حق يا سنجار، فنحن راحلون غدا».

فتساءلت المرأة في شيء من الدهشة: «غدا؟»

— نعم يا سنجار، غدا، و «الأب» نفسه هو الذى يرسلنا إلى حيث نريد!

وعاد الرجل والمرأة إلى عربتهما، وأغلقا عليهما بابها في عناية، تاركين ستروجوف يهمس لنفسه: «إذا كان هؤلاء الغجر يحسبون أنهم يتكلمون لغة لا أفهمها، فإنهم على خطأ مبين، وليبحثوا لأنفسهم عن لغة أخرى»، ذلك أنه كان قد ألف في صباه تلك اللغة الشائعة في سهول سيبيريا،

من بلاد التتار إلى البحر المتجمد، أما المعنى الذى قصده البوهيميان فلم يعبأ بالتفكير في أمره كثيرا، وكانت الساعة متأخرة، فرأى أن يعود أدراجه إلى الفندق ليأخذ قسطا من الراحة، وبعد ساعة كان يغط في نومه.

وفي صباح اليوم التالي - ١٧ يوليو - أفاق من نومه فإذا النهار يغمر الكون.

ما زالت أمامه خمس ساعات يقضيها في المدينة، وبدا له ذلك دهرا، فلم يكد يفرغ من تناول إفطاره وحزم حقيبته والتأشير على جواز سفره في قسم البوليس، حتى قرر أن يقوم بجولة أخرى في المدينة يقتل بها الساعات الباقية على رحيل السفينة، فعبر الفولجا فوق القنطرة التي يحرسها فرسان من القوقاز، ووجد نفسه في البقعة التي التقى فيها ليلة أمس بالبوهيميين.

وكانت السوق السنوية - التي تفوق شهرتها سوق ليبزج ذاتها - تقام خارج المدينة في سهل فسيح يقع قرب الفولجا، ويشرف عليه القصر المؤقت للحاكم العام، وهو يقيم به طيلة موسم السوق كي يسهر على الأمن والنظام ويحمى مصالح ضيوف بلده، وكانت تغطى السهل مبان خشبية متراصة، تتخللها الشوارع المعدة لمرور المتفرجين، وكان المعرض مقسما إلى أحياء عدة، أختص كل منها بنوع من أنواع المعروضات التجارية، فهذا حي الحديد، وذاك

حي الفراء، وهناك حي الأصواف، وحي الأخشاب، وحي الأقمشة، وحي الأسماك المجففة، إلخ، وكانت هندسة بعض المباني تمثل البضائع المعروضة فيها، وفي ممرات المعرض اختلطت في ذلك الصباح أفواج من الزائرين: الروس، وأهالي سيبيريا، والألمان، والقوقاز، والأتراك، والفرس، واليونان، والهنود، وأهل جورجيا، والصينيين، خليط من الأوروبيين والآسيويين يتحدثون ويتناقشون ويثرثرون بشتى اللهجات واللغات، وكان المعرض يحوى كل ما يمكن أن يباع ويشتري من البضائع والمنقولات والحيوانات والسفن والأسلحة والحليّ والسجاد والأطعمة، وكنت ترى جنبا إلى جنب واردات سويسرا وفرنسا والأورال والهند والصين وإيران وأمريكا قد حشدت في هذا الركن من أركان الأرض، بل إن العملة المتداولة في المعرض لم تكن تقل بحال عن مائة مليون روبية، أي ما يقرب من أربعمئة مليون فرنك، بسعر تلك الأيام، وإلى جانب المعروضات أقيمت الملاهي والمقاهي التي يرى المتفرج ويسمع فيها أمتع الألعاب البهلوانية والموسيقى، والأغاني البوهيمية، والرقصات المبتكرة الشائقة، والروايات الكوميديّة، ومآسى شكسبير، وسيرك ترويض الوحوش، وفي أحد الميادين شبه سفينة من سفن الفولجا يترنم المنشدون فيها بأعذب أغاني « بحارة الفولجا » المشهورة.

وكان من أجمل العادات المألوفة في المعرض أن يتبرع بعض ذوى النفوس الكريمة بأثمان الطيور والعصافير الثمينة،

ويحتفظوا بتحريرها من أقفاصها أو سجونها الذهبية ، فتملاً الفضاء سحابة من ذوات الأجنحة التي أطلقت في الفضاء الرحيب - إلى غير رجعة.

ولعل من مميزات معرض ذلك العام أن إنجلترا وفرنسا قد مثلتا فيه باثنين من أهم أركان حضارتهما العصرية ، هما مستر هارى بلونت ومسيو السيد جوليفيه - رسولا صاحبة الجلالة الصحافة؟ - وكان كلاهما قد أثر الامام بنواحي المعرض المختلفة في جولة قصيرة لإتحاف قرائه بالأنباء الطريفة ، قبل أن يستأنفا رحلتهم إلى ساحة القتال على ظهر السفينة « قوقاز » ، وحين التقيا داخل المعرض ، تبادلوا تحية فاترة من بعيد واستأنف كلاهما سيره.

أما «ستروجوف» فقد أنفق ساعتين وهو يجوب المعرض ، وإحدى يديه في جيب سترته ، ويده الأخرى تمسك غليونه الطويل ، وقد بدا عليه الهدوء وعدم المبالاة ، شأن متفرج لا ناقة له ولا جمل ، وفيما هو يطوف بين الجماهير المتزاحمة ، لاحظ مساحة من القلق والانزعاج تلوح على جميع التجار القادمين من المناطق الشرقية المتاخمة لآسيا ، وترددا ظاهرا في التعاقد مع عملاء آسيا الوسطى التي تجتاحها جيوش الغزاة.

وثمة ظاهرة أخرى كانت ملحوظة في المعرض حتى اليوم السابق ، هي شيوع السترة العسكرية بكثرة بين المتفرجين ، وتغلغل رجال البوليس ومساعدتهم من القوقاز ذوى الحراب

في صفوف الناس لحفظ الأمن والنظام في المدينة التي باتت تضم ثلاثمائة ألف نسمة، أما في ذلك اليوم، فقد لاحظ «رسول القيصر» اختفاء أولئك الجنود من حفظة الأمن.

ولكن في الوقت الذي اختفي فيه من المعرض جنود البوليس، ازدحمت أرجاؤه بضباط الجيش، الذين انبثوا في كل مكان وكل اتجاه، على صورة لم يكن ليبررها إلا تفاقم الأحداث وخطورة الحالة، كما انبث سعاة التلغراف في منافذ المدينة الخارجية، سواء من ناحية فلاديمير أم في اتجاه جبال الأورال، فإن تبادل البرقيات مع موسكو وسانت بطرسبرج كان لا ينقطع لحظة، ولم يكن المسئولون قد نسوا أن مركز «نيجنى نوفجورود» خاصة يتطلب المزيد من الحذر والانتباه، فقد غزاها التتار مرتين من قبل، خلال القرن الرابع عشر، وكان أكثر أولئك المسئولين انشغالا بالمهام العاجلة المتلاحقة التي تتطلبها حماية المدينة رجلاان: الحاكم العام ورئيس الشرطة.

وفيما كان ميشيل ستروجوف يطوف بالمعرض، شاع نبأ مزعج مؤداه أن رئيس الشرطة قد استدعى على عجل إلى قصر الحاكم العام، لأن برقية خطيرة وصلت من موسكو، وفي أعقاب هذا النبأ شاع نبأ آخر، هو أن إجراءات خاصة مشددة سوف تتخذ فورا، وأرهدف ستروجوف سمعه لالتقاط الشائعات التي تدور حول الإجراءات المرتقبة، فقال قائل: «سوف يغلقون المعرض»، وأضاف آخر: «لقد تلقت حامية

نيجنى نوفجورود أمرا بالرحيل»، فقال الأول: «إن التتار يهددون تومسك!».

ثم تعالى الضجيج من الجميع ، وخمد كل صوت وساد السكون، في انتظار النبأ الخطير الذى جاء كبير الشرطة ليعلنه باسم الحكومة، وكان هذا قد أقبل من قصر الحاكم العام تحيط به ثلة من الفرسان القوقاز، فلما وصل إلى وسط الميدان الرئيسي، وقف أمام الجمع الحاشد وفي يده برقية يلوح بها، ثم صاح بصوت عالٍ: «أمر من حاكم (نيجنى نوفجورود)». «أولا: يمنع كل مواطن روسي أن يخرج من المنطقة لأى سبب من الأسباب!»

«ثانيا: يجب على الأجانب الذين من أصل أسيوي أن يغادروا المنطقة خلال أربع وعشرين ساعة».

كان لذلك الأمر الذى أصدره حاكم المدينة ما يبرره من أجل المصلحة الوطنية، فحظر مغادرة الروسيين قصد به الحيلولة دون لحاق «إيفان أوجارييف» الخائن بشريكه فيوفار خان، إذا كان الأول ما يزال في المنطقة، وأما القرار الثاني فقصد به التخلص جملة من التجار الذين قدموا من آسيا الوسطى، ومن البوهيميين الغجر الذين هم على صلة بالتتار والمغول، ويعمل بعضهم جواسيس للغزاة؟.

على أن هذين القرارين كان لهما وقع الصاعقة على قاطني المدينة جميعا، فالقرار الأول كان صارما لا يسمح بأي

استثناء، وفيه عدوان على حقوق كثير من سكان المناطق المتاخمة لحدود سيبريا، الذين اضطرتهم أعمالهم إلى حضور المعرض، إذ بات متعذرا عليهم الرجوع إلى بلادهم، أما القرار الثاني فكان يعنى أن يحزم الأجانب الذين من أصل أسيوي أمتعتهم ليعودوا تَوْاً من حيث أتوا، وفي مقدمتهم الغجر والمشعوذون الذين صار لزاما عليهم أن يعبروا أكثر من ألف فرسخ كي يصلوا إلى أقرب منطقة خارج الحدود!.

وسرت بين الموجودين هممة احتجاج وصيحة يأس، لكن وجود فرسان القوقاز خنق الهممة في مهدها، وسرعان ما بدأت حركة هدم المعرض من أساسه، فطويت اللافتات التي أمام الحوانيت الخشبية، والمسارح صارت أنقاضا، وتوقف الرقص وماتت الأغاني في الحناجر، وشلت الاستعراضات، وأطفئت النيران، ونزعت حبال البهلوانات، وانهدم الجنود بالسوط يستعجلون المتباطئين، ولم يتورعوا عن هدم الخيام قبل أن يتمكن الغجر المساكين من مغادرتها، وبسبب هذه الإجراءات الصارمة المشددة أصبح في حكم المقرر ألا يهبط المساء حتى تكون سوق المدينة الهائلة قد استحالت صحراء جرداء في مثل صمت القبور.

وفي اللحظة التي فرغ فيها رئيس الشرطة من تلاوة القرارات، خطر في ذهن ميشيل ستروجوف خاطر مفاجئ، ما أعجب المصادفة بين هذا المرسوم الذى يطرد ذوى الأصل الأسيوى، وبين الحديث الذى دار في الليلة السابقة بين

النوري الشيخ ورفيقته ، ألم يقل لها الشيخ : إن الأب نفسه هو الذى يرسلنا إلى حيث نريد أن نذهب؟! ، والأب لا يمكن أن يكون في عرفهم غير « القيصر » فكيف تكهن البوهيميان بالإجراءات التي اتخذت ضدهم ، قبل حدوثها؟ وأين ترى « يريدون » الذهاب؟ ، يبدو كأن قرار القيصر قد جاء في مصلحتهم أكثر مما جاء ضدهم ! لكن خاطرا آخر لم يلبث أن طرد جميع الخواطر الأخرى من ذهن ميشيل ستروجوف ، فأنساه الغجر ، ومشروعاتهم المريبة ، والمصادفة الغريبة ، لقد تذكر فجأة الفتاة التي رافقته في القطار ، فصاح محدثا نفسه : «يا للطفلة المسكينة ، إنها لن تستطيع أن تعبر الحدود! ».

وشغل هذا الخاطر ذهن الفتى بعنف وحدة ، لقد كان يعتقد أنه - بغير أن يهمل مهمته الخطيرة المنوطة به - يستطيع أن يكون للفتاة الشجاعة عونا وسندا عند الحاجة ، ولا سيما أنه أكثر منها خبرة بطرق البلاد ومسالكتها ، وأقدر منها على مواجهة مخاطر المرور وسط قبائل الغزاة ، ولكن إذا كان قد أشفق عليها من الرحلة في الظروف العادية ، فكيف يمكن تصور قيامها بها في الظروف التي تجعلها رحلة شديدة الخطر ، ميؤوساً منها ، وعاد يحدث نفسه : «ما دامت الفتاة ستسلك طريق (بيرم) فيكاد يكون مستحيلا ألا نلتقي ، وفي وسعي أن أسهر على رعايتها بغير أن تشعر ، ولما كان يبدو عليها أنها تتعجل الوصول إلى

أركوتسك مثلى ، فهي إذن لن تعوقني أو تؤخرني في الطريق».

وتزاحمت عليه الخواطر، وتشعبت، حتى قادتة إلى التفكير في الأمر على نحو مخالف: «إنني أتحدث عن معونتي للفتاة، ولكن من قال إنها لن تكون بدورها عوناً لي، إن وجودها معي سيزيل كل شك من جانب الأعداء وجواسيسهم في حقيقة مهمتى، فقد يكون الشخص الذى يعبر البراري وحيداً جاسوساً للقيصر، أما الذى يسافر وفي رفقته حساناً مثلها فلا يمكن أن يكون إلا» نيقولا كوربانوف (التاجر!) ، وإذن يجب أن تسافر معي، وأن أعثر عليها بأي ثمن، وليس من المحتمل أن تكون قد استطاعت مغادرة المدينة بطريقة أخرى منذ ليلة أمس ، فلأبحث عنها!».

وعاد الشاب من فوره إلى أرض المعرض، حيث كان ضجيج تنفيذ الأمر الجديد قد بلغ أشده، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة من الصباح، والسفينة لن تبحر قبل الظهر، وإذن أمامه ساعتان يستطيع أن يخصصهما للبحث عن الفتاة.

وعبر القولجا عائداً إلى قلب المدينة، وراح يذرع شوارع قسمها الأعلى من الأسفل شارعاً شارعاً، ودخل الكنائس التي صادفها في طريقه، باعتبارها الملجأ الطبيعى للمعذبين والمتألمين، لكنه لم يعثر للفتاة على أثر.

ومع ذلك لم ييأس، وظل يسير بغير توقف، تقوده عاطفة مسيطرة لا تدع له مجالاً للتفكير، ولكن دون جدوى!.

وحلت الساعة الحادية عشرة، وخطر له أن يتوجه إلى مكتب مدير البوليس، ليستوثق من أن الأمر الجديد لا ينطبق عليه، ما دام قد حصل على جواز بعد تطور الأحداث الأخيرة، فعاد إلى الضفة الأخرى للفلوجا، ويمم شطر إدارة الشرطة.

هناك وجد جموعاً غفيرة من الأجانب الآسيويين، الذين أُلزموا مغادرة المدينة قبل أربع وعشرين ساعة، وإلا تعرضوا لعقوبات شديدة، واستطاع الشاب أن يعبر الفناء، بفضل قوة بنيته ومتانة عضلاته، لكن النطاقات الباقية التي يجب أن يشق طريقه خلالها كانت كافية لتثبيط همته، ومن ثم عمد إلى أقصر طريق، فدس في يد أحد الجنود بضع روبيات، وسرعان ما مكنه هذا من المرور بسهولة إلى حجرة الانتظار، ثم تركه هناك ومضى يدعو إليه أحد الموظفين المختصين.

وفيما هو يدير بصره حوله، قفز قلبه من فرط دهشته، فقد بصر بفتاته المنشودة جالسة في أحد أركان المكان في أشد حالات الإعياء واليأس، وأدرك ما حدث لها، فقد جاءت للتأشير على جواز مرورها كما أمروها في القطار ففوجئت بالقرار الجديد الذي يمنعها من مواصلة السفر!

واقترب ستروجوف من الفتاة متهلل الوجه، فلم تكد تلمحه وتتذكر فيه رفيقها في القطار حتى نهضت للقائه بفرحة الغريق الذي وجد منقذه، وفي نيتها أن تلتمس عوناً في محنتها، وفي هذه اللحظة عاد الجندي فلمس كتف

الشاب هامسا: «مدير الشرطة ينتظرك» فتبعه الشاب ملهوبا دون أن يطمئن الفتاة بكلمة أو إشارة، وتهالكت هذه على مقعدها يائسة!.

ولكن لم تنقض ثلاث دقائق حتى عاد الشاب يحمل في يده جواز المرور الذى يفتح أمامه سهول سيبريا، واقترب من الفتاة فهمس لها: «أختاه..» وفهمت أنه يقصدها، فنهضت دون تردد، بينما أردف هو: «لقد صرحوا لنا يا أختي بمواصلة السفر إلى أركوتسك، هيا بنا!». .

فأجابت وهى تضع يدها في يده: «هأنذا يا أخي»

وغادر الاثنان إدارة الشرطة.

على مياه الفولجا

دق جرس السفينة «قوقاز» قبيل الظهر تنبيهاً للركاب بدنو موعد الرحيل، وكان رجال الشرطة يتولون فحص أوراق المسافرين بعناية فائقة تطبيقاً للأوامر الجديدة، وفي الموعد المحدد دق الجرس للمرة الأخيرة، وفكت الحبال عن المرسى، وتدفقت المياه بقوة من أجنحة دولاب السفينة، ومرقت «قوقاز» بسرعة تشق طريقها بين شطري المدينة الأيمن والأيسر.

وكان ستروجوف ورفيقتة قد أخذاً مكانهما على ظهر السفينة، وجعلا يودعان ببصرهما المدينة الهاربة وهي تبتعد عنهما لا تلوى على شيء، ولم يكن الشاب قد تحدث إلى رفيقته أو استجوبها، منتظرا أن تبدأ هي بالكلام، إن راق لها ذلك، لكنها اكتفت بأن أخذت ترمقه بنظرات الشكر الصامتة على إنقاذها من البقاء سجيناً المدينة التي خلفاها!

وكانت سفن الخط الذى يصل بين «نيجنى نوفجورود» و «بيرم» تقطع الثلاثمائة والخمسين ميلاً التي بين المدينة الأولى و «قازان» في سرعة فائقة، وبرغم هذا كانت الرحلة

الكاملة إلى بيرم تستغرق زهاء ستين ساعة، منها ساعة انتظار في قازان، وكانت السفينة مؤثثة برياش مريح، ومقسمة إلى ثلاث درجات، وفقا لمقدرة المسافرين المالية، وقد حجز ستروجوف ورفيقته في الدرجة الأولى، كابيتنين» منفصلتين، حتى تستطيع الفتاة أن تأوي إلى غرفتها الخاصة متى شاءت.

وكان بين ركاب الدرجة الأولى خليط من الأرمن واليهود والصينيين، والتتار، كل في زيه الوطني الخاص، أما في مقدم السفينة حيث الدرجة الثالثة فقد ازدحم عدد كبير من الروس، والأجانب، و «الموجيك»، وفلاحى الفولجا، وبعض النساء اللواتي يرتدين ثياب القطيفة الزاهية والمناديل الحمراء الملونة على رؤوسهن.

وبعد نحو ساعتين من تحرك السفينة، التفتت الفتاة إلى ستروجوف وقالت له: «أذهب أنت إلى أركوتسك يا أخى؟» فقال: «نعم يا أختاه، فنحن نقصد اتجاهها واحدا، وحيثما ذهبنا أنا سوف تذهبين معي»

فقالت: «غدا ستعلم يا أخى لماذا تركت أنا ضفاف البلطيق كي أتوغل إلى جبال الأورال» قال: «لست أسألك إيضاها يا أختاه»

فقالت بابتسامة حزينة: «ولكنك ستعرف كل شيء»، فالأخت يجب ألا تخفي على أخيها شيئا، لكنى لا

أستطيع الإفشاء لك اليوم بذلك، فإنني جد متعبة، لقد أنهكني اليأس».

فقال : «أتريدان أن تستريحي في مقصورتك؟» ، فقالت :
«نعم، نعم ، وغدا..»

وكان قد نهض استعدادا لتوصيلها إلى مقصورتها وهو يقول : «إذن تعالي يا...» ، ولم يستطع إتمام عبارته لأنه لم يكن قد عرف اسمها بعد.

وأدركت هي ذلك، فقالت له وهي تمد يدها إليه مصافحة : «نادية!»

فقال : «تعالى يا نادية، وارفعي الكلفة مع شقيقك، نيقولا كوربانوف»

وقادها من يدها إلى المقصورة إلى حجزها لها في المؤخرة، ثم عاد هو إلى ظهر السفينة، وبه لهفة إلى الوقوف على آخر الأنباء التي قد تعدل خط سيره، واندس بين جماعات الركاب يتسمع بغير أن يظهر اهتماما بالأحاديث أو يشترك فيها، ولم يكن من الممكن طبعاً أن يتحدث الأجانب الذين تحملهم السفينة في غير موضوع الساعة وأحداث اليوم الراهن، ونتائج الأوامر الجديدة التي أصدرها الحاكم العام قبيل رحيلهم، لكن التعسين منهم الذين لم يكادوا يتجشمون عناء الرحلة الطويلة عبر آسيا حتى اضطرتهم الظروف إلى العودة أدراجهم، كتموا غيظهم وحنقهم في صدورهم ولم

يجرؤوا على التعبير عنه بصراحة أو التنفيس عنه بصوت عالٍ، خشية أن يكون بين ركاب السفينة جواسيس من رجال الشرطة يحصون عليهم أنفاسهم.

وهكذا لم يفز ستروجوف بشيء ذي بال مما سمعه من الركاب، فقد كان أكثرهم يسكتون أو يغيرون مجرى الحديث لدى اقترابه منهم، لكنه ما لبث قليلا حتى صك سمعه صوت بدا كأن صاحبه لا يعبأ بأن يسمعه أحد، وكان الرجل يتكلم باللغة الروسية، ولكن بلهجة أجنبية، أما المستمع إليه فكان متحفظا بعض الشيء، وكان يجيبه باللغة نفسها، وإن بدا أنها ليست لغته الأصلية هو الآخر، وسمع ستروجوف أولهما يقول: «أليس عجيبا أن أجذك على ظهر هذه السفينة يا صديقي، بعد أن رأيتك في عيد القيصر في موسكو، وبالأمس فقط لقيتك في نيجنى نوفجورود؟!».

فأجابه الآخر بلهجة جافة «هأنذا بلحمي ودمي أمامك، فهل لديك شك في ذلك؟»

فقال الأول: «أقول لك في صراحة: إننى لم أتوقع أن تتبعني فورا، وبمثل هذه السرعة!».

قال: «لكننى لست أتبعك يا سيدى، بل أنا أسبقك!»

قال: «تسبقنى؟! فلنفرض أننا جنديان في الميدان نسير معا بخطوات متساوية، لا يسبق الواحد منا الآخر!». فأجاب بلهجة الجفاء نفسها: «بل سوف أسبقك!».

قال: «سنرى هذا حين نصير في ميدان الحرب، أما الآن فلنكن رفيقي رحلة واحدة، ولنترك إلى ما بعد فرصة النفس و..». فقطع هذا كلامه قائلا: «بل العداء!».

فقال الأول «العداء؟! فليكن أنك دقيق في تعبيراتك أيها الزميل، وسأطلبك بتحديد موقفنا المتبادل!».

قال: «إذن فلنحدده!»

قال: «اذهب أنت إلى بيرم، مثلي؟».

قال: «نعم»

فقال: «ولعلك بعد الوصول إلى بيرم تقصد إلى «إيكاترينبرج» بوصفها أقصر طريق وآمنه إلى جبال الأورال؟».

قال: «ربما».

فقال: «وبعد أن تعبر الحدود نصح في سيبريا، أي في ميدان الغزو».

قال: «بالضبط».

فقال: «وعندئذ يحق لكل منا أن يسلك طريقه الخاص، ويودع صاحبه، أما الآن - وأماننا ثمانية أيام كاملة حتى نفترق، وفيها لن تمطرنا السماء أخبارا، فلنكن صديقين حتى يحين الوقت الذي نصح فيه غريمين!».

قال: «تقصد أننا نصير عدوين؟!».

فقال: «كما تشاء!». ، وحتى ذلك الوقت أعدك بأن أحتفظ لنفسى بكل ما عسى أن أراه» .

قال: «وسأحتفظ أنا بكل ما عسى أن أسمع، فهل اتفقنا؟».

قال: «نعم، اتفقنا!».

ثم تصافحا، بينما استطرد الأول فقال: «لهذه المناسبة، لقد استطعت أن أرسل في الساعة العاشرة والدقيقة السابعة عشرة من هذا الصباح برقية إلى ابنة عمى بنص الأمرين الجديدين».

فقال الثاني: «وأنا أرسلتهما إلى الديلي تلغراف في الساعة العاشرة والدقيقة الثالثة عشرة!».

قال: «أحسننت يا مسيو بلونت». فقال هذا: «شكرا يا مسيو جوليفيه!».

وعلى أثر ذلك حيّا الصحفي الفرنسي زميله التحية المألوفة، فرد هذا بتحية يتمثل فيها الجمود الإنجليزي، وكان «صائدا الأنباء» هذان قد استطاعا - بغير اتفاق سابق - ركوب السفينة المبحرة إلى بيرم، بوصفهما أجنبيين غير أسيويين ، ومن ثم لا ينطبق عليهما أمر حظ السفر، وفي الطريق عقدا الهدنة السالفة الذكر، التي اتفقا بمقتضاها على أن يكونا صديقين، مدى الطريق! وهى الهدنة التي

اقترحها جوليفيه في حماسة، وقبلها بلونت في برود، وعلى مائدة الغداء جلس الاثنان في ذلك اليوم متجاورين، يجرعان خمر «الكليكو» التي تباع الزجاجة منها بستة روبلات!، ولم تظهر الحسنة على المائدة، فقد أشفق ستروجوف عليها فلم يوقظها، وجاء المساء بغير أن تظهر على سطح السفينة، حيث جلس الركاب أو تمددوا على الأرائك والمقاعد المريحة يستنشقون نسمات المساء المنعشة، بعد قيظ النهار المرهق، وفي نحو الساعة الحادية عشرة بزغ القمر، فبدل الظلام ضياءً ساجياً، وكان أكثر الركاب نائمين، وقد ساد السكون، ولم يكن يعكره غير صوت قلابا السفينة تضرب الماء في فترات منتظمة، لكن قلقاً غامضاً استولى على قلب ستروجوف، فراح يذرع السطح في مؤخرة السفينة، على غير هدى، ذاهباً آيها، كي يقاوم سلطان النوم، وفي إحدى الممرات جاوز عنبر الآلات إلى المكان المخصص لركاب الدرجتين الثانية والثالثة، حيث كان بعض الركاب من قبائل الموجيك ينامون على الطرود وبالات البضائع وبعضهم على ظهر السفينة، فكان المار يضطر إلى التزام الحذر كي لا يطأ النائمين أثناء سيره، وحين وصل إلى سلم مقدم الباخرة سمع جماعة يتحدثون قريباً منه، ولم يستطيع تمييز أشكالهم بسبب الشيلان والأغطية التي كانوا متلفعين بها.

وفيما هو يهم باستئناف المسير استوقفته بضع عبارات كان القوم يتبادلونها بتلك اللغة السيبرية التي سمع

البوهيمي ورفيقته يتكلمان بها ليلة طوافه بأنحاء «نيجنى نوفجورود»، بل إنه استطاع أن يميز بين أصوات الجماعة صوتي ذينك الشخصين بالذات ، ولما كان ظل السلم يحجبه عن الأنظار، فقد وقف في مكانه يصيح السمع لحديثهما على سبيل الفضول، فقالت المرأة:

- يقولون إن رسولا قد سافر من موسكو ووجهته أركوتسك...!

فأجابها صاحبها الشيخ قائلا: «هم يقولون هذا يا سنجار، لكن هذا الرسول سوف يصل متأخرا، أو لا يصل على الإطلاق».

فتفصد جسم «ستروجوف» عرقا لدى سماعه هذه العبارة، التي كانت تعنيه مباشرة، وبعد لحظات تسلل من حيث أتى دون أن يلحظه أحد، ثم جلس في مؤخرة السفينة وقد اعتمد رأسه بين يديه، يفكر ويتساءل: «من هو الذى يعرف نبأ سفري، ومن ذاك الذى يهمله أن يعرفه؟».

في الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من صبيحة اليوم التالي - ١٨ يوليو - وصلت السفينة «قوقاز» إلى مرفأ «قازان» التي تفصله عن البلدة نفسها سبعة أميال، وتقع «قازان» عند ملتقى الفولجا ونهر قازانقا، وبرغم بعد المرفأ عن البلدة خفت جمهرة كبيرة من أهلها لاستقبال ركاب السفينة على الرصيف واستطلاع الأخبار، وكان حاكم الإقليم

قد أصدر منشورا مماثلا للمنشور الذي سبق أن أصدره زميله في نيجنى نوفجورود، وشوهد بين المستقبلين نفر من التتار مرتدين ثيابهم التقليدية الشبيهة «بالقفطان»، وأعطية رؤوسهن بأكاليل مرفوعة إلى أعلى على هيئة أهلة، وكان بين الجماهير المتزاحمة على الرصيف بعض ضباط البوليس، وبعض القوقاز المسلحين بالحرب، وكانت مهمتهم فحص أوراق القادمين والمسافرين خلال الساعة التي تمكثها السفينة في المرفأ النهري.

أما ميشيل ستروجوف فلم يفكر في مغادرة السفينة للتجول قليلا على الرصيف الحافل بالناس، ولا سيما أنه أشفق أن يترك مرافقته الحسنة وحيدة على ظهر السفينة، وكان الصحفيان قد استيقظا مع الفجر وهبطا ليقوما بجولة استطلاعية قصيرة وسرعان ما اندسا بين الجماهير.

كانت الأنباء قد استطارت في جميع أنحاء الجهة الشرقية لروسيا معلنة أن الفتنة والغزو يتقدمان بخطوات كبيرة، وأن سبل الاتصال بين سيبيريا والامبراطورية صارت متعذرة إلى أقصى حد، وقد سمع ستروجوف هذه الأنباء وهو على ظهر السفينة، فأحدثت عنده قلقا كبيرا وزادته لهفة على الوصول إلى جبال الأورال كي يحكم بنفسه على مدى خطورة الأحداث ويتأهب لمواجهة جميع الاحتمالات، وفيما هو يفكر في الاستفهام عن حقيقة الحال من أحد سكان قازان، حدث ما لفت نظره إلى أمر مهم آخر، فقد

أبصر بين الركاب الذين يهبطون في المرفأ جماعة النور البوهيميين ، وكان بينهم الشيخ ورفيقته ، يتبعهم رهط من الراقصات والمغنيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والعشرين ، وحسب أول الأمر أنهم يهبطون إلى غير رجعة ، ولكنه ما كاد يقترب من السلم الذى يهبطون عليه حتى لمح الشيخ البوهيمى يمرق في الزحام وقد أخفى نصف وجهه المغضن بقبعته التي لوحتها الشمس في بلاد الدنيا بأسرها ، كأنما يتحاشى النظرات ، وهى نزعة مستغربة من رجل من جنسه الشغوف بالإعلان عن نفسه ، وكان ظهره محدودبا وثوبه ضيقا خانقا برغم حرارة الطقس ، وإلى جواره سارت مرافقته التي يدعوها «سنجار» وهى امرأة في نحو الثلاثين ، سمراء البشرة ، ضخمة الجسم ، رائعة العينين ، ذهبية الشعر ، وقد صففته في وضع خلاب ، أما الراقصات فكان أكثرهن جميلات ، وكانت إحادهن تغنى أنشودة عذبة اللحن مطربة النغم ، لكن ستروجوف لم يصغ إلى غنائها ، فقد خيل إليه أن النورية الحسناء «سنجار» ترمقه بنظرات عميقة ، كأنما تريد أن تحفر ملامحه في ذاكرتها بحيث لا تمحى وكانت هي آخر من غادر السفينة من الرهط.

وسأل الشاب نفسه : «ترى هل بينت في الشخص الذى وصفته ذات ليلة في نيجنى نوفجورود بأنه «جاسوس»؟» ، إن لهؤلاء العجريون القطط ، التي ترى جيدا في الظلام ، وأوشك أن يطاوع ميله إلى تتبع رهط النور ، لكنه قمع ميله

في اللحظة الأخيرة، قائلاً لنفسه: «كلا، لا داعى لاتخاذ خطوة تنطوي على التهور، فلو استوقفت هذا الشيخ وعصابته لانكشف أمرى، أما لو اصطنعت الحذر فسوف أكون جاوزت الأورال قبل أن يصلوا إلى الحدود ، إذ لا يمكن لعربتهم الهزيلة أن تسابق العربّة التي سأستأجرها والتي تجرها أحسن الجياد، إذن فلتهدأ يا كوربانوف»، وفي تلك اللحظة كان الرهط قد اختفى عن نظريه في الزحام.

لقد قيل إن فازان «باب» آسيا، ومركز كل تجارة سيبيريا وبخارى، وذلك لأنها يتفرع منها إلى جبال الأورال طريقان: أحدهما، الذى قرر ستروجوف أن يسلكه، طريق بيرم، وهو الطريق الرئيسى وتتخلله محطات البريد ويزدحم بالقرى والمسافرين، والآخر طريق «أيشيم» الذى اعتزم الغجر أن يسلكوه، وهو أقصر من سابقه لكنه أقل منه أماناً وعمراً، عدا وعورة أرضه وندرة القرى التي يمر بها، ومن ثم كان ستروجوف على حق في توقعه أن يصل إلى غايته قبل رهط النور المريب.

ولم تكد تنقضي الساعة حتى دق جرس السفينة مؤذناً بتأهبها لاستئناف رحلتها، داعياً ركابها الجدد، منبهاً ركابها القدامى، واتخذ الركاب الذين وجهتهم « بيرم » أماكنهم على السطح، وفي تلك اللحظة تبين ستروجوف أن الصحفي الفرنسي « جوليفيه » لم يعد إلى السفينة، ترى هل ستفوته؟، ولكن في اللحظة التي أوشك فيها سلم الباخرة

أن يرفع ، ظهر صاحبنا وهو يعدو بأقصى سرعته ، ثم قفز إلى السلم ومنه إلى السفينة بخفة البهلوان في آخر لحظة ، فتلقفته ذراعاً زميله الإنجليزي بلونت ، وبادره هذا قائلاً :

— ظننت أن «القوقاز» ستبحر بدونك

فقال : «أوه ، كنت إذن لحقت بها ولو استأجرت لهذا الغرض خصيصاً زورقاً بخارياً أو مركبة من مركبات البريد السريعة ، على حساب صحيفتى ، فقد كانت المسافة بين المرفأ ومكتب التلغراف بعيدة».

فسأله هذا في دهشة : «هل ذهبت إلى مكتب التلغراف؟»

فأجابه جوليفيه بابتسامته الودية الظافرة : «نعم ذهبت..»

فقال : «وهل الاتصال مع (كوليفان) ميسور؟»

قال : «هذا ما أجهله ، وان كنت أعلم أن الاتصال مع باريس ميسور على أي حال.

فسأله : «هل أرسلت برقية إلى باريس؟.. هل جد جديد؟»

فقال : «إنني لن أخفي عليك النبأ : لقد جاوز التتار — وعلى رأسهم (فيوفارخان) مدينة (سميبالاتنسك) واتجهوا نحو (أرتيش).

كيف فات «بلونت» مثل هذا النبأ الخطير ، الذى عرفه زميله ولا ريب من أحد أهل قازان فأبرق به إلى جريدته؟،

عقد الصحفي الإنجليزي يديه خلف ظهره ومضى ليجلس في مؤخرة السفينة دون أن ينبس بكلمة!.

وفي نحو الساعة العاشرة، غادرت مرافقة ستروجوف الحسنا مقصورتها، لأول مرة، إلى ظهر السفينة، فمضى الشاب إليها ومد يده مصافحا، ثم قال لها بعد أن قادها إلى مقدم السفينة: «تألمي هذا المنظر يا أختاه...!»، وكانت السفينة قد وصلت في تلك اللحظة إلى ملتقى نهري: (الفولجا) و (كاما)، حيث يتعين عليها أن تترك مجرى النهر الكبير، بعد أن هبطته مسافة أربعمائة فرسخ، كي تصعد مجرى النهر الصغير مسافة أربعمائة وستين فرسخا، وكان مجرى الكاما ينفسح أمام البصر عريضا جميلا تظلل مياهه الرائعة أشعة زوارق بيضاء تلمع في ضوء الشمس.

لكن ذلك المنظر الجميل لم يثر اهتمام الحسنا لحظة واحدة، أو يستأثر بأفكارها التي كانت تنحصر في أمر واحد، هو بلوغ هدفها الذي تسعى إليه، وما كان النهر في نظرها غير السبيل إلى ذلك الهدف، وكانت عيناها تلمعان لعانا غريبا وهي تنظر نحو الشرق، كما لو كانت تريد أن تثقب الأفق السحيق بنظرتها النافذة.

وتركت «نادية» يدها في يد مرافقها، ثم سألتها وهي تستدير نحوه:

— على أي بعد نحن من موسكو الآن؟

فأجابها بقوله : «على تسعمائة فرسخ منها»

فغمغمت وهي تردد عبارته : «تسعمائة فرسخ؟!»

ودق الجرس يعلن موعد الإفطار، فتبعت نادية ستروجوف إلى قاعة الطعام، حيث أبت أن تتناول شيئا من ألوان فتح الشهية مثل «الكافيار» وسمك «الرنجة» المقطع قطعاً صغيرة، وشراب «القمح واليانسون» القومي.. وحين أدبرت صحاف الطعام لم تأكل إلا قليلاً، شأن فتاة فقيرة تعوزها القدرة على الإنفاق، فاضطر الشاب إلى مجاراتها والاكتفاء بالألوان التي أكلت منها، وهكذا لم تكلفها الوجبة كثيراً ولا استغرقت وقتاً طويلاً، بل لم تمض عشرون دقيقة حتى غادرا قاعة الطعام معاً إلى السطح، حيث جلسا في المؤخرة، وهناك قالت الفتاة بصوت لا يسمعه غير صاحبيها:

— أنا أيها الأخ ابنة رجل في المنفى، واسمى نادية فيدور، وقد ماتت أُمِّي في «ريجا» منذ شهر واحد، وأنا ذاهبة الآن إلى أركوتسك كي أشاطر أبى منفاه طائعة!.

فقال لها: «وأنا ذاهب أيضاً إلى أركوتسك، وأرى ديناً في عنقي أن أسلم نادية فيدور إلى أبيها سالمة!». فقالت: «شكراً لك أيها الأخ!».

وأضاف الشاب أنه قد حصل على جواز خاص لعبور سيبريا، وأن السلطات الروسية لن تتعرض لهما طيلة الرحلة، ولم تزد الفتاة شيئاً، أو تستفهم عن شيء، فقد

كان كل ما يعينها من مصادفتها لهذا الشاب الطيب أن رأت فيه الوسيلة التي أتاحها لها السماء كي تبلغ أباه في أمان، وعادت تقول بعد لحظات :

كنت قد حصلت على جواز سفر خاص بى ، لكن منشور حاكم نيجنى نوفجورود أبطله ، ولولاك أيها الأخ لكان مصيري الموت المحتوم في تلك المدينة فقال : «وكيف جرؤت يا نادية على الإقدام على رحلة كهذه إلى سيبيريا وحدك؟»

قالت : «إنه واجبى الذى حتمَّ عليَّ ذلك»

قال : «ألم تعلمي بأن الأقاليم التي اندلعت فيها نار الفتنة وغزاها الأعداء قد بات عبورها متعذرا؟».

قالت : «لم أكن أعرف نبأ غزو التتار حين غادرت ريجا ، لم أسمع به إلا في موسكو فقط!»

فقال : «وبرغم ذلك واصلت الرحلة ؟». فقالت : «إنه واجبى !»

وفي هذه العبارة أفصحت الفتاة الشجاعة عن خلقها كله ، إنها لا تتردد في إتيان أي أمر تعتقد أنه واجب عليها !.

وتحدثت نادية بعد ذلك عن أبيها "فاسيلي فيدور" وكان طبيبا مشهورا في ريجا ، يمارس مهنته بنجاح ويعيش سعيدا وسط أسرته ، حتى ثبت انتماءه إلى جمعية سرية أجنبية ، فتلقى أمرا بالرحيل إلى أركوتسك ، ورافقه رجال الشرطة إلى الحدود فورا ، دون أن يدعو له غير فرصة تقبيل

زوجته التي كانت مريضة، وابنته التي لم يكن لها سند سواه، وعلى أثر ذلك رحل ودموع اللوعة في عينيه ، وهو منذ عامين يعيش في عاصمة سيبيريا الشرقية ، حيث أتيح له أن يعاود ممارسة مهنته، ولكن بلا ربح يذكر، ولعله كان يصير سعيدا لو كانت زوجته وابنته معه، لكن مدام فيدور لم تستطع بسبب ضعفها أن تبرح ريجا، وبعد عشرين شهرا من رحيل زوجها ماتت بين ذراعي ابنتها، وتركتها وحيدة بلا مورد أو معين ، ومن ثم طلبت الابنة ترخيصا باللاحاق بأبيها، وحين حصلت عليه أبرقت إليه بأنها قادمة، وسافرت وليس معها ما يكاد يكفيها للرحلة الطويلة، وبرغم ذلك لم تتردد، فقد فعلت ما استطاعت ، وتركت لله أن يفعل الباقي.

وكان الليل قد هبط، والسفينة تمخر مياه النهر، والهواء قد اكتسب عذوبة خاصة ، ومن فم المدخنة كان شرر نيران السفينة التي تسير بوقود من خشب الصنوبر يتطاير بلا انقطاع ، وهدير المياه المتكسرة تحت قلابات «القوقاز» يختلط بعواء الذئاب على الضفة المظلمة اليمنى لنهر «الكاما».

وفي صبيحة اليوم التالي رست السفينة «قوقاز» في مرفأ «بيرم»، آخر محطة على نهر الكاما. وإقليم بيرم - الذى يعد المرفأ عاصمته - من أوسع أقاليم الامبراطورية الروسية، وهو يمتد عبر جبال الأورال إلى أرض سيبيريا ، وفي بيرم يعمد المسافرون من أوروبا إلى آسيا إلى شراء عربات يستخدمونها

في الصيف، وزحافات يستخدمونها في الشتاء، قبل أن يلقوا بأنفسهم لعدة أشهر في خضم البراري الرهيبة هناك: !.

وكان ميشيل ستروجوف قد أعد برنامج رحلته على أساس أن يعبر جبال الأورال بإحدى عربات البريد السريعة المنتظمة، لكن اضطراب الأحوال جعل الانتقال بهذه العربات يكاد يكون متعذراً، فاضطر الشاب إلى محاولة استئجار عربة ينهب بها الأرض نهبا من محطة إلى محطة مستحثاً أصحاب الجياد في كل محطة على إبدال جياده بسرعة، وذلك بفضل منحه السخية لهم، وكان من سوء حظه أن اضطرت الإجراءات المشددة التي اتخذت ضد الأجانب ذوي الأصل الآسيوي كثيراً من المسافرين إلى مغادرة بيرم، فازدحمت بهم وسائل المواصلات وندرت العربات والجياد، فلم يجد بداً من الرضا بآخر عربة وجدها في البلدة، وبرغم فرحته بها تظاهر بمساومة صاحبها على الثمن في إلحاح تمشياً مع منطق الشخصية المتواضعة التي يتقمصها، شخصية التاجر البسيط، نيقولا كوربانوف»، وكانت نادية تلازمه في طوافه وبحثه، تستحثها نفسها للهدف على الرحيل والوصول إلى غايتها، وإن اختلفت الأسباب، وحين عثر على ضالته قال للفتاة معتذراً:

— أختاه، كنت أتمنى أن أجد مركبة أكثر توفيراً للراحة من هذه. فقالت: «أقول هذا لي أيها الأخ، أنا التي كنت سأذهب سيراً على قدمي لو الأمر ذلك، كي ألحق بأبي؟»

فقال: «لست أشك في شجاعتك يا نادية، ولكن من المتاعب الجسمية ما تعجز المرأة عن تحمله»

فقالت: «سأتحمل كل شيء، مهما يكن، وإذا سمعتنى أشكو خلال الطريق، فاتركنى وواصل الرحلة وحدك!».

وبعد نحو نصف ساعة كانت ثلاثة جياد أصيلة قد ألحقت بالعربة، ولم يكن الشاب والفتاة يحملان أمتعة تذكر، نظرا إلى سرعة المهمة التي انتدب الشاب لها، وضآلة موارد الفتاة، وكان هذا من حسن حظهما، فقد كانت المركبة تعجز عن حمل الركاب وأمتعتهم الثقيلة في وقت واحد، وكانت معدة لراكبين، عدا الحوذي الجالس في مقعده الضيق في المقدمة، والذي يستبدل في كل محطة.

وكان الحوذي الأول الذى نيطت به قيادة المركبة في أول مرحلة، من أهل سيبريا - كما يدل شعره الطويل المقصوص عند جبهته، وقبعته ذات الجوانب العالية، وحزامه الأحمر، إلخ - وحين أخذ مكانه من المركبة ألقى نظرة فضول على الراكبين اللذين تدل قلة أمتعتهما على بساطة حالهما، ومط شفتيه مغمما دون أن يعبأ بأن يسمعه: «غرابان من فئة ثلاثة كوبيك كل فرسخ!».

فأجابه ستروجوف - وكان يفهم لغة أهل سيبريا جيدا - بقوله: «بل نسران، من فئة التسعة كوبيك، فضلا عن أن (البقشيش) محفوظ يا صاح!»، وسمعت على الفور

«فرقة» طروبة من سوط الحوزي، وكان الحوزية يطلقون كلمة ، الغراب، على المسافر البخيل، الذى لا يدفع أكثر من ثلاثة «كوبيك» أو أربعة على كل فرسخ من المسافة، وينعتون ذاك الذى لا يتراجع أمام الأجر الضخم، علاوة على المنح السخية غير المتفق عليها بكلمة النسر!، ولما كان الجزاء دائماً من جنس العمل، فإن «الغراب» لا يقطع المسافة عادة بمثل السرعة الفائقة التي يقطعها بها النسر السخى!.

أخذت نادية وستروجوف مكانهما في المركبة، ورفع «الكبود» فوق رأسيهما، كي يقيهما من حرارة الشمس المحرقة، وقرب الظهر انطلق بهما العربدة تجرها الجياد الثلاثة وسط عاصفة من الغبار!.

والراكب الذى لم يألَف هذه الوسيلة من وسائل المواصلات لابد أن يلفت انتباهه مسلك الحوزي في معاملة جياده أثناء الطريق، والعبارات الطريفة التي يستحثها بها على الإسراع، فهو لا يفتأ يناديها مداعباً: «هيا طيري يا حماماتى .. أسرعى يا عصافيري.. كن جسوراً، يا ابن العم الذى إلى اليسار .. انطلق يا أبى الصغير الذى إلى اليمين!»، ولكن لا تكاد تتباطأ لحظة واحدة حتى ينهال صاحبنا عليها بالمقذع الفاحش من الإهانات التي تفهمها الحيوانات التعمسة بدورها، فتعود إلى ركضها السريع من جديد.

وهكذا مضت المركبة في انطلاقها لا تلوي على شيء،
بسرعة تتراوح بين اثني عشر فرسخا وأربعة عشر فرسخا
في الساعة، وكان ستروجوف قد ألف السفر ومتاعبه بهذه
المركبات، أما مرافقته فقد كان ذلك كله جديدا عليها،
فتعرضت للارتجاج والاصطدام بجوانب المركبة أكثر من
مرة، لكنها لم تتذمر أو تنطق بالشكوى، وإنما لزمّت
الصمت المطبق وهي مرتاعة من سرعة المركبة، وفي ذهنها
خاطر واحد: متى تصل؟، وإذ ضاقت بالصمت، التفقت إلى
مرافقها آخر الأمر وسألته:

- لقد أحصيت ثلاثمائة فرسخ بين بيرم وإيكاتر نبرج،
فهل ترى أخطأت؟
- كلا لم تخطئي يا نادية، وحين نبليغ إيكاتر نبرج نصير
تحت سفح جبال الأورال، في الجانب الآخر منها.
- وكم تستغرق رحلتنا في الجبال؟
- حوالي ثمان وأربعين ساعة متواصلة لأنني لن أستطيع
التوقف لحظة واحدة في الطريق، بل يجب أن أسرع إلى
أركوتسك بلا أدنى إبطاء.
- لن أعوقك أيها الأخ ساعة واحدة، وسنمضي في رحلتنا
ليل نهار

— عسى ألا يسد غزو التتار في وجهنا الطريق يا نادية،
كي نستطيع أن نصل إلى غايتنا قبل مضي عشرين يوماً!.

— أو قمت بهذه الرحلة من قبل؟

— عدة مرات! ولو كنا في الشتاء لوصلنا بأسرع وأسهل وأمن
طريقة، ولو أن البرد في الشتاء يهراً العظام، لقد شهدت
انخفاض درجة الحرارة في السهول السيبرية أحياناً إلى
أكثر من أربعين درجة تحت الصفر، وأحسست بقلبي
يكاد يتجمد تحت ثيابي الجلدية السمكة، وبأطرافي
تكاد تشل داخل الحذاء الصوفي المثلث الطبقات، ثلاث
مرات عبرت الطريق إلى «أومسك» في الشتاء.

— وماذا كنت تفعل في أومسك؟

— كنت أذهب لأرى أمي التي تنتظرني.

— وأنا الآن ذاهبة لرؤية أبي في أركوتسك، وسوف أنقل
إليه آخر كلمات أمي، ألسنت محقة في الذهاب إليه
برغم كل العقبات؟.

— إنك فتاة شجاعة يا نادية، وما كان يمكن أن يتخلى
الله عنك!.

ومضت العربدة براكبيها من محطة إلى محطة، وتغير
حوزيها وجيادها مرة بعد أخرى، وكان كل حوزي منهم
يرحب بقيادة عربدة الأخوين السخيين، ويعاملهما معاملة

خاصة، وفي إحدى المحطات علم ستروجوف من ناظرها أن عربة أخرى تسبقه في الطريق عينه بنحو ساعتين، فسأله: «وكم راكبا فيها؟». فقال: «فيها اثنان».

فسأله: «هل يسيران مسرعين؟». قال: «بسرعة البرق!»

فطلب إليه أن يبدل الرجال جياذ العربة بسرعة!، ووعد الناظر بإجابة هذا الطلب.

ومضى الراكبان ينهبان الأرض أثناء الليل، وكان الطقس جميلا، لكن بوارد التكهرب ما لبثت أن بدت في الجو، مؤذنة بعاصفة عاتية آتية من الجبال.

ومرت الليلة دون أي حادث، واستطاعت نادية أن تنام بضع ساعات، برغم الجو المترب الخانق.. أما ستروجوف فلم يغمض له جفن، بل ظل يستحث الحوذي كلما بدأ يغالبه النعاس، ولم يضيع ساعة واحدة في مراحل الطريق أو محطات البريد عند تغيير الحوذي والجياذ.

وفي الساعة الثامنة من الصباح التالي - ٢٠ يوليو - بدت أولى تباشير جبال الأورال من ناحية الشرق، لكنها كانت ما تزال بعيدة في الواقع، بحيث يتعذر بلوغها قبل نهاية النهار، وهكذا تحتم أن يتم عبور تلك السلسلة من الجبال الشاهقة التي تفصل روسيا الأوروبية عن سيبيريا في ظلمة الليل، وخلال ذلك النهار ظل الجو خانقا والهواء عاصفا محملا بالغبار، ولعله كان الأفضل ألا يتورط الشاب

في محاولة عبور الجبال بالغبار، ولعله كان بلغ آخر محطة
لإبدال الجياد قبيل الأورال وأشار له الحوذي الجديد إلى
بوادر البرق والرعد التي تختمر في قلب الفضاء الأسود
العريض الذى أمامه ، سأله في هدوء: «أما زالت تسبقنا
عربة أخرى؟»

فقال «نعم، بنحو ساعة»

قال: «إذن فألى الأمام، ولك منحة مضاعفة إذا بلغنا
(ايكاترنبورج) في الصباح!». .

عاصفة في جبال الأورال

تمتد جبال الأورال نحو ثلاثة آلاف فرسخ - أي ثلاثة آلاف ومائتي كيلومتر - بين أوروبا وآسيا، وقد كان ميشيل ستروجوف حكيماً إذ اختار لعبورها طريق (بيرم - إيكاترنبورج).

وتقع الأخيرة على السفح الشرقي للجبل، فقد كان هذا الطريق أسهل الطرق وآمنها، وهو طريق تجارة آسيا الوسطى جميعها، وقد كان الليل كافياً لعبور الجبال في حالة اتقاء حدوث حادث ما، لكن البوادر الأولى للبرق والرعد كانت لسوء الحظ نذيراً بثورة جوية هوجاء!.

وقد حرص الشاب على أن يوفر لمرافقته أقصى ما في استطاعته من سبل الراحة، وثبت غطاء العربة بحبل غليظ كي يحول دون انتزاع العاصفة إياه أثناء المسير، وملاً فراغ العجلات بالقش كي يخفف من شدة الارتجاجات الناشئة عن السرعة في قلب الليل البهيم، وليزيد من صلابة العجلات.

وأخذت نادية مكانها في بطن العربة، وجلس ميشيل على مقربة منها، وقد امتد أمامهما ستار من الجلد أعد

خصيصا لحمايتهما من المطر إذا هطل والعواصف إذا اشتدت ،
وإلى يسار الحوذي علق مصباحان كبيران ليضيئا الطريق ،
وهكذا اتخذ الركب كل الاحتياطات التي اقتضاها الجو المنذر
بالشر ، فقال الشاب لمرافقته : «نادية ، نحن على استعداد .
فقلت : «إذن فلنرحل» .

وأعطى الأمر للحوذي ، فاندفعت المركبة تتسلق المناطق
الأولى من سفح الجبل ، وكانت الساعة الثامنة ، والشمس
توشك أن تغيب ، والجو قاتم ، وهناك أبخرة كثيفة تحجب
قبة السماء ، لكن الرياح لم تكن قد هبت بعد ، وإن تكن
المسافة التي تفصل بينها وبين الأرض كانت تقصر بالتدريج ،
وكأن قوة علوية تدفع موجة الريح من السماء نحو الأرض ،
في الوقت الذي تتسلق فيه المركبة السفح من الأرض إلى
السماء ، ولم يمض وقت طويل حتى اختلطت الأرض بأبخرة
الهواء المتكاثفة ، واشتد الضباب بحيث عجزت المركبة عن
أن تشق طريقها ، وتعذر عليها السير آمنة من السقوط في
هاوية سحيقة ..

وسلسلة جبال الأورال متوسطة الارتفاع ، لا يزيد علو أعلى
قممها على خمسة آلاف قدم ، وتتخللها مناجم عدة للحديد
والنحاس والأحجار الكريمة ، وقرى كثيرة متناثرة على
الطريق الممهدة لعبور عربات البريد ، لكن الطريق الممهدة في
الطقس المعتدل وضياء النهار سرعان ما تنطوي على أشد

الخطر وأعتى العراقيين حين تصطرع عناصر الطبيعة بشدة وعنف فيضيع الإنسان في غمرة صراعتها.

وكان ميشيل ستروجوف يعرف مدى قوة العاصفة ورهبتها في الجبل، ولم تكن الأمطار قد هطلت بعد، فأزاح الستار الجلدي وجعل يراقب الطريق أمامه على ضوء مصباحي المركبة، أما نادية فعقدت ذراعيها على صدرها، وراحت بدورها ترقب الطريق صامتة، دون أن تنحني مثله أو تخرج نصف جسمها من العربة، كأنما يستشير السماء والأرض في وقت معا، وكان هدوء الجو من ذلك النوع الذى يسبق العاصفة، فبدت الطبيعة وكأنما أوشكت أن تختنق وتكف عن التنفس، وساد السكون فلم يكن يعكره غير صرير العجلات وهى تنهب الطريق، وأنفاس الجياد اللاهثة، ووقع حوافرها الحديدية على الحصى في الطريق، وفيما عدا ذلك كانت الطريق مهجورة تماما، فلم تصادف المركبة أثناء سيرها راجلا ولا فارسا ولا عربة أخرى تتسلك الأورال في تلك الليلة الظلماء، بل لم تصادف نار فحام في الغابات، ولا مخيما لعمال المناجم العديدة هناك، أو كوخا في أجمة على الطريق.

وفي خلال ذلك كله كان ميشيل يسأل نفسه حائرا عما يكون ذلك المسافر في المركبة التي سبقتة، وما الدوافع العاجلة التي أغرته بمجافاة الحذر والمخاطرة بعبور الجبل في مثل هذه الليلة؟ وفيما هو يدير في رأسه شتى الاحتمالات والتفسيرات، دون أن يكف عن مراقبة الطريق، بدأ البرق

يشق كبد السماء قبيل منتصف الليل ولم تخف حدثه بعد ذلك قط، وعلى ضوءه كانت تبدو وتختفي ظلال أشجار الصنوبر الفخمة التي تتجمع في بقع مختلفة من الطريق ، والأخاديد السحيقة التي تغرر فها كلما مرت المركبة على قنطرة خشبية ممتدة بين قمتين ، وبين حين وآخر كانت تعلو صيحات الحوذي وهو يستحث جواده اللاهثة بعبارات اللوم أو الإطراء ، ثم سأله ستروجوف فجأة: «متى نبلغ قمة الجبل؟»

فقال : «في الساعة الأولى صباحا ، إذا قدر لنا أن نبلغها!»

فسأله : «أهي رحلتك الأولى في الجبل أثناء عاصفة؟»

فقال : «لا يا سيدي ، وعسى ألا تكون الأخيرة!»

قال : «أخائف أنت ؟»

قال : «لست خائفا ، ولكني أكرر أنك أخطأت يا سيدي بهذه المجازفة!»

فقال ستروجوف : «لو أنني أحجمت لكنت أشد خطأ!»

فسكت الحوذي هنيهة ، ثم صاح بجياده قائلا : «إذن انطلق يا حمائي!»

وما كاد يتم عبارته حتى سمع دوي رهيب ، وتعاقب وميض البرق وهزيم الرعد ، ولح ستروجوف أشجارا من الصنوبر تميل نحو الهاوية ، وبدأت الريح تزار في طبقات الجو العليا ، وتهاوت على جذوعها بعض الأشجار الأخرى ،

على بعد مائتي متر فقط من المركبة، فنكصت الجياد على أعقابها مذعورة، وراح الحوذي يصيح بها وفرقة سوطه تختلط بدوى الرعد، بينما أمسك ستروجوف يد نادية وسألها: «أنائمة أنت يا أختاه؟». فاكتفت بأن نظرت إليه دلالة على أنها متيقظة، وبقيت ساكنة، فقال لها: «حسنًا، استعدي إذن لمواجهة العاصفة يا أختاه»

فتمتت قائلة: «إني متأهبة!».

ولم يكد يسدل الستائر الجلدية ليحتميا بها من المطر المرتقب حتى هبت الزوبعة بكل عنفوانها، فقفز الحوذي من مكانه إلى ظهر أحد الجياد، وأخذ يجاهد ليسيّط على زمامها دفعا للخطر الذي يهدد الركب، وحين أوقفها كانت المركبة قد بلغت منعطفًا من الطريق، فرأى الاحتفاظ بها هناك حتى لا تجرفها الريح العاصفة إلى الهاوية القائمة إلى يسار الطريق، ولكن الجياد لم تكف بعد وقوف العربة عن ثورتها الجامحة، فقد أعمتها ومضات البرق الخاطفة، وأصمت سمعها انفجارات الرعد الشبيهة بانفجارات القنابل، فراحت تصهل وتزمر محاولة تحطيم أعنتها والتخلص من قيودها، وأدرك ستروجوف أن الحوذي لا يستطيع السيطرة على جياده، فقفز من مكانه لمعاونته، وأفلح بعد لأي في كبح جماحها.

على أن العاصفة نفسها لم تهدأ حدثها، بل ازدادت، وبدأ سيل من الأحجار وجذوع الأشجار يتدحرج من القمم

والمرتفعات المشرفة على ذلك المكان، فصاح ستروجوف قائلاً: «ما أظن أننا نستطيع البقاء هنا!»

فقال الحوذي يائساً: «بل لن نستطيع البقاء على قيد الحياة! إن هذه العاصفة ستلقى بنا إلى قاع الهاوية من أقصر طريق!»

فصاح به قائلاً: «تولّ أمر الجواد الأيمن أيها الجبان، وسأتولى أنا أمر الأيسر!»

لكن هجمة جديدة من هجمات العاصفة أجبرت الرجلين على الانبطاح على الأرض حتى لا تجرفهما الريح، بينما تراجعت العربة برغمهما حتى كادت تخرج عن الطريق لولا أن اصطدمت بجذع شجرة أوقفها، وهنا هتف ستروجوف بصاحبه قائلاً: «لا تخافي يا نادية!». فأجابت بصوت لا يبين فيه أثر للانفعال: «لست خائفة!».

وهدأت حدة الزوبعة قليلاً بعد حين فقال الحوذي ليشيل ستروجوف: «أتريد العودة من حيث أتينا؟»

فقال له: «كلا، بل نواصل رحلتنا، لكن يجب أن نجاوز هذا المنعطف لكي نستطيع الاحتماء بالجبل»

فقال الحوذي: «لكن الجياد تأبى المسير!»

قال: «إذن نتعاون على جذبها من الأمام!»

وبدا التردد في وجه الحوذي، وغمغم يقول: «إن الزوبعة ستعود إلى الهبوب»

فصاح به ستروجوف قائلاً في لهجة حازمة: «كفي ثرثرة ونفذ ما أمرتك به!».

فسكت الحوذي مذعنا وتناول الجواد الأيمن، بينما تناول ستروجوف زمام الجواد الأيسر، وبعد لأي استطاعا إعادة العربة إلى الطريق الرئيسي والمضي بهما فيه، ولكن بمشقة أشد، وكانا لا يكادان يقطعان خطوات حتى يسقط أحدهما أو كلاهما، أو يضطر إلى التراجع!

وأخيراً استطاعا بعد ساعتين في ذلك العناء المتواصل أن يقطعا نصف فرسخ، ويجاوزا منطقة مهب العاصفة.

على أن الخطر لم يكن مقصوراً على العاصفة، فقد كان هناك سيل الأحجار التي تهوى بقوة منحدر من القمم العالية، وشد ما فزع الحوذي إذ رأى حجراً ضخماً منها قد اندفع نحو المركبة بسرعة كبيرة فخارت قواه وفغر فاه من شدة الرعب، بينما أهوى ستروجوف بسوطه على الجياد في قوة كي تمضي بالمركبة بعيداً من الخطر، لكنها ظلت جامدة في مكانها، وهنا تصور الشاب أية موتة شنيعة تتهدد ثلاثتهم إذا سقط الحجر على المركبة، فأخذ يدفع المركبة بكتفيه في قوة خارقة أمدته بها ذلك المأزق الرهيب، واستطاع أن يزحزحها إلى الأمام بضع خطوات، في

اللحظة التي هوى فيها الحجر الضخم واستقر في الموضع الذي كانت فيه ، وشعر هو والفتاة والحوذي بالأرض تميد تحتهم ، وبالهواء يسفع وجوههم مختلطا بالحصى المتطاير عب سقوط الحجر الثقيل ، ولم تملك الفتاه نفسها فصاحت مرتاعة قائلة : «أخي» ، وسرعان ما هتف بها ستروجوف في صوت هادئ يقول : «اطمئني ، إن الله معنا يا أختاه» .

ثم استأنفت المركبة سيرها حتى بلغت مكانا يصلح للاحتماء فيه من عربدة العاصفة التي بلغت عنفوان غضبتها ، وكان الرعد يزجر ويدوى ، بينما الأرض ترتج ، فتركت نادية مقعدها ولجأت إلى كهف صغير من كهوف رجال المناجم ، في انتظار استئناف الرحلة ، وفي تلك اللحظة - وكانت الساعة الأولى صباحا - بدأت الأمطار تنهمر بشدة ، وكأنما فتحت كل ميازيب السماء لتجرف اليابسة كلها في طوفان عام ، وفي الوقت نفسه كانت صفحة السماء تلتمع بالبرق المتواصل كأنما شب فيها حريق لم تقو على إطفائه كل تلك المياه ، وهذه هي الطامة الكبرى التي جعلت مواصلة الرحلة ضربا من المستحيل .

وحاول ستروجوف أن يعزى نفسه بأن عنف العاصفة إلى هذا الحد دليل على أن أمدها لن يطول ، ولعلها تنتهي بعد ساعتين فيتمكن الركب من مواصلة السفر قبيل الفجر .

ثم سمع نادية تقول: «إذا كنت تبغى مواصلة الرحلة فلا يؤخرنك عنها أن تجنبني تعباً أو خطراً!».

فأجابها قائلاً: «أنا أعرف مبلغ شجاعتك، ولا شك في أن الواجب الذى على أن أؤديه، يقضى بالألا ننتظر!»

وغمغمت قائلة في استغراب: «واجب!»

وفي تلك اللحظة شق السماء ضوء خاطف عنيف، ثم أعقبه دوي هائل، وامتلاً الهواء برائحة خانقة، بينما شبت نار الصاعقة في حشد من أشجار الصنوبر الضخمة على مقربة من المركبة فاشتعلت كالهشيم وبعد أن خفتت أصدااء الرعد في بطون الجبال، تلمس ميشيل ستروجوف يد نادية المتشبثة بيده وسمعها تهمس في أذنه: «أسمع أنت؟ إنني أسمع صيحات بعيدة أيها الأخ!»

استغاثة في الظلام

كانت الصيحات التي سمعتها نادية صادرة من الجانب الأعلى من الطريق، على مقربة من المركبة، وكانت أشبه بصيحات الاستغاثة اليائسة، فقالت نادية: "لعل أماننا بعض المسافرين يطلبون النجدة!".

فقال لها ستروجوف : «إذن يجب أن نخف لنجدتهم»

فقال الحوزي : «أتعنى أن نعرض أنفسنا والعربة والجياد لأعباء جديدة؟»

فرمقه ميشيل ستروجوف بنظرة صارمة وقال : «يجب أن نضع لهم ما كنا ننتظر أن يصنعوه لنا لو أنهم كانوا في موقفنا وكنا في موقفهم، وسأذهب إليهم وحدي ماشيا على أية حال».

ثم نهض، فنهضت نادية وقالت : «سأصحبك يا أخي».

فقال لها : «لا داعي لذلك، ويحسن أن تبقي هنا، فلست أريد أن أتركه وحده». قال هذا وهو يشير إلى الحوزي.

فقلت «فليكن ما تشاء، ولن أغادر هذا الكهف حتى تعود»
فمد يده إليها ماصفا، ثم مضى نحو منعطف المنحدر،
وما لبث أن اختفي في الظلام

وهنا قال الحوزي للفتاة : «إن أخاك مخطئ ولا شك»

فأجابت في بساطة: «بل هو على صواب»

ومضى ستروجوف يتسلق المرتفع التي انبعثت الصيحات
من خلفه في خفة وجرأة، مدفوعا إلى ذلك بعامل الرغبة
في نجدة أولئك المسافرين، ولكي يقف في الوقت نفسه على
ما حدا بهم إلى المجازفة بالسفر رغم لك العاصفة العاتية
وأخطار عبور الجبل في الليل.

وكان واثقا بأنهم ركاب العربة التي كانت تسبقه طيلة
الطريق، ومع أن المطر كان قد انقطع، فإن شدة العاصفة
تضاعفت، وبلغ من قوة الريح المضادة أن أحدا لا يملك
قوة ميشيل ستروجوف البدنية، لم يكن يستطيع الخوض
فيها، ولما اقترب من مصدر الصرخات لم يستطع أن يميز
مكان المستغيثين، أما لأنهم كانوا خارج الطريق الرئيسي،
وأما لأن كثافة الظلمة حجبته عن ناظره، لكنه ما لبث
أن سمع أصواتهم بوضوح، الأمر الذي أثار بالغ دهشته،
وكانوا يتبادلون هذه العبارات:

— «بيوتور» «عد أدراجك..!»

- سوف أجلك في المحطة القادمة
- ألا تسمعني يا حوزي الشيطان؟
- انظر بربك كيف يسافرون في هذا البلد!
- أو يسمون هذه مركبة؟
- يا لك من وغد.. أهكذا تفر وتتركنا في عرض الطريق؟
- أو هكذا تعاملني أنا الإنجليزي الأصيل، سوف أشكوك في القنصلية وأجعلهم يشنقونك!
- ولم يسع ستروجوف إلا أن يبتسم لدى سماعه عبارة هذا المسافر الأخير، ثم سمع زميله الآخر وهو يهدئ روعه ، وتضاعفت دهشته حين أعقب ذلك ضحكة بل قهقهة غير متوقعة، وتبعها هذا الحوار:
- وبعده؟، هذا غريب جدا!
- أو تجرؤ على الضحك؟
- بالطبع أيها الزميل العزيز، ومن كل قلبي، وإلا فماذا أستطيع خيرا من الضحك، بل أنا أدعوك إلى أن تضحك معي، وإلا فبربك هل وقع لك أغرب من هذا.
- وفي تلك اللحظة دوى الرعد بشدة رددت الجبال صداها مضاعفا، ثم سمع ستروجوف ذلك المسافر الضاحك يقول:

— نعم ، هذا أغرب ما رأيت حقاً ، إنه أمر لا يمكن أن يحدث في فرنسا فأجابه زميله قائلاً : « ولا في إنجلترا » .

وعلى ضوء برق مفاجئ لمح ستروجوف على بعد عشرين خطوة منه اثنين من المسافرين جالسين جنباً إلى جنب في قلب عربة انغرست عجالاتها في أخدود من الأرض ، واقترب الشاب شيئاً فشيئاً من المسافرين ، بينما استمر أحدهما في الضحك والثاني في التذمر والسخط ، فعرف فيهما الصحفيين اللذين رافقاه على السفينة « قوقاز » من « نيجنى نوفجورود » إلى « بيرم » وحين رآياه هتف به الفرنسي :

— سعدت صباحاً يا سيدى ، لكم يسرنا أن نراك في هذه الظروف ، دعني أقدم لك عدوي الحميم مستر « بلونت » ! .

وحياه الصحفي الإنجليزي بدوره ، وكاد يقدم له زميله الفرنسي ، لكن ستروجوف قطع حديثه قائلاً :

— لا داعي للتعريف أيها السادة ، فنحن متعارفون ما دمنا قد عبرنا الفولجا معاً !

— حسناً ، هذا صحيح يا مسيو..؟

— نيقولا كوربانوف ، تاجر من أركوتسك ، ولكن هل لكما أن تقصا عليّ نبأ ذلك الحادث الذى أضحك أحدكما بقدر ما أغضب الآخر؟

فقال الصحفي الفرنسي ملهوفاً: «سأحتكم اليك يا مسيو كوربانوف، تصور أن حوزينا قد رحل وأخذ معه جياد عربته الجهنمية وتركنا هكذا، بلا حوزي ولا جياد، أرايت أغرب من هذا؟»

فقال الإنجليزي: «ليس ثمة غرابة البتة في الأمر؟»

— بل إنه لأمر غريب أيها الزميل، ولكنك لا تعرف كيف تأخذ الأمور ببساطة .

— وكيف نستطيع مواصلة رحلتنا بربك؟

— ليس ثمة ما هو أبسط من ذلك، تأخذ أنت مكان الحصان وآخذ أنا مكان الحوزي، وأناديك قائلاً: «هيا يا حمامتي، هيا يا عصفوري المحبوب».

— مسيو جوليفييه، إن مزاحك قد جاوز الحدود، و . . .

— احتفظ بهدوءك أيها الزميل، وثق بأنك حين تتعب سوف تستريح إذ أستبدل بك جواداً آخر.

ولم يملك ستروجوف نفسه من الابتسام، لطرافة النقاش بين الصحفيين، لكنه أثار أن يخرج بالموضوع عن طور المزاح فقال:

— أيها السادة هناك حل أفضل من هذا، لقد بلغنا الآن القمة العليا لسلسلة جبال الأورال، ولم يبق أمامنا غير أن نهبط السفح المقابل، ولما كانت عربتي على بعد خمسمائة خطوة من هنا، ففي وسعي أن أعيركما أحد

جيادها كي يجر عربتكما، وبذلك نستطيع أن نبلغ «أكاترنبورج» معا في الغد، إن لم يعرقلنا حادث ما، وإذا كنت لا أعرض عليكما السفر معي في عربتي فلأنها لا تحوى غير مقعدين أشغلهم أنا وأختي.

فأجابه الفرنسي على الفور «هذا عرض كريم منك يا مسيو كربانوف»، وأردف زميله الإنجليزي قائلاً: «ونحن نقبله شاكرين، وأما ذلك الحوذي الوغد...؟»

فقال ستروجوف: «إنها ليست أول مرة يقع فيها مثل هذا الحادث»

— ولكن لماذا لا يعود؟ ألم يدرك بعد أنه تركنا وراءه، بعد أن انفصل قسما العربّة.

— لعله في اندفاعه السريع لم يشعر بذلك، والآن تفضلا فاتبعاني، كي نحضر عربتي.

— لقد أنقذتنا من مأزق رهيب يا سيدي، ولعلنا نلتقي مرة أخرى في سيبريا فقال سروجوف: «إنني ذاهب إلى أومسك»

قال: «أومسك فقط؟»، إننا ذاهبان إلى أبعد من ذلك، إلى حيث نجد أخبارا نسطادها، وربما رصاصا أيضا».

— آه، في مناطق الغزو؟ إنني بطبعي رجل مسالم لا أحب أماكن القتال

— لكم يؤسفنا أن نفترق هكذا سريعا، ولكن من يدري،
ربما ترشدنا نجمتنا الهادية إلى طريقك ذاته، فنسافر
معاً مرة أخرى

— قد تعرجان إذن على أومسك؟

— لسنا نعلم الآن سوى أننا ذاهبان رأساً إلى (أيشيم).

— إذن يسرني أن نسافر معاً حتى هناك

وبرغم نفور ستروجوف من أن يصحبه أحد في رحلته،
فإنه لم يستطع أن يتخلص من المسافرين اللذين يسلكان
طريقه نفسه، ثم قال بلهجة تنم عن عدم اهتمام: «أتعلمان
إلى أين بلغ توغل التتار في غزوهم؟».

فأجابه جوليفيه على الفور: «إننا لا نعلم غير ما سمعناه في
(بيرم) من أن جيش (فيوفارخان) قد غزا كل مقاطعة (سيميبالاتنسك)
واندفع منذ أيام بقوة هائلة نحو مجرى (الأرتيش)».

فقال جوليفيه: «ويقولون أيضاً إن الكولونيل إيفان
أوجاريف تخطى الحدود متنكراً، وأنه لن يلبث أن يلحق
بزعيم التتار في قلب البقاع المغزوة».

فقال: «وهل لديكما ما يدل على أنه الآن في سيبيريا؟»

قال: «سمعت أنه اتخذ طريق (قازان - إيكاترنبورج)».

وهنا انبرى له منافسه الإنجليزي قائلاً: «أتعلم هذا

أيضا ؟، لكنك لا تعلم أنه متنكر في زي بوهيمى ؟!»

وهنا صاح ستروجوف على غير إرادة منه قائلاً :
«بوهيمى ؟!» ، ذلك أنه تذكر على الفور ذلك البوهيمى
الأحذب ومرافقته اللذين صادفهما مرتين ، وهبطا من السفينة
في قازان ، ثم استطرد جوليفيه محدثاً زميله في لهجة تنم
عن الزهو : «ولقد أبرقت بفحوى هذا النبأ إلى باريس؟» .

فأجابه هذا قائلاً : «إذن فأنت لم تضع وقتك سدى في قازان؟»

ولم يتتبع ستروجوف الحوار الذى استمر بين الزميلين
حول هذا الموضوع ، فقد شردت أفكاره إلى رهط الغجر ،
والأحذب الشيخ ، والمرأة التي ترافقه ، والنظرة التي حدجته
بها وهى تغادر السفينة ، وحاول أن يستجمع في ذهنه جميع
تفصيلات ذلك اللقاء ، وبغته سماع انفجار صادر من مسافة
قريبة ، فصاح ستروجوف : «آه ، إلى الأمام أيها السادة» ،
وأوسع الثلاثة خطاهم حتى وصلوا إلى الكهف الذى تقف
فيه المركبة ، وكانت أشجار الصنوبر التي أحرقتهما الصاعقة
ما زال تشتعل ، والطريق يبدو خالياً تماماً ، وفجأة سمع
زئير مخيف ، ودوي انفجار طلق نارياً آخر ، فصاح
ستروجوف : «دب» ، ثم هتف على الفور في جزع : «نادية» ،
واستل سكينه من نطاقه وفي وثبة واحدة دار حول المنعطف
الذى ترك الفتاة عنده ، وكان حريق أشجار الصنوبر يلقي
على تلك المنطقة بصيصاً من الظلال الحمراء ، وفي اللحظة

التي بلغ فيها مكان العربية اندفعت نحوه كتلة ضخمة ،
دب من الحجم الكبير، طردته العاصفة من غابات الأورال
فجاء ينشد مأوى في الكهف المريح الذى احتمت فيه نادية
من غضب الطبيعة.

وكان اثنان من الجياد قد فزعا من مرأى الدب الضخم
فحكما قيودهما ولاذا بالفرار، وفي غمرة انزعاج الحوذي
اندفع يطاردهما تاركا الفتاة مع الدب !

ولم تفقد نادية صوابها، وإنما انتهزت فرصة انشغال
الدب بمهاجمة الجواد الثالث، ولم يكن قد رآها هي بعد،
وخرجت من مكنها بسرعة إلى العربية فتناولت منها أحد
المسدسات التي خلفها فيها ستروجوف وصوبته بسرعة إلى
الوحش الكاسر، ثم أطلقتة.

واستقرت الرصاصة في كتف الدب، لكنه لم يتراجع،
بل استدار إلى الفتاة وهو يزأر ويهمهم، بينما حاولت هي
تجنبه بالدوران حول المركبة .

وفي أثناء ذلك كان الجواد الثالث يبذل أقصى جهده
لتحطيم قيوده، وأدركت نادية أنه لو انطلق لتحتم عليهم
البقاء في ذلك المكان وقتا لا يعرف مداه إلا الله، وإزاء هذا
الخطر الداهم حزمت شجاعتها وتمالكت أعصابها وواجهت
الدب عامدة، وفي اللحظة التي كان الوحش فيها يتأهب
للاتقضاض على رأسها أطلقت عليه رصاصة أخرى، وكان

ستروجوف قد اقترب، وصار على مدى خطوات، فارتضى بكل قوته بين نادبة والدب، وبحركة باطشة بارعة من يده التي تحمل السكين طعن الدب طعنة نجلاء، فقلت جسمه الضخم من معدته إلى رقبته، ثم هرع ستروجوف إلى نادبة وقال لها: «لعلك لم تجرحي يا أخته؟»، فقالت: «لم أجرح يا أخي، فاطمئن».

في هذه اللحظة ظهر الصحفيان قادمين من وراء المنعطف، وكانا قد لمحا مناورة ستروجوف البارعة مع الدب، فلما أبديا دهشتهما من قوته وحيلته، أجابهما بقوله: «إننا في سيبريا نكون مضطرين إلى تجربة كل شيء»، وكانت هيئته والسكين المخضبة بالدم في يده، وقدمه فوق جثة ضحيته، رائعة حقا، فلم يملك جوليفيه نفسه من تأمل هذا المنظر في إعجاب، ثم اقترب من الفتاة محييا في احترام، وقبعته في يده، وكذلك صنع زميله بلونت، فردت الفتاة تحيتهما بانحناء قليلة، ثم ظهر الحوذي قادما يسوق الجوادين الهاربين، فألقى نظرة على الوحش الهائل الصريع، وأخذ ستروجوف يشرح له موقف الصحفيين المسافرين، ومشروعه الخاص بإعارتهما أحد جياده الثلاثة، فأبدى ترددا، ولكن جوليفيه وعده بأن يضاعف له أجره، فقبل.

وصعدت نادبة إلى العربة، وتبعها ستروجوف وزميلاه سيرا على أقدامهم حتى لحقوا بعربة الصحفيين عند أول تباشير الفجر، وكانت الأخيرة غارقة حتى نصفها

في الوحل، فجلس فيها راكباها وشد إليها الجواد، ثم استأنف الركب سيره إلى سفح جبال الأورال، ولم يكن في هبوطه مشقة تذكر .

وبعد نحو ست ساعات وصلت العربتان إلى «أكاترنبورج» دون أي حادث، وكان أول مخلوق شاهده الصحفيان على باب محطة البريد حوزي عربتهما الذي خلفهما في منتصف الطريق، وكان يبدو عليه أنه ينتظرهما، وبكل صفاقة مد إليهما يده طالبا «البقشيش»، وعلى شفتيه ابتسامة جريئة، وهنا بلغ الغضب ببلونت أقصى حدته، فسدد إليه قبضته بلكمة قوية بارعة روعيت فيها أدق قواعد الملاكمة، ولولا أن الآخر تداركها مسرعا لحطمت فكه، أما جوليفيه فقد انفجر ضاحكا من غصبة زميلة «البريطانية» ومد يده ببضع قطع من العملة وضعها في جيب الحوزي، إمعاناً في النكاية بزميله.

إهانة يتقبلها بطل!

تعد «أكاترنبورج» - جغرافيا - من مدن آسيا، لأنها تقع عند قاعدة السفح الشرقي لجبال الأورال، لكنها برغم ذلك تابعة لحكومة (بيرم) إحدى حكومات روسيا الأوروبية، وكان عدد سكانها قد تضاعف في تلك الفترة، نظراً إلى مهاجرة الكثيرين إليها، من الأقاليم المهددة بالغزو.

وكان الصحفيان يزمعان التوجه إلى «أيشيم» التي تبعد ستمائة وثلاثين فرسخاً عن أكاترنبورج، ومنها إلى حيث تقودهما حاسة البحث عن الأخبار في ميادين القتال، أما ستروجوف فكان همه الابتعاد جهد الطاقة عن مواطن الازدحام، لكنه كان مضطراً إلى مرافقة الصحفيين إلى أيشيم، لأنها الطريق الوحيدة التي يمكنه أن يسلكها إلى «أركوتسك»، ومن ثم التفت إلى الرجلين قائلاً: «يسرني أن أرافقكما في مرحلة من الطريق، لكنني أصارحكما بأنني أتعجل الوصول إلى أومسك كي أزور أنا وأختي أمنا هناك، ولا ندرى أنصل إليها قبل أن يحتل الغزاة المدينة أم لا؟ لذلك نعتزم ألا نتوقف في المحطات إلا للضرورة لتغيير

الجياد بأقصى سرعة، ثم نستأنف السفر ليل نهار».

فقال بلونت : «ونحن كذلك نعتزم أن نفعل مثل هذا»

فقال : «أذن، لا تضيعا وقتكما، استأجرا أو اشتريا عربية تصلح لبقية الرحلة»

وبعد نصف ساعة كان الصحفيان قد حصلا على العربية المطلوبة لرحلتها فركباها، بينما ركب ستروجوف ونادية عربتهما، وعند الظهر غادرت العربتان بلدة أكاترنبورج.

جلست نادية في العربية التي تنهب بها أرض سيبريا، أرض المنفي التي قضى على أبيها بالحياة فيها بعيدا عن وطنه الأصلي، وكانت خلال الطريق لا تكاد ترى شيئا من المناظر التي تتري أمام بصرها، فقد كان ذهنها مشغولا بالتفكير فيما وراء الأفق، على أنها في بعض الأحيان كانت تزايلها صورة أبيها لتطالعها بدلا منها صورة مرافقها الشاب، وأطوار صلتها منذ بدأت في القطار، ثم في مركز البوليس ببلدة نيجنى نوفجورود، وعلى ظهر السفينة التي عبرت بهما الفولجا، وأخيرا خلال تلك الليلة الرهيبة فوق جبال الأورال، حيث عرض حياته للخطر كي ينقذ حياتها.

وكانت فيما بينها وبين نفسها تشكر الله على أن قيض لها هذا الحارس اليقظ، والصديق الكريم الكتوم، وأحست بشعور من الأمان وهى بجانبه، تحت رعايته، وراحت قول لنفسها: «إن الأخ الشقيق ما كان ليكون أبر بها منه،

وهى لم تعد تخشى عقبة ما تعترض المرحلة الباقية من طريقها، بل إنها لواقعة من بلوغ هدفها الذى كان بعيد المنال.

أما ميشيل ستروجوف فكان يتكلم قليلا ويفكر كثيرا، وقد حمد الله بدوره على أن أتاح له في رفقة نادية تضليلا لأعدائه فيما يتصل بحقيقة شخصيته، وفرصة لعمل طيب يؤديه لها، وأحس نحوها بمزيج من الاحترام والميل أو الإعجاب بجمالها وبطولتها، وأدرك أنه بإزاء قلب من القلوب النقية النادرة التي يمكن الاعتماد عليها.

على أنه منذ وطئ أرض سيبيريا، كان يشعر بأن مرحلة الأخطار الحقيقية قد بدأت فيما يختص بمهمته، وإذا صح ما سمعه من الصحفيين وكان إيفان أوجارييف قد عبر الحدود، فقد وجب عليه أن يتبع في حركاته منتهى الحذر، لأن الظروف قد تغيرت وأمسى الجواسيس التتار منتشرين في أنحاء سيبيريا كالنمل، مما يعرض شخصيته للافتضاح، ومهمته للفشل، وحياته للضياع.

وفي الوقت نفسه، كان راكبا العربة الأخرى على عادتهما، جوليفيه يثرثر، وبلونت يتكلم بحساب، وكلاهما يفسر الأمور على طريقته، ويدون ملاحظاته أثناء الطريق، على قلبتها، في مفكرته الخاصة.

وفي كل محطة كان ركاب العربتين يتقابلان، ما عدا نادية التي لم تكن تغادر مقعدها إلا حين تتناول وجبه طعام في إحدى المحطات، وكانت تجلس إلى المائدة صامتة، لا تكاد تشارك في حديث، ويبدو أنها قد راق للصحفي الفرنسي جوليفيه، وقد أعجبه منها بوجه خاص نشاطها الصامت الذي تبديه رغم متاعب رحلة تتم في ظروف عسيرة شاقة!

ولم تكن مناسبات التوقف الاضطراري فترة طويلة تلقى ترحيبا أو انشراحا من جانب ستروجوف، فكان يستحث الركب على استئناف المسير ويتعجل استبدال الجياد في كل محطة، بل كان يتعجل تناول الطعام، برغم ميل الصحفي الإنجليزي إلى التباطؤ في الأكل، وكانت المناطق التي قطعها العربتان شبه مهجورة، كما كان الطقس جميلا، والسماء صافية، والحرارة محتملة، فسار الركب بسرعة هائلة في هذه الظروف الملائمة، وكان خلو الطريق من المارة راجعا إلى ظروف الغزو، فلم يكن في الحقول غير نفر ضئيل من فلاحي سيبريا، شاحبي الوجوه، وهنا وهناك بضع قرى قد أخلاها أهلها، إيذانا باقتراب جيوش الغزاة وفروا بقطعان أغنامهم وأبقارهم وحيادهم إلى سهول الشمال، بينما عمدت بعض قبائل "الكرجيز" إلى الانتقال بخيامها إلى ما وراء «أرتيش» و «أوبى» فرارا من إغارة التتار.

وكان من حسن الحظ أن إدارة البريد والتلغراف كانت منتظمة في المناطق التي لم يدركها الغزو، فكان نظار المحطات

يسهلون للمسافرين مهمة إبدال جيادهم ، وموظفو البرق ينقلون البرقيات التي تصل إليهم إلى أصحابها بدقة وسرعة ولا يؤخرونها إلا إذا اعترضت سبيلها برقيات حكومية، وهكذا استطاع الصحفيان الأجنبيان أن يزودا صحيفتيهما بالأنباء أولا فأول، وحتى هذه الساعة كانت رحلة ميشيل ستروجوف تسير بغير عراقيل، وفي ظروف ملائمة رجع أمله في أن يبلغ «أركوتسك» قبل جيوش «فيوفار خان».

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، بلغ الركب بلدة «تولوجيسك» الصغيرة، بعد أن قطع مرحلة طولها مائتان وعشرون فرسخا دون حادث يستحق الذكر، وهناك قضى أفراد الجماعة نصف ساعة في تناول الإفطار ثم استأنفوا سفرهم بسرعة كفلتها لهم بضع دراهم من فئة الكويك وعدوا الحوذيين بها.

وفي اليوم نفسه - ٢٢ يوليو - وصلت المركبان في الساعة الأولى بعد الظهر إلى «تيومين» ، وهى بلدة صغيرة أخرى يبلغ مقدار سكانها الأصليين عشرة آلاف نسمة، ازدادوا بسبب الحرب إلى الضعف! ، وهناك راح الصحفيان يطوفان بأنحاء البلدة سعيا وراء الأخبار، لكن ما استقياه هناك من أفواه المهاجرين لم يكن موثوقا به ، وكان بعض هؤلاء يؤكدون أن جيش فيوفار خان يقترب مسرعا من وادى أيشيم، وأن إيفان أوجارييف في طريقه للانضمام إلى الخان، إن لم يكن قد انضم إليه! ، ومن ثم فإن العمليات الحربية تسير مندفعة نحو

شرق سيبيريا بأقصى سرعة، أما الجيوش الروسية فقد اقتضى الأمر استدعاءها من المقاطعات الأوربية على عجل، وإن ظلت بعيدة عن نحو تومسك، على أمل شطر جيوش التتار.

وفي الساعة الثامنة مساء بلغت المركبتان بلدة «يالو توروفسك»، وبعد إبدال الجياد بسرعة استأنفتا سيرهما فعبرتا نهر «توبول» على ظهر «معدية».

وقرب منتصف الليل وصلا إلى مركز «نوفوسايمسك»، وهناك طرح المسافرون وراء ظهورهم آخر حدود الأورال، حيث بدأت في الواقع براري سيبيريا الحقيقية، السهول التي لا حد لها، والصحراء الشاسعة التي تكسوها الأعشاب، حيث تختلط الأرض والسماء عند الأفق، وتمتد أعمدة التلغراف على مدى البصر، على الجانبين، فيعبث الهواء بأسلاكها كما يعبث العازف بأوتار القيثارة، ولا يميز هذا الطريق نفسه من بقية السهل سوى الغبار الناعم الذي يثور تحت عجلات العربات.

وانطلق ميشيل ستروجوف وصحبه عبر السهول بأقصى سرعة، وقد راحت الجياد تلتهم الطريق، ولا تعوقها عقبة ما، وفي اليوم التالي كان الركب قد قطع مائة وسبعين فرسخا، ولم يبق بينه وبين «أيشيم» غير ثلاثين فرسخا، وهنا رأى ستروجوف أمامهم عربة من طراز عربات البريد لا تكاد تظهر وسط الغبار، فوضع نصب عينيه أن يدركها، وكان التراب الذي يكسوها يوحي بأنها قطعت مرحلة طويلة، وسياط الحوذي على ظهور جيادها تدل على أن

الجياد المسكينة متعبة، منهكة، وكذلك أدرك ستروجوف أن العربى لم تمر بطريق «نوفوسايمسك» ورجح أنها جاءت من طريق مجهول. واعتزم هو ورفاقه أن يسبقوها كي يظفروا قبلها بالجياد الأصيلة فى المحطة التالية

وفى اللحظة التى جاوز فيها ستروجوف عربى البريد لمح وجهها يطل من نافذتها، وصوتا يهتف به فى صوتٍ آمر: «قف!»، لكنه لم يقف، بل سبقت عربته وعربى رفاقه تلك العربى الثالثة، ولكن حوزيها راح يلهب ظهور جيادها بالسياط، فما لبثت قليلا حتى لحقت بالعربتين وحاذتهما، وهكذا احتدم السباق بين العربات الثلاث، واختفت أشباحها فى زوبعة عاتية من غبار عجلاتها جميعا، وعلت صيحات الركاب وسياط الحوزية تستحث الجياد.

لكن عربى ستروجوف احتفظت بأسبقيتها وظلت فى المقدمة، وبعد نصف ساعة لم يعد يبدو من عربى البريد فى المؤخرة غير نقطة تائهة وسط الغبار.

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء حين وصلت العربتان السابقتان إلى المحطة التالية، فى مدخل مدينة أيشيم. وكانت أنباء الغزو قد وصلت قبل ذلك إلى المدينة مهددة إياها باقتراب طلائع الجيوش التتارية الغازية، بل كانت الحكومة قد انتقلت منذ يومين إلى توبولسك، فلم يبق فى أيشيم موظف ولا جندي.

لم يكد ستروجوف يصل إلى محطة البريد حتى بادر بطلب إبدال الجياد، وتضاعف سروره بسبقه العربة الأخرى حين علم أن الجياد التي في المحطة لا تكفي لغير عربة واحدة.

أما الصحفيان فكانا قد وصلا إلى غايتهما، حيث اعتزما البقاء في أيشيم، فلم تكن بهما حاجة إلى جياد، بل إنهما سلما عربتهما إلى ناظر المحطة، إذ لم تبق لهما حاجة إليها، وبعد عشر دقائق كانت عربة ستروجوف قد أعدت، فقال لرفيقيه الصحفيين:

— ما دمتما تعتزمان البقاء في أيشيم، فوداعا أيها الصاحبان، إذ يهمني أن أبرح المحطة الآن قبل أن تصل العربة التي سبقناها، تجنبنا لكل نزاع.

فكرر له الصحفيان شكرهما على ما قدم لهما من معونة كبيرة، وأعربا عن أملهما في أن يلقيه مرة أخرى في أومسك بعد أيام، ثم تمنيا له رحلة موفقة.

وفيما هما يضافحانه مودعين، سمع في الخارج ضجيج عربة قادمة، وبعد لحظة فتح باب الحانة على مصراعيه ودخل رجل يرتدي الزي العسكري، في نحو الأربعين من العمر، طويل القامة، عريض المنكبين، كثيف الشاربين، يتدلى من منطقتة سيف فارس ويمسك في يده سوطا قصيرا، وابتدر ناظر المحطة قائلا في لهجة آمرة، شأن من ألف أن يصدر الأوامر: «أريد طقما من الجياد».

فأجابه الناظر قائلاً: «آسف يا سيدي، لم يبق عندي جياذ الآن!»

فعاد الضابط يقول: «لكنني لابد لي من جياذ الآن!»

فكرر ناظر المحطة أسفه مؤكدا استحالة إجابة هذا الطلب، ولكن الضابط لم يقتنع، وقال له: «إذن: لمن تلك الجياذ المسرجة في العربة الواقفة في الخارج؟».

فأشار الناظر إلى ستروجوف وقال: «إنها تخص هذا السيد المسافر يا سيدي»

فألقي الضابط على ستروجوف نظرة خاطفة، وواصل كلامه قائلاً: «فلتحل هذه الجياذ، لتسرج في عربتي فوراً!».

وهنا تقدم ستروجوف حتى وقف أمام الضابط المتعجرف، وقال له في هدوء: «هذه الجياذ قد حجزت لي»

فقال: «هذا لا يهمني، إنها لازمة لي، وليس لدي وقت أضيعه!»

فقال ستروجوف: «وأنا كذلك ليس لدي وقت أضيعه!»

وكانت نادية واقفة بجانب ستروجوف، محتفظة بهدوئها مثله، لكن قلقا غامضا من تطورات الموقف كان يعتمل في أعماقها، بينما التفت الضابط إلى الناظر قائلاً في لهجة تهديد: «فلتحل الجياذ من هذه العربة وتسرج في عربتي فوراً!».

ولم يدر الناظر الحائر من يطيع ، ونظر إلى ميشيل ستروجوف بوصفه صاحب الحق في مقاومة ذلك العدوان الصارخ ، وتردد هذا هنيهة ، إذ كان لا يريد إبراز جواز المرور الخاص الذي يحمله ، وفي الوقت نفسه لم يرد أن يتنازل عن جياده فيؤخر سفره ساعات هو في أمس الحاجة إلى الانتفاع بها.

وتطلع الصحفيان إليه ، وهما على تمام الأهبة لمعاونته إذا استنجد بهما ، لكنه اكتفى بأن قال لغريمه في لهجة حرص على ألا تتجاوز حدتها ما يمكن أن يصدر من تاجر عادي من أركوسك : «إن جيادي سوف تظل في عربتي»

وعندئذ اقترب منه الضابط فوضع راحته على كتفه وصاح به : «إذن أنت لا تريد التنازل عن الجياد؟» ، فأجاب دون أن يزايله الهدوء : «كلا!»

فقال الضابط : «حسنًا ! إنها إذن ستكون من نصيب من يستطيع منا مغادرة هذا المكان حيا ، هيا دافع عن نفسك» ، قال ذلك واستل سيفه من غمده في عنف ، ووقف على أهبة النزال ، فألقت نادية بنفسها في وجه ستروجوف ، وتقدم الصحفيان منه في ترقب وفضول ، أما هو فعقد ذراعيه فوق صدره وقال للضابط في بساطة : «لن أنازلك».

فبغت الضابط وقال : «لن تنازلني؟»

قال : «نعم ، لن أنازلك».

وما كاد ستروجوف يتم عبارته حتى كان الضابط قد أهوى بسوطه على كتفه بسرعة قائلا في تحدٍ: «حتى بعد هذا؟».

فشحب وجه ستروجوف، وارتفعت يدها كأنه يهيم برد تلك الإهانة الصارخة، لكنه سرعان ما قمع انفعاله جاهدا وأطرق مفكرا.!

إن المباراة معناها احتمال أن تفسد مهمته كلها، لا أن يتأخر فقط، وخير له إذن أن يتأخر بضع ساعات، ولكن كيف يبتلع هذه الإهانة؟!.

وعاد الضابط يصيح به في فظاظة وحدة: «ألا تريد أن تنازلني بعد أيها الجبان؟!»

فاكتفى ستروجوف بأن رفع رأسه ونظر إلى غريمه في هدوء ثم قال: «كلا!»

وبادر الضابط بالخروج قائلا: «إذن صارت الجياد لي!»، وتبعه الناظر وهو يهز كتفيه ويحدج ستروجوف بنظرة استنكار واضحة، وكذلك صنع الصحفيان، فحييا ستروجوف تحية فاترة وانسحبا من الردهة يضربان كفا بكف دهشة من أمر هذا الشاب الذي شاهدها يصارع الدب بسكينه، ثم ها هو ذا يجبن عن منازلة رجل أهانه بلا أدنى مبرر.

وبعد لحظة، سمعت قرقعة عجالات وصدى سوط يؤذن برحيل مركبة الضابط بأقصى سرعتها، بينما خلت

ردهة المحطة إلا من نادية التي بقيت صامتة مطرقة،
وستروجوف الذى ما زال يرتجف انفعالا ، وقد عقد ذراعيه
على صدره، وعلت وجهه حمرة لا تمت بسبب إلى الخجل
أو العار.

ولم تشك نادية في أن سببا وجيها لابد أن يكون هو الذى
أجبر الفتى على أن يتلقى تلك الإهانة الصريحة على هذا
النحو المزري، فاتجهت نحوه ومدت إليه يدها - يدها كما
فعل معها في قسم بوليس نيجنى نوفجورود - وهى تغغم
قائلة: «يدك أيها الشقيق»، وفي حنان الأم، مدت أصبعها
ومسحت في رفق دمة انحدرت من عين الشاب.

الواجب قبل كل شيء !

رجحت نادبة أن دافعا خفيا هو الذى سيطر على جميع تصرفات ستروجوف فجعله لا يملك حتى التصرف في شخصه، بل جعله يغضى برغم بطولته عما لحق به من إهانة جارحه» لكنها لم تطلب منه إيضاحا، وبقي هو صامتا طيلة تلك الأمسية، وحين صارحه الناظر باستحالة توفير جواد لعربته قبل صباح اليوم التالي، قبل على مضض أن يعد الرجل له ولرفاقته غرفتين يقضيان فيهما ليلتهما!.

ورحبت نادبة في سرها بهذه الفرصة التي تتيح لها قسطا من الراحة التي حرمت منها طويلا، وبرغم حرصها على عدم الابتعاد عن مرافقها وجدت نفسها مضطرة إلى المبيت في غرفة مستقلة، ولما حان الوقت لذهابهما إلى الفراش، ودعته متممة بعبارات مقتضبة، ثم مضت إلى حجرتهما!.

أما هو فلم يجد النوم إلى عينيهِ سبيلا طول ليلته، وكانت ذكرى السوط الذى مس كتفه تلسع نفسه كالنار المحترقة، وحينما فرغ من صلاة المساء أضاف مغمما : «من أجل الوطن والقيصر».

وكان فكره كله منصرفا إلى الوسيلة التي تمكنه من الوقوف على شخصية ذلك الضابط الذى تحداه، ومن أين جاء، وإلى أين ذهب، وأخيرا دعا إليه ناظر المحطة، فلما جاء هذا ووقف أمامه متعاليا متسائلا عما يريد منه، سأله: «أمن هذا الإقليم أنت؟»، فأومأ الناظر برأسه موافقا، وعاد هو يسأله: «أتعرف الرجل الذى اغتصب جيادي؟» فقال «كلا...».

قال: «ألم تره من قبل؟»

فقال: «لا...».

قال: «ومن تحسبه يكون؟».

فقال: «لا شك في أنه سيد اعتاد أن يأمر فيطاع!».

وفي صبيحة اليوم التالي، ٢٤ يوليو، شدت إلى عربة ستروجوف ثلاثة جياد قوية وانطلقت به وبصاحبه مودعة «أيشيم»، وفي كل محطة تالية كان ستروجوف يتبين أن الضابط قد سبقه بمرحلة طويلة، وفي الساعة الرابعة مساء كان عليهما أن يعبرا نهر أيشيم، وكان هذا أصعب كثيرا من عبور نهر توبول، واستغرق ساعتين كاملتين.

ومن أفواه الملاحين وقف ستروجوف على آخر أنباء الغزو، فعلم أن بعض كشافة جيش «فيوفار خان» قد ظهروا على ضفتي النهر، في المنطقة الواقعة في حدود

حكومة توبولسك، وأن أومسك باتت مهددة، وأن الأنباء تنري عن التحام جيوش سيبريا وجيوش التتار على حدود بلاد الكرجير، انتهى في غير صالح الأولى، مما حمل سكان المناطق المجاورة على المهجرة منها فرارا من الغزاة.

وتحدث الرواة عن فظائع ارتكبتها الغزاة، بين نهب وسلب وحرق وقتل وسرقات، وهتك أعراض.

وكان أخشى ما يخشاه ستروجوف أن يعوقه انقطاع المواصلات عن الوصول إلى أومسك قبل فوات الأوان، فيقضى بذلك على أمله في أن يسبق طلائع التتار التي تجتاح وادي، «أرتيش» في الطريق إلى أركوتسك.

ولم تكد «المعدية» تصل بالعربة إلى الضفة اليمنى للنهر حتى أستاذف ستروجوف رحلته بأقصى سرعة في براري سيبريا، وكان قد لزم الصمت منذ غادر محطة أيشيم، مع حرصه على أن يوفر لنادية كل وسائل الراحة في تلك الرحلة المضنية، وإن كانت هي لم تشك أو تتذمر من شيء، بل ودت لو زودت الجياد بأجنحة تعينها على سرعة الوصول، بعد أن أيقنت بأن صاحبها أكثر منها تعجلا لبلوغ أركوتسك، على أنها لم تملك نفسها من التفكير في أن أمه التي تقيم بمدينة أومسك قد تتعرض لمخاطر جمة لو غزا التتار هذه المدينة، ولم تشك في أن هذا أهم أسباب القلق الذي يعانيه.

وسألته أخيرا «ألم تتلق أخبارا من أمك منذ بداية الغزو؟».

فقال: «لا .. يا أختاه، فقد تلقيت آخر خطاب منها منذ شهرين، لكنني لست قلقا عليها، فإنها قوية العزيمة صلبة العود، برغم تقدمها في السن، وهى تعرف كيف تواجه المتاعب».

فقالت له: «سوف أذهب معك لأزورها أيها الشقيق، وما دمت قد دعوتني أحتك فسأكون لها نعم الابنة!، لكن من يدري، لعلها غادرت أومسك؟»

فأجاب الشاب ساهما: «هذا محتمل يا نادية، وإنى آمل أن تكون قد لجأت إلى توبولسك، إنها تمقت التتار، وهى خبيرة ببراري سيبيريا ولا تخاف شيئا، فعسى أن تكون حزمت متاعها وهبطت على ضفة «ارتيش»، فما من بقعة من بقاع سيبيريا لم تجبها مع أبي يوم كنت أنا طفلا، نعم يا نادية، أرجو أن تكون أمي قد غادرت أومسك».

فسألته: «ومتى تنوي أن تراها؟»، فقال: «في عودتي»

قالت: «أتعني أنك لن تتخلف ساعة في الذهاب لتعانق أمك؟»، قال: «لن أفعل».

فبدت الدهشة في وجهها وسألته: «لماذا أيها الشقيق؟ أي شيء يعوقك عن هذا؟»

فتنهد وقال : «أتريدون أن تعرفي السبب يا نادية؟» إنه السبب الذى من أجله صبرت بل جبننت إزاء تلك الإهانة التي ...» ، وغلبه التأثر فسكت.

فقالت له نادية: «هدئ من روعك يا أخي.. إنى لأعلم أنك تحب أمك حبا جما صادقا، ولكن هناك عاطفة أخرى، لعلها أقدس، تسيطر عليك وتوجهك» وصمتت عند هذا الحد، احتراما لما فطنت إلى وجوده من سري أمر صاحبها .

وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي - ٢٥ يوليو - وصلت المركبة إلى محطة «تيو كالينسك» بعد أن قطعت مائة وعشرين فرسخا بعد «أيشيم»، ولأول مرة بدأ الحوزي يقيم العراقيل في سبيل مواصلة السفر، فزعم أن عصابات التتار تهاجم المارة في الطريق وتعرض حياتهم وأموالهم للخطر.

ولم يستطيع ستروجوف إقناع الحوزي اللعين بالمسير إلا بعد أن أغراه بالمال.

ولم يشأ في هذه المرة أيضا أن يستغل جواز مروره الرسمي.

وفي الساعة الثالثة مساء جاوزت العرببة «كولاتسينكاو» ولم يبق بينها وبين أومسك غير عشرين فرسخا، يتوسطها نهر «الأرتيش» الذى ترتفع مياهه في تلك الفترة من السنة ويشتد تياره إلى درجة تجعل عبوره محفوفا بالخطر، لكن الخطر

أيا ما بلغت درجته ما كان ليعوق ميشيل ستروجوف ونادية عن المضي قدما نحو هدفهما المرسوم بغير أدنى تردد.

واقترح الشاب أن يعبر النهر بالعربة وأحد الجياد، ثم يعود لأخذ نادية والجوادين الآخرين، تفاديا لخطر غرق المعديّة بهم في النهر إذا هم أثقلوها بحملهم جميعا مرة واحدة، لكن الفتاة أبت أن تؤخر الركب ساعة على الأقل، وهكذا هبط الجميع إلى «المعدية» بعد مجهود استغرق نحو نصف ساعة، وفي البداية انزلقت «المعدية» على صفحة الماء في سر نسبي.. ثم تعقدت الأمور، وتعذر على الملاحين مقاومة التيار في اتجاه مضاد، وفي سرعة مخيفة، على أن القوم جميعا ما برحوا يستعينون بالصبر والصلاة والشجاعة حتى نجوا من الخطر، وعادت المعديّة تمضي بهم نحو الضفة اليمنى في سهولة ويسر، حتى إذا لم يبق على الوصول إليها غير خمسة فراسخ أو ستة، حانت من ستروجوف نظرة إلى الخلف فإذا به يبصر بعض الزوارق الخفيفة وقد حملها التيار وانطلق بها في سرعة كبيرة على صفحة النهر، فارتسم القلق والتساؤل على جبينه، بينما سألته نادية: «ماذا هناك؟».

وقبل أن يجيبها، هتف أحد البحارة في فزع قائلا :
«التتار.. التتار..!».

والتفت الجميع فرأوا الزوارق منطلقة خلفهم، وفيها جنود من التتار المسلحين متأهبين للقتال، وكان واضحاً أن المعديّة أعجز من أن تغلّت من مطاردة الزوارق الخفيفة، السريعة، فعقد الفزع ألسنة البحارة، وشل تفكيرهم، فتركوا المجاديف تسقط من أيديهم، وعلا صراخهم وصياحهم وهم وقوف يتطلعون إلى مطارديهم بأبصار زائغة وقلوب واجفة.

على أن ستروجوف بقي على هدوئه ورباطة جأشه، وما لبث قليلاً حتى صاح بأولئك البحارة في صوت حازم قوى النبرات قائلاً: «أين شجاعتكم يا رفاق؟ هيا إلى مجاديفكم، إن النجاة تنتظركم هناك عند الشاطئ القريب، بل تنتظركم هناك أيضاً خمسون روبية منى»، قال هذا وهو يلوح لهم بكيس مليء بالروبيات، فسرعان ما عاد الملاحون إلى مراكزهم واستأنفوا نشاطهم، لكن اليأس ما لبث أن عاودهم حين ازداد المطاردون قرباً منهم، فتخاذلت المجاديف في أيديهم وأدركوا عقم أية محاولة لتجنب الالتقاء بالأعداء، أو الاصطدام بهم، وإلا فهل يعقل أن يدعم هؤلاء يمرون بسلام، بغير أن يتعرضوا لهم بسوء؟، هذا أمر بعيد الاحتمال، ولا بد من توقع كل شيء من التتار الغزاة الأوغاد.

وقال ستروجوف لمرافقته: «لا تخافي يا نادية، ولكن استعدي لكل شيء»، فقالت: «إنني مستعدة».

فقال : «ولتكن ثقتك بي كاملة، فلا يخالك أي تردد
إذا طلبت منك أن تلقي بنفسك إلى النهر»

فقالت : «إني لعلی ثقة كاملة بك منذ عرفتك أيها الشقيق».

ولم يعد يفصل التتار عن « المعدية » أكثر من مائة قدم..
وكانوا فرقة من جنود بخارى يقومون برحلة استطلاعية إلى
أومسك، وبقيت أمام الناقلة بضع أقدام كي تبلغ الشاطئ،
فضاعف الملاحون من جهدهم.. وانضم ميشيل ستروجوف
إليهم فتناول مجدافا وراح يعمل به بقوة خارقة للبشر، آه
لو أنزل المركبة على الشاطئ وأطلق لجياده العنان، إذن
لربما استطاع الإفلات من أولئك الأنذال، ولكن يبدو أن
المحاولة غدت عقيمة، وارتفع صياح الجنود التتار :
«سارين ناكيتشو!» وأدرك ميشيل ستروجوف مغزى هذه
الصيحة التي يطلقها قراصنة التتار في الحرب، وكيف ينبغي
أن يواجهها أعداؤهم بالانبطاح على وجوههم، وفي مثل لمح
الطرف اندفعت نحوهم موجة من الرصاص، أردت جوادين
من جياد العرب قتيلين، وفي اللحظة التالية كان أحد زوارق
التتار قد حاذى المعدية فهتف ستروجوف وهو يتأهب
للإلقاء بنفسه في النهر: «تعالى يا نادية!»

ولكن قبل أن تلحق الفتاة به كان هو قد تلقى هجمة
عنيفة بالرمح ألقت به في الماء فحمله التيار من فوره إلى بعيد،
وبعد أن لوح بيده فوق الماء لحظة اختفى عن الأنظار.

أما نادية فأطلقت صرخة مروعة وهمت بإلقاء نفسها في اليم وراءه، لكن أيدي الأعداء امتدت إليها بأسرع مما قدّرت، وسرعان ما حملوها إلى أحد زوارقهم.

وفي اللحظة التالية قتل الملاحون في المعديّة طعنا بالرماح، واستأنف التتار رحلتهم في مجرى نهر «أرتيش».

الأم . . والابن !

تعد «أومسك» عاصمة سيبيريا الغربية، أو النصف الأول من روسيا الآسيوية، لكنها مع هذا ليست أهم مدن الإقليم ولا أكثرها ازدحاما بالسكان، فإن تومسك تفوقها في هاتين الناحيتين.

وتتألف أومسك من قسمين أو بلدين، يقطن الأول حاكم الإقليم العام والموظفون الرسميون، ويقطن الثانية تجار سيبيريا ومن إليهم، ويبلغ عدد سكان أومسك حوالي اثني عشر ألف نسمة، وبرغم وسائل تحصينها فإنها لم تستطع أن تصمد طويلا أمام هجوم الغزاة الأشداء من التتار، ولم يكذبدا هجومهم عليها حتى اضطرت حاميتها المؤلفة من ألفي رجل إلى الانسحاب من المدينة السفلى التي يقطنها التجار إلى المدينة العليا التي يتحصن فيها موظفو الحكومة، وهناك حوصر الحاكم العام وضباطه وجنوده، فجعلوا من أومسك العليا شبه قلعة لازوا بحماها دون أن يخالجهم كبير أمل في أن تأتيهم نجدة قبل فوات الأوان.

وكان التتار الذين هبطوا مجرى نهر أرتيش يتلقون إمدادا متواصلة شد أزهرم وتضاعف من بأسهم، وكان يشرف على

توجيههم واستغلال مواهبهم محارب موهوب هو الكولونيل إيفان أوجارييف !.

كان إيفان يمتاز على زعماء التتار الذين يحركهم بأنه عسكري مثقف، خبير بفنّه، يجري في عروقه دم المغول، موروثا عن أمه التي كانت من أصل أسيوي، فكان ولوعا بالخدع والمكائد، ميالا إلى مجابهة الفخاخ واستكناه الأسرار المستعصية، وبحكم مكره وخبثه المتأصلين كان قديرا على التخفي والتنكر في أي هيئة يشاء.. فضلا عن قسوته البالغة التي جعلت له مركز الصدارة لدى فيوفار خان، وأهلته لأن يصبح ساعده الأيمن في حربه الوحشية الضروس.

وحين بلغ ميشيل ستروجوف ضفة «أريتش» كان إيفان أوجارييف قد غدا سيد «أومسك» المسيطر وراح يشدد الحصار على قسمها الأعلى، ملهوبا على الفراغ من أمرها كي يتجه صوب «تومسك» حيث يتجمع القسم الأكبر من جيوش التتار، وكانت جيوش فيوفار خان قد استولت على تومسك منذ أيام وتأهبت للزحف نحو أركوتسك، بعد أن دانت لها سيبريا الوسطى، فكانت هذه المدينة هي الهدف الرئيسي الذي يرمي إليه، وقد أعد لهذا خطة محكمة، هي أن يتقرب من الغراندوق منتحلا لنفسه اسما مزيفا ويظفر بثقته الكاملة، حتى إذا حانت الساعة الملائمة سلم المدينة والغراندوق نفسه إلى التتار، وبهذا لا تلبث سيبريا الأسيوية كلها أن تسقط في أيدي الغزاة.

وقد وصلت تفاصيل هذه المؤامرة إلى مسامع القيصر كما تقدم، فعهد إلى ميشيل سروجوف في مهمة إحباطها، على أن يخترق المناطق التي تم غزوها متخفيا حتى يصل إلى الغراندوق ويكشف له أمرها كي يأخذ حذره ويخف لحماية نفسه وبلاده مما دبر إيفان أوجارييف.

وها قد نجح ستروجوف في الشرط الأول من مهمته، ولكن هل يقدر له أن يقوم بالشرط الباقي منها - وهو الذي يتوقف عليه كل شيء؟.

إن الضربة التي أصابته من زورق التتار في عرض النهر لم تكن ضربة قاتلة، وقد أفلح في السباحة متخفيا جهد الطاقة حتى بلغ الضفة اليمنى، وهناك سقط مغشيا عليه فوق الأعشاب، وحين عاد إلى وعيه ألقى نفسه في كوخ أحد فلاحي «الموجيك» وكان هذا قد عثر به فحمله إلى مثواه حيث عني بأمره، وسأل الشاب نفسه وهو يتبين ما حوله: «ترى كم مضى عليّ هنا في ضيافة هذا السيد الشجاع؟» وتفرس في منقذه فإذا هو شيخ ذو لحية كثيفة، يشع العطف من نظراته، وقبل أن يوجه إليه أي سؤال بادره الشيخ من تلقاء نفسه فقال: «لا تتكلم يا بنى، لا تتكلم.. إنك ما زلت ضعيفا، ولسوف أشرح لك أين أنت وكل ما حدث منذ حملتك إلى هنا».

وأخيرا قص عليه الشيخ الفلاح تفاصيل معركة النهر التي شهدتها من البر، وهجوم التتار، وغرق المركبة، ومذبحة الملاحين، لكن الشاب لم يكن يصغى إليه، وإنما تحسس بيده موضع رسالة الامبراطور التي كان يخفيها في ثيابه، فلما وجدها في مكانها عاوده شيء من الاطمئنان، ولكن بقيت أشياء أخرى كانت تقلقه، والتفت إلى الشيخ قائلاً: «كنت معي فتاة هي..»

فقاطعه الشيخ وقد أدرك ما يعاينه الفتى من انزعاج قائلاً: «إنهم لم يقتلوا وإنما أخذوها معهم في زورقهم الذى واصل رحلته في اتجاه مجرى النهر، ولعلها الآن أسيرة يضيفونها إلى غيرها من الأسيرات اللواتي يقتادونهن إلى تومسك!»

لم يستطع الشاب أن يعلق بكلمة، وإنما وضع راحته على موضع قلبه كي يتحسس ضرباته العنيفة، ولكن عاطفة الواجب برغم هذا بقيت تسيطر على روحه كلها، فسأل مضيفه الشيخ: «أين أنا الآن؟»

قال: «على الضفة اليمنى من النهر، على بعد خمسة فراسخ فقط من أومسك»

— ما نوع الإصابة التي تلقيتها والتي جعلتني أغيب عن صوابي هكذا؟. إنها ليست طلقة نارية؟

— كلا، إنها ضربة رمح على الرأس، وقد أوشكت أن تندمل، وبعد بضعة أيام من الراحة تستطيع أن تواصل

رحلتك، لقد سقطت في النهر على أثر إصابتك لكن
التتار لم يستطيعوا أن يصيبوك في الماء وقد ظل كيس
نقودك في جيبك سليماً.

مد ميشيل ستروجوف يده إلى الشيخ، وبمجهود عنيف
استطاع أن يعتدل في جلسته، ثم سأله مرة أخرى: «كم من
الزمن أقمت عندك هنا أيها الصديق؟». فقال: «ثلاثة أيام»
فعض على شفتيه حسرة وقلقا وأسفا على ضياع هذه
الأيام الثلاثة التي قضاها غائبا عن الصواب، ثم التفت إلى
الشيخ وسأله: «أعندك جواد تبعية لي؟»
فقال: «الشيخ: أتريد الرحيل؟».

قال: «نعم.. في هذه الساعة»

فهز الشيخ رأسه أسفا وقال: «ليس عندي جواد ولا
عربة يا بني.. إن التتار لا يخلفون وراءهم شيئا!».
فقال ستروجوف: «إذن، أذهب ماشيا إلى أومسك للبحث
عن جواد!»

فقال الشيخ: «إنك متعب، ويحسن أن تستريح وقتنا
آخر قبل أن تستأنف سفرك».

فقال: «لا أستطيع الانتظار ساعة واحدة!»

وهنا أدرك الشيخ عقم أية محاولة للدخول مع الشاب في مناقشة لإرجاعه عن عزمه ، فقال له مستسلما :

— إذن أصبحك بنفسى.. فما يزال في أومسك عدد كبير من الروسيين وفي الإمكان أن تندس بينهم بغير أن يلحظك أحد»

— فلتكافئك السماء أيها الصديق على ما فعلته من أجلى.

— إن الحمقى وحدهم هم الذين ينتظرون مكافأة على الأرض .

وخرج ميشيل ستروجوف من الكوخ، وحين شرع في المشي أصابه دوار كاد يسقطه على الأرض، لولا أن خف الشيخ لنجدته.. لكن الهواء الطلق ما لبث أن أنعشه، وإن أحس بأثر الصدمة التي تلقاها على رأسه، والتي حماه من شدتها غطاء الرأس المصنوع من الفراء، الذى كان يرتديه وقت الحادث، على أنه ما كان ليعبأ بإصابة بسيطة أو يدعها تعوق نشاطه، وهو الذى عرف بقوة مراسه، ولا سيما أنه كان يضع نصب عينيه أن يبلغ أركوتسك، وأن يمر بأومسك دون أن يتوقف فيها ساعة.

وقال لنفسه وهو يشرع في المسير: «فليحفظ الله أُمى ونادية!، وإن يكن ليس من حقي أن أفكر فيهما الآن!». .

ولما وصل ومعه مرافقه الشيخ إلى الحي التجاري في أومسك السفلى، لم يجد صعوبة في دخولها برغم أنها كانت

محتلة عسكريا.. وكانت ملأى بآثار التخريب والنهب والسلب التي أحدثتها بها جيوش فيوفار خان، وقد انتشر الجنود التتار بكثرة في شوارعها وميادينها، ولكن بدا كأن يدا حديدية قد أخضعتهم لنظام صارم لم يألوه من قبل، وكانت أومسك بالنسبة لهم محطة مؤقتة يستريحون فيها بعض الوقت ثم يستأنفون حربهم الهمجية، مفضلين سهول سيبيريا الشرقية الغنية بأراضيها الخصبة ومدنها العامرة بما يستحق السلب والنهب.

وكان القسم الأعلى من أومسك ما زال مستعصيا على التتار وعلى رأسهم إيفان أوجارييف، برغم الهجمات العنيفة التي شنوها عليه، إذ صدها الروس بشجاعة وبراعة فائقتين، وهكذا ظل العلم الروسي الملون يخفق فوق أبراجها وقبابها العالية، فحياه ميشيل ستروجوف ومرافقة الشيخ في كثير من الفخر والزهو.

وكان ستروجوف يعرف المدينة جيدا، فاستطاع صاحبه الشيخ أن يسيرا متجنبين الشوارع المطروقة، برغم أن أحدا في المدينة لم يكن ليستطيع معرفة شخصيته، عدا أمه العجوز، وأحس بشعور من الألم لعجزه عن زيارتها وفاءً بقسمه للقيصر وعهده الذي قطعه على نفسه بألا يحاول رؤيتها خشية أن يفتضح أمره، وهكذا لم يبق في طوقه غير أن يتمنى لها الخير من صميم قلبه داعيا ربه أن يرعاها، ولكن ترى: أهى ما زالت في أومسك؟ أم أنها فرت إلى

بقعة آمنة في براري سيبريا التي تعرف خباياها جيدا؟!.

وكان الفلاح الشيخ يعرف ناظرا لإحدى محطات البريد لا يحجم عن تأجير الجياد والعربات أو بيعها لمن يدفع له ثمنا مغريا، فطلب منه ستروجوف أن يقوده إليه، وفيما هما يسلكان إليه شارعا ضيقا وقف ميشيل ستروجوف فجأة في مكانه ثم ارتد ملتصقا بأقرب جدار إليه، فبغت الشيخ وسأله في دهشة : «ماذا بك يا بنى؟».

فلم يجب واكتفي بأن وضع أصبعه على فمه مشيرا إليه أن يصمت وفي تلك اللحظة خرجت فصيلة من جنود التتار من الميدان الرئيسي وعرجت إلى الشارع الذى سلكه الرجلان، وكان على رأس الفصيلة - المكونة من نحو عشرين فارسا - ضابط يرتدى زيا بسيطا، وبرغم أن الضابط لم يكف عن أن يدير عينيه فيما حوله وهو سائر في الطريق فإن بصره لم يقع على الرجلين، اللذين أفلحا في الاختباء.

واتجهت الفصيلة في مشية عسكرية نحو الشارع الضيق، دون أن يأبه أفرادها بالأهالي الذين اصطفوا فورا على الجانبين كي يفسحوا للغزاة الطريق، وفي بضعة مواضع سمعت صيحات مكتومة من أفراد انهالت عليهم ضربات الرماح من الجند، وحين اختفت الفصيلة عن الأنظار سأل ستروجوف دليله، وقد كست وجهه صفرة الأموات: «من ذلك الضابط؟»

فأجاب الشيخ في همس ينم عن الكراهية: «إنه إيفان أوجاريف!»

فصاح في غيظ لم يملك إخفاءه: «أهو ذاك؟!».

ذلك أن إيفان أوجاريف لم يكن سوى الضابط المسافر الذى أهانه وتحدهه في محطة «أيشيم»، حين تنازعا بشأن الجياد.

وهنا فقط تبين ستروجوف في ملامح غريمه صورة البوهيمي الأحب الذى تبادل معه حديثا قصيرا في (نيجنى نوفجورود)، ثم سافر معه على ظهر سفينة واحدة غير نهر الفولجا.

ولم يخطئ ميشيل ستروجوف، فقد كان الرجال الثلاثة: شخصا واحدا، ففي ثياب الغجر التنكرية استطاع إيفان أوجاريف أن يندس ضمن رهط «سنجار» ويعبر إقليم نيجنى نوفجورود، حيث كان قد ذهب لبحث بين الأجانب الكثيرين الذين يجلبهم المعرض من آسيا الوسطى عن رجال موالين له يعينونه على إتمام خطته الجهنمية، وكانت «سنجار» ورهطها من الغجر خاضعة لأوامره، وقد أعانته المصادفة والجرأة فاستطاع الوصول إلى أومسك قبل غريمه بثلاثة أيام، ولولا الحادثان اللذان أعاقا ستروجوف في الطريق لاستطاع أن يسبق غريمه إلى أركوتسك.

ومهما يكن من شيء، فقد رأى ستروجوف أن يفر من وجه إيفان أوجاريف بأسرع ما يستطيع، وبأي ثمن، ومن ثم فقد عمد ودليله إلى اختراق المدينة حتى بلغا محطة

البريد، وفي عزم الشاب أن يغادر أومسك من خلال إحدى الثغرات متدثرا بالليل البهيم، ولم يكن ستروجوف بحاجة إلى شراء عربة كاملة، بعد أن انفصلت عنه نادية، وكان ذلك في صالح مهمته نظرا إلى استحالة العثور على عربة هناك في تلك الظروف، وهكذا قنع بجواد واحد كي يقطع على ظهره المسافة الباقية، ووجد الجواد المنشود، ولكن بعد أن دفع فيه ثمنًا فاحشا، وبعد دقائق - وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر - كان على تمام الأهبة للرحيل، لا يعوقه غير انتظار هبوط الليل كي يستعين به على التسلل من إحدى ثغرات المدينة.

ولما لم يكن ينبغي أن يظهر في شوارع أومسك في الفترة الباقية على حلول الظلام، فقد أثر البقاء في محطة البريد حيث تناول شيئا من الطعام، وكانت ردهة المحطة تموج حينذاك - شأن المحطات الروسية - بجماهير الأهالي القلقين الذين يبغون استطلاع الأنباء، وسرت بين الحاضرين شائعة مؤداها أنه ينتظر وصول فيلق من جيش موسكو إلى تومسك في أقرب فرصة لاسترداد المدينة من أيدي التتار أتباع فيوفار خان، فأرهدف ميشيل ستروجوف سمعه لكل ما يدور من الأحاديث، ولكنه حرص على عدم الدخول فيها، وفجأة سمع صرخة جعلت الدم يكاد يجمد في عروقه، صرخة تغلغلت إلى أعماق روحه، صرخة تقول في لوعة: «ابنى»، وإذا أمه العجوز «مارفا» واقفة أمامه وجها لوجه،

وابتسمت له وهى ترتجف، ومدت إليه ذراعيها، فنهض من مقعده وهم بأن يرتقى عليها.

لكن إحساسه بالواجب، وبالخطر الجدى الذى تتعرض له أمه ويتعرض له هو نتيجة هذا اللقاء الذى يؤسف له، أوقفه فجأة، وبلغ من سيطرته على أعصابه أن عضلة واحدة في وجهه لم تختلج، وكان الموجودون في ردهة المحطة نحو عشرين، لعل منهم الجواسيس الذين يعملون لحساب الأعداء، وأكثر أهل البلدة يعلمون ولا شك أن ابن مارفا ستروجوف يعمل في فرقة رسل القيصر، وعلى ذلك لم يتحرك ميشيل ستروجوف قيد أنملة، وعادت الأم تهتف به: «ميشيل»، فغمغم الشاب في جراحة: «من أنت، يا سيدتي الشجاعة؟»

— من أنا؟ أتسألني يا طفلي الحبيب؟ ألم تعد تعرف أمك؟
— أنت مخطئة يا سيدتي.. لابد أن شبها ما قد أحدث لك لبسا.
فاقتربت المرأة منه أكثر، وقالت له وعيناها في عينيه

— أأنت ابن بيير ومارفا ستروجوف؟

وود ميشيل لو دفع حياته كلها كي يستطيع أن يضم أمه الحبيبة إلى صدره، لكنه لو استسلم لعاطفته لقضى على نفسه وعليها وعلى مهمته، فأغمض عينيه ليتجنب اللوعة الموحجة التي بدت في نظرات أمه، وسحب يديه إلى جانبه

حتى لا يلمس اليدين المرتجفتين اللتين تتهافتان عليه ، ثم قال وهو يتراجع خطوات :

— لست أدري في الحقيقة ماذا تريدان أن تقولني يا سيدتي الطيبة — ميشيل.

— لست أدعى ميشيل ، ولم أكن يوما ابنك ، أنا نيقولا كوربانوف تاجر من أركوتسك

وغادر الردهة بغتة وصدى صيحات الأم يتردد في سمعه :
«ابنى ، ابنى».

وغادر الابن المحطة قبل أن يرى أمه وهى تتهاوى على مقعد هناك وهى كالمغشى عليها ، ولكن في اللحظة التي هم فيها الناظر بأن يخف لإسعافها ومض في وعيها خاطر مباغت : ليس من المعقول أن ينكرها ابنها ويتنكر لها ، وكذلك ليس معقولا أن تكون مخطئة في معرفته ، وإذن فهو ابنها لا محالة ، ولا بد أنه تعمد ألا يظهر ذلك قياما بواجبه ، نعم لابد أن أسبابا رهيبة دفعته إلى أن يتصرف على هذا النحو ، وأمام هذا الإدراك المباغت نهضت من مكانها متحاملة على نفسها وفي ذهنها فكرة واحدة : «هل فقدته دون أن أتنبه».

وحين سألوها عن جلية الأمر عمدت أن تجيب : «إنني أوشك أن أجن».

سوف ينتهى بي الأمر إلى أن أراه في كل مكان، إن عيني قد خدعتاني، إنه ليس ابني، ليس له صوته، فلاكف عن التفكير في الأمر».

ولكن لم تنقض عشر دقائق حتى أقبل على محطة البريد ضابط من التتار يسألها: «هل أنت مارفا ستروجوف؟»، فلما أومأت برأسها موافقة، أمرها بأن تتبعه، وقادها بخطى ثابتة إلى حيث مثلت في حضرة الكولونيل إيفان أوجارييف، ليستمع منها إلى تفصيل ما حدث، وكان قد ساورته الشكوك على أثر علمه بالحادث فور وقوعه وطلب أن يستجوب المرأة بنفسه.

وسألها بلهجة جافة: «اسمك؟».

قالت: «مارفا ستروجوف»

قال: «هل لك ابن؟».

قالت: «نعم»

قال: «أهو يعمل في فرقة رسل القيصر؟».

قالت: «نعم»

فسألها: «أين هو الآن؟».

قالت: «في موسكو»

قال: «ألا تأتيك أنباء منه؟».

قالت : « لم أتلّق أي نبأ منه منذ شهرين »

وهنا سألها : « من يكون إذن ذلك الشاب الذي دعوته ابنك منذ لحظات في محطة البريد؟ ».

فقالت على الفور : « إنه سيبيرى شاب حسبته هو ، وهذه هي المرة العاشرة لوقوعي في مثل هذا الخطأ منذ امتلأت المدينة بالأجانب ، يخيل إليّ إنني أراه في كل مكان » .
فقال : « إذن لم يكن ابنك ميشيل ستروجوف هو ذلك الشاب؟ » .

قال : « لا ، لم يكن هو مع الأسف يا سيدي؟ »

قال : « أتعلمين أيتها الشمطاء أنني أستطيع تعذيبك لكي تعترفي بالحقيقة؟ »

فقالت : « لقد ذكرت الحقيقة ، والتعذيب لن يجعلني أغير أقوالي »

فعاد يسألها : « إذن أنت مصرة على أن ذلك الشاب ليس ميشيل ستروجوف؟ »

فقالت : « نعم يا سيدي ، وما كنت لأنكر الحقيقة لو أنه كان ابني »

فحدها أوجاريف بنظرة شريرة ، ودار في ذهنه خاطر أزعجه ، لئن كان الشاب هو ميشيل ستروجوف ، وقد أنكر أمه كما أنها أنكرته أيضا ، فلا بد أن أسبابا خطيرة هي

التي دفعتهما إلى ذلك التصرف ، وإذن لا يبعد أن يكون نيقولا كوربانوف المزعوم هو ميشيل ستروجوف متنكرا باسم زائف كي يؤدي مهمة كلفه بها القيصر» ، ومن ثم لم يتردد إيفان في إصدار الأوامر بتعقب الشاب ، ثم أردف مشيرا إلى العجوز الواقفة أمامه : «ولتؤخذ هذه العجوز إلى تومسك» .

وبينما كان الجنود يقتادونها بوحشية ، أضاف وهو يصر على أسنانه : «عندما تحين الساعة ، سوف أعرف كيف أجعلها تتكلم ، هذه الحيزبون الشمطاء» .

في مستنقعات لابرابا

أحسن ستروجوف صنعا بمغادرة محطة البريد على الفور، اذ لم تنقض دقائق حتى أصدر إيفان أوجارييف أوامره إلى جميع السلطات في أومسك بالحيلولة دون خروج ميشيل من المدينة، لكنه في ذلك الوقت كان قد نفذ من إحدى ثغرات أومسك إلى العراء وراح ينهب البراري بجواده السريع.

كان ذلك في الساعة الثامنة من مساء ٢٩ يوليو، وكانت أومسك تقوم في منتصف الطريق بين موسكو وأركوتسك، ومن ثم كان في استطاعته أن يصل إلى هذه خلال عشرة أيام إذا أراد أن يسبق قوات التتار، ولم يبق لديه شك في أن لقاءه المشئوم بأمه قد فضح تنكره» وأن إيفان أوجارييف قد عرف أن رسولا من قبل القيصر قد غادر أومسك في طريقه إلى أركوتسك.

ولما كانت الرسالة التي يحملها على جانب كبير من الأهمية، فقد أدرك ميشيل ستروجوف أن غريمه سيبذل كل ما في وسعه كي يتخلص منه.

لكن الذى لم يعرفه، وما كان ليعرفه، أن أمه مارفا ستروجوف قد أخذت رهينة في يد أوجارييف، وأنها قد تدفع حياتها ثمنا لعجزها عن ضبط مشاعرها حين التقت بابنها وجها لوجه، وكان من حسن حظ ستروجوف أنه لم يعلم بهذه الحقيقة، وإلا ما كان في استطاعته أن يصمد لمثل هذه المحنة الجديدة.

واستحث ميشيل جواده بأقصى ما وسعه في لهفة محمومة، غير طامع إلا في شيء واحد، هو الوصول إلى أقرب محطة في أسرع وقت، كي يستبدل بجواده وسيلة أخرى أسرع منه.

وفي منتصف الليل كان قد قطع سبعين فرسخا، وتوقف في محطة «كوليكوفو» لكنه لم يجد هناك عربة ولا جوادا، فإن فصيلة من التتار كانت قد عبرت المنطقة فنهبته وسرقت أو صادرت كل ما وجدته سواء في القرى أو محطات البريد، على أنه استطاع أن يحصل بأقصى مشقة، على بعض الطعام له ولجواده، وقد اضطر إلى العناية به جهد طاقته نظرا إلى الظروف التي أرغمته على أن يلقي عليه كل اعتماده في بلوغ غايته، وفي أثناء ذلك، ورغبة في إطالة المسافة التي تفصل بينه وبين من قد يرسلهم غريمه للحاق به، لم يجد بدا من اختزال فترة راحته واستئناف سفره بعد ساعة واحدة من وصوله إلى تلك المحطة.

وحتى تلك اللحظة كانت الأحوال الجوية قد يسرت رحلة رسول القيصر، فدرجة الحرارة محتملة، والقمر يضيء الليل من خلال السحب، وهكذا، مضى ميشيل ستروجوف بسرعة الواثق من الطريق دون أدنى تردد أو شك أو تريث، وبرغم الأفكار الموجهة التي كانت تلح عليه، احتفظ بقوة العزيمة والروح المعنوية، واندفع نحو هدفه كما لو كان ذلك الهدف مرثيا عند الأفق.

وحين كان يتوقف لحظة عند منعطف من الطريق، فذلك ليتمكن جواده من أن يسترد أنفاسه، فكان يترجل عنه كي يريحه برهة وينبطح أرضا ليتسمع بأذنه ما قد تردده الأرض من صدى لركض الجياد التي قد تكون في مطارده، حتى إذا لم يسمع ما يحقق مخاوفه انتعش تفاؤله وانطلق من جديد يحدوه الأمل العريض.

وفي الساعة التاسعة من صبيحة ٣٠ يوليو جاوز ستروجوف محطة «توروموف» وألقى نفسه في إقليم مستنقعات «لابرابا» الذى يمتد مسافة ثلاثمائة فرسخ تتضاعف خلالها العوائق الطبيعية، لكنه كان يثق سلفا من أنه سوف يتغلب على تلك العوائق أيضا.

انطلق ستروجوف بجواده وسط البرارى المكسوة بأعشاب يبلغ ارتفاعها في بعض البقاع حوالى ستة أقدام، وكانت ترعى هذه الأعشاب قطعان لا أعداد لها من أغنام سيبريا،

والرطوبة والحرارة تتعاونان على إنبات تلك الأحراش ذات الارتفاع الجبار، وفيما هو يركض بينها كانت أسراب الطيور تفر من أمامه مذعورة إلى عنان السماء، وفيما عدا تلك العلاقة المميزة لم يكن الناظر من طريق المستنقعات الخارجي يستطيع أن يراه أو يلمح له أثرا، وكانت تتخلل المنطقة بضع مساحات مربعة يمكن أن يطلق عليها تجاوزا اسم «بحيرات»، وكان من العسير على المسافر في بعض المناطق أن يتجنب المياه الآسنة ومستنقعات الصلصال المتحركة وسطها، حيث كانت بعض المسافرين من الجنس اللطيف يعانون وهن يعبرنها في عرباتهن نوعا رهيبا من دوار البحر.

أما ميشيل ستروجوف فقد كان يركض جواده دون توقف سواء أكانت الأرض صلبة أم رخوة تميد تحت حوافر الجواد، وكان يقفز فوق الثلجات الفاغرة أفواهها في بقع شتى من الطريق، ويشق أمواج البعوض والحشرات التي تملأ الهواء فوق المستنقعات الراكدة، منطلقا كالشهاب الطائر، وأسعفه جواده الجموح الذي كأنما أدركته غضبة جنونية من فرط التعب والإرهاق فاندفع يطوى الطريق طيا في سرعة خارقة لعل حماسة السرعة تنسيه تعب الطويل، وبلغ من جموحه أنه كاد يعرض حياة راكبة للخطر لو لم يكن متمكنا من ظهره، بارعا في امتلاك صهوته، لا سيما في لحظات وقفاته الفجائية أو قفزاته العالية.

وما كان ليدور بخلد أحد أن منطقة مستنقعات لابرابا هذه، بحرّها اللافح وحشراتھا وهوامھا، تصلح مأوى لأية فئة من الناس، ولكن الواقع أنها لم تكن خالية من السكان، وكانت تبدو خلالها على مرمى البصر هنا وهناك بضع قرى متناثرة مأهولة برجال ونساء وأطفال وشيوخ قد ارتدوا جلود الحيوان وراحوا يرعون قطعاناً هزيلة من الأغنام والماشية، ولكي يحموها من لدغ الهوام كانوا يشعلون حولها مواقد من الخشب يغذونها بالوقود ليل نهار ويمتد دخانها سحباً تغطي رقعة شاسعة من الأرض المحيطة بالقرية.

وعندما أحس ميشيل ستروجوف أن جواده الذي أنهكه التعب يوشك أن ينهار فجأة، توقف في قرية من تلك القرى وجعل يدلك سيفان الجواد بالشحم الساخن كما هي عادة أهل سيبريا، فلما فرغ من ذلك أعد وليمة شهية من الكلاً للجواد، وبعد أن اطمأن إلى انتعاشه ذكر نفسه فتناول قطعاً من الخبز واللحم وشرب بضعة أقذاح من «الكفاس»، كي يستطيع أن يستأنف رحلته إلى أركوتسك بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر.

وهكذا، في الساعة الرابعة من مساء يوم ٣٠ يوليو، بلغ «إيلامسك» بعد أن قطع تسعين فرسخاً منذ «توروموف» وهناك صار لزاماً عليه أن يمنح جواده راحة ليلة كاملة، بعد أن تعذر عليه أن يجد جواداً غيره يكمل به رحلته.

وكانت إيلامسك بلدة صغيرة لم يصل إليها التتار الغزاة بعد، ولكنها بدت أشبه بالمهجورة، لأن غزوها كان سهلا من الشمال، وكان من الصعب نجدتها من الجنوب، ولذلك صدرت الأوامر بإخلاء محطتها ودور الحكومة والبوليس فيها، فنزع عنها موظفوها، في الوقت الذي هاجر فيه أهلها فارين إلى بلدة كامسك الواقعة في قلب منطقة مستنقعات «لابرابا».

واضطر ميشيل ستروجوف إلى الإذعان لحكم الظروف التي قضت بأن يبيت ليلة في إيلامسك، وذلك ليريح نفسه وجواده، وفي صباح اليوم التالي غادر البلدة في اللحظة التي لاحت فيها طلائع التتار على بعد عشرة فراسخ، وألقى بنفسه مرة أخرى في غمرة المستنقعات الآسنة، لكن الطريق الذي امتدت أمامه كان أيسر من الطريق الذي خلفه وراء ظهره، وإن يكن أكثر تعرجا.

وفي ظهر اليوم التالي - أول أغسطس - بلغ الشاب محلة «سباسكاو» بعد أن قطع مائة وعشرين فرسخا، وفي الساعة الثانية وصل إلى «بوكروفكاو» فاستراح فيها بعد أن عجز جواده المسكين عن حمله فرسخا واحدا آخر.

ثم اضطر إلى أن يقضى في المحلة الساعات الباقية من اليوم ثم الليلة كلها، وفي الصباح استأنف رحلته فوق أرض نصف مبللة، فبلغ كامسك في الساعة الرابعة مساء، بعد أن قطع خمسة وسبعين فرسخا أخرى.

وكانت معالم البلاد قد تغيرت ، فإن كامسك الشبيهة
 بجزيرة صالحة للسكنى تقع في مركز المستنقعات غير
 الصالحة ، لكنها بفضل ربيها من فرع ارتيش الذى يطلق
 عليه هناك نهير «توم» قد تحولت إلى سهل من الخضرة
 عامر بالخيرات ، ولم تكن حمى الهجرة التي أشعلها غزو
 التتار قد أدركت سكان هذه البلدة الصغيرة فأخرجتهم
 بدورهم منها ، ولعل هذا لأنهم حسبوا بلدتهم آمنة بحكم
 توسطها منطقة المستنقعات ، أو لأنهم حسبوا الوقت ما زال
 متسعا أمامهم للفرار حين يقترب منهم الخطر.

ولم يستطع ميشيل ستروجوف أن يزود هناك بأي نبا
 هام ، فقد كان على يقين من أن الحاكم لن يحجم عن
 القبض عليه لو عرف حقيقة أمره ، ومن ثم حرص على
 عدم الظهور في البلدة ، بل لقد ود لو يمكنه أن يصير من
 غير المرئيات ، ولا سيما بعد الدرس القاسي الذى تعلمه في
 أومسك ، ومن هنا أعتزم ألا يبرح الحانة التي يقيم بها قط.

وكان في وسعه أن يعثر في كامسك على عربة مريحة
 يستبدلها بجواده المتعب ، لكنه خشى أن يلفت شراؤه
 العربة أنظار ذوى الشأن إليه ، فرأى أن يبقى مختبئا في
 الحانة التي اختارها لقضاء ليلته.

وبعد أن اطمأن إلى العناية بجواده من حيث المأكـل
 والمشرب أوى إلى فراشه مليئا بالذكريات وأسباب القلق

والانزعاج، وقد تراءت له صورة أمه العجوز، كما تراءى له وجه «نادية» التي خلفها وراءه بلا حام ولا نصير، ثم تعاقبت على ذهنه ذكريات المهمة التي أقسم ليقومنها بها، والتي زاده اقتناعاً بأهميتها الخطيرة كل ما رآه منذ غادر موسكو، وحين وقع بصره على الخطاب المختوم بخاتم القيصر، وهو بلا شك يتضمن علاجاً لكثير من الشرور، وتحية عاطرة منه لشتى الأقاليم التي مزقتها الحرب، أحس برغبة ملحة في أن يهب من فراشه ينهب البراري نهبا ويقطع المسافة التي تفصله عن أركوتسك .

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي استأنف ستروجوف رحلته وفي عزمه أن يقطع الثمانين فرسخا التي تفصل بين كامسك وقرية «أوبنسك»، وبعد أن قطع عشرين فرسخا بلغ مستنقع (بارابا) الذي كانت تربته ما تزال غارقة تحت مياه عمقها نحو القدم، فكان عسيرا التعرف على الطريق .

لكن ستروجوف استطاع بفضل حذره الفائق أن يجاوز تلك المنطقة دون حادث ما، وحين وصل إلى أوبنسك ترك جواده يستريح فترة الليل، كي يستطيع النوم في اليوم التالي أن يجهز على المائة فرسخ التي فصله عن إيكولسكاو.

ورحل مع الفجر، ولكن من سوء الحظ كانت أرض المستنقع تزداد سوءا كلما تقدم خلالها، نتيجة الأمطار الغزيرة التي غمرتها في الأسابيع السابقة، وعندما وصل

إلى بحيرة «تشانج» قاسى الأمرين في عبورها مسافة عشرين فرسا، وحمد الله لأنه لم يستأجر عربة في محطة كامسك، فقد مر جواده خلال عوائق لم تكن أية عربة لتستطيع عبورها.

وفي نحو الساعة التاسعة من ذلك المساء وصل ستروجوف إلى إيكولسكاو حيث قضى ليلته، وفي تلك البلدة الضائعة وسط المستنقعات كان الناس مفتقرين إلى أنباء الحرب الحقيقية التي نجوا من ويلاتها.

ولكن العقبات الطبيعية كانت تؤذن بالتضائل في المرحلة التالية من الطريق، بحيث قدر ستروجوف أن ينتهى من أرض المستنقعات في نهاية اليوم.

وأخيرا، قرب الساعة الثالثة والنصف مساء، بعد أن جاوز ستروجوف محطة «كاجارتسك»، ودع آخر حدود إقليم مستنقعات «لابرابا»، وعادت أرض سيبريا الصلبة الجافة تردد وقع حوافر جواده السريع.

لقد غادر موسكو يوم ١٥ يوليو.. وها هو ذا في اليوم العاشر من أغسطس، وبقي أمامه كي يصل إلى أركوتسك ألف وخمسمائة فرسخ.

محاولة أخيرة

كان ميشيل ستروجوف محقا في خشيته أن يلقي خطرا في السهول الممتدة وراء مستنقعات (لابرابا)، فقد كانت آثار حوافر الجياد على أرض الطريق تدل على أن التتار مروا بها، وهم الذين يصح فيهم ما قيل في الترك من أنهم حيث يمرون لا ينبت عشب في المستقبل، وهكذا كان على ميشيل ستروجوف أن يأخذ جانب الحيطه والحذر الشديدين وهو يعبر تلك المنطقة، وكان الدخان المتكاثف في الأفق ينبئ بأن القرى والبلاد التي أحرقها التتار ما تزال مشتعلة، ولم يجد الشاب شخصا واحدا يقص عليه حقيقة ما حدث فقد كانت المنطقة مهجورة قفراء.

وبعد أن قطع فرسخين في ذلك الطريق المهجور، رمى بصره يمينا وشمالا بحثا عن بيت واحد يلقي فيه أهله، وأخيرا عثر على كوخ مختف بين الأشجار، والنار ما تزال مشتعلة فيه، فلما اقترب منه رأى على بعد خطوات من حطام البيت شيخا يحيط به صبية ينتحبون، امرأة - هي ابنة الشيخ وأم الصبية ولا شك - جالسة تحديق في بقايا

بيتها المحترق، وهى ترضع من ثدييها طفلا صغيرا بين ذراعيها، وكل شيء حول الأسرة التعسة حطام وخراب.

واتجه ستروجوف إلى الشيخ، وسأله: «أتستطيع أن تجيبني إلى ما أسأل :»

فقال له الشيخ: «تكلم».

قال : «هل مر التتار من هنا؟».

قال : «نعم»

قال : «ألم تعلم شيئا عن مصير مدينة كوليفان؟»

فقال : «ما دامت كوليفان لم تحترق بعد، فالتتار لم يدخلوها!»

فشكره ستروجوف، ثم ودعه ومضى بعد أن واساه ببعض عبارات العزاء، ووضع خمسة وعشرين روبية على ركبتى زوجته المسكينة.

وأستأنف ستروجوف رحلته مستحثا جواده، وهو شديد الحرص على أن يتجنب المرور على تومسك، وأن يمضى قدما إلى كوليفان حيث لم يصل التتار بعد، ثم يعبر نهر أوبى ويخرج عن طريق أركوتسك كي يدول حول تومسك.

وبعد أن استقر رأيه على تنفيذ هذه الخطة لم يعد لديه وقت يضيعه أو مجال للتردد، فلكز جواده وانطلق نحو الطريق المؤدى إلى الضفة اليسرى لنهر أوبى، وهى على بعد

حوالي أربعين فرسخا، وأخذ يتساءل : ترى هل هناك «معدية» تعبر به النهر أم أن التتار قد أتلفوا كل شيء، وعندئذ يتعين عليه أن يعبر النهر سابحا؟.

أما جواده فكان لابد من استبدال جواد آخر به في محطة كوليفان، وإلا نفق منه أثناء سيره، وكانت كوليفان في نظره بداية مرحلة جديدة من الطريق تتغير بعدها ظروف السفر.

وحل المساء، بعد يوم قائف، وفي منتصف الليل رانت على السهول ظلمة كاملة، وسكتت الريح منذ غربت الشمس، وساد الجو سكون شامل، لم يكن يسمع خلاله غير وقع حوافر الجواد الرتيبة على الطريق المهجور، وصدى كلمات التشجيع التي يخاطبه بها، وفي غمرة تلك الظلمة كان لابد من يقظة تامة وإلا خرج المسافر عن طريقة وضل في السهول، وقد تقدم ميشيل ستروجوف نحو غايته بأقصى سرعة في استطاعته، ولكن في حذر معقول، يعينه على ذلك بصره الحاد الذي يثقب الظلمة، وغريزة جواده التي يعرف بها الطريق، وفي بقعة معتمة توقف ميشيل برهة وترجل عن جواده كي يستوثق من الاتجاه الصحيح، وفي تلك اللحظة خيل إليه أنه يسمع همهمة مختلطة صادرة من ناحية الغرب، وكأنها دبيب بعيد على الأرض الجافة.

وبعد قليل، لم يبق لديه شك في أنه يسمع دبيب خطى منتظمة تضرب الأرض وراءه بنحو فرسخ أو فرسخي، فأرھف

سمعه بعد أن وضع أذنه على أديم الطريق، وهمس محدثاً نفسه: «إنها فرفة من الفرسان قادمة من طريق أومسك، وهى تسير بسرعة، لأن الضجيج يزداد، ولكن ترى هل هي من الروس أم التتار؟»، ثم عاد يرهف سمعه وقد تحقق أن القادمين فرسان يركضون بجيادهم، ولن تمضى عشر دقائق حتى يدركوه في موضعه إذ إن جواده لن يستطيع أن يسبقهم.

وقال ستروجوف لنفسه: «لو أنهم كانوا روسيين لكان من السهل أن أنضم إليهم، أما لو كانوا من التتار فينبغي أن أتجنبهم، لكن كيف أختبئ في هذا السهل المكشوف؟».

ونفض وراح يتفرس فيما حوله، فوقع بصره النافذ على كتلة من الظل لا يتبين حقيقتها في الظلام، على بعد خطوات منه إلى الأمام، إلى يسار الطريق، فقال لنفسه: «ها هنا أجمة، فلأخذ منها ملجأ أختبئ فيه، صحيح أنهم قد يفتشون المكان ويضبطونني ولكن ليس أمامي مجال للاختيار!»

وجر ستروجوف جواده إلى الأجمة التي لاحت لعينه النفاذة في الظلام، فلما بلغها وجدها صغيرة فيها أشجار ومستنقعات، فدخلها وأخذ يجوس خلالها حتى وصل على بعد أربعين خطوة إلى مجرى ماء يتعذر عبوره، فلم يجد بداً من الاختباء في مدخل الأجمة، مؤملاً أن تحول كثافة الظلام دون أن يراه القادمون، ما لم يفتشوا المكان بدقة.

وهكذا شد جواده إلى شجرة مظلة على الغدير، ثم عاد فاخْتَبَأَ هو خلف ثلة من الأعشاب والحشائش العالية، ولم يكد يفعل حتى لمح ضوءاً لامعاً يضطرب من بعيد، ثم اقترب الضوء وازداد انتشاراً فإذا هو صادر عن مشاعل تشق كبد الظلام.

وعند ذلك أجفل منفعلاً كي يختبئ في أكثف موضع من الأجمة، وحينما اقتربت الجياد من الأجمة بدأت تبطن من خطاها وتتباطأ، كأنما اعتزم الفرسان تفتيش الأجمة على ضوء مشاعلهم، واضطر ستروجوف إلى التراجع متجها نحو الغدير كي يغوص في باطنه إذا اقتضى الأمر ذلك مبالغة في الاختفاء.

وبلغت فصيلة الفرسان الأجمة، فتوقفت عن المسير، وترجل فرسانها، وكانوا حوالي خمسين فارساً، من بينهم عشرة يحملون المشاعل التي تضيء الطريق على نطاق واسع على أن ستروجوف أدرك من حركاتهم أنهم لا يفكرون في تفتيش الأجمة، وإنما توقفوا كي يريحوا جيادهم ويتناولوا بعض الطعام، فداخله غير قليل من الاغتباط والاطمئنان.

وبدأت الجياد ترعى الأعشاب الكثيفة التي تكسو الأرض، بينما انتشر الفرسان على مسافة طويلة من الطريق وراحوا يقتسمون المؤن التي يحملونها، واحتفظ ستروجوف بهدوء أعصابه، وراح يتسلل بين الأعشاب العالية بحثاً عن مكان يستطيع منه أن يرى ويسمع ما يدور.

كانت الفصيلة آتية من أومسك، وهى تتألف من فرسان يمتنون إلى أعرق سلالات التتار، ويشبهون المغول في شكلهم، وهم أقوىاء البنية طوال القامة أكثر من المتوسط، ذوو قسما صارمة متوحشة، ويضعون على رؤوسهم أغطية من جلد الأغنام الأسود، وفي أقدامهم أحذية صفراء عالية الكعب مدببة السن، من طراز العصور الوسطى، وعلى أجسامهم فراء مبطنة بالقطن، وحول خصورهم أحزمة من الجلد الأحمر، وكانوا مسلحين للدفاع والهجوم بخنجر وسيف وبندقية، وعلى أكتافهم معطف من الجوخ صارخ اللون.

أما جيادهم التي راحت تمرح في أرجاء المكان فكانت أصغر حجما من الخيول التركية لكنها تفوقها في القوة والجلد، ولا تعرف غير الركض السريع، وكان يرأس الفصيلة قائد له مساعد يصغره في الرتبة، وقد جلس الاثنان يدخان «البنج» وهو نوع من الحشيش المنتشر في أرجاء آسيا - ويتحدثان معا بلغة التتار، وكان ستروجوف يفهمها جيدا، ولم تمض لحظات حتى ضاعف الشاب من إرهاف سمعه لحديث الرجلين، فقد كانا يعنياهن حديثهما وقال كبيرهما لمساعد:

— لا يمكن أن يكون الرسول قد سبقنا بمسافة طويلة، كما أنه لا يمكن أن يكون قد سلك طريقا آخر.

فقال المساعد: «لا أحد يدرى أهو قد غادر» أومسك «أم لا؟. ولعله مختبئ في أحد بيوت المدينة!».

فقال القائد : «هذا ما نتمناه حقاً، ولو صح هذا لما كان للكولونيل أوجارييف أن يخشى وصول الوثائق التي يحملها الرسول إلى غايتها!»

— يقولون إنه من أهل سيبريا، أي أنه يعرف البلاد جيداً، فإذا كان الأمر كذلك فيحتمل أن يكون قد خرج عن طريق أركوتسك إلى طريق آخر، على أن يعود إليه في مرحلة تالية.

— على أية حال فإننا نكون أسبق منه، فقد غادرنا أومسك بعد اختفائه بساعة واحدة، وسلكنا أقصر الطريق وبأقصى سرعة، وإذن فهناك احتمالان:

إما أنه لم يغادر أومسك قط، وإما أننا سوف نصل إلى تومسك قبله فنقطع عليه الطريق، وفي الحالين لن يبلغ أركوتسك.

وهنا قفز قلب ميشيل ستروجوف بين ضلوعه، وأرهف سمعه بينما قال القائد لمساعدته: «نعم، إنها امرأة صلبة حقاً، وقد أصرت كل الإصرار على أن ذلك التاجر المزعوم ليس ابنها، ولكن الكولونيل أوجارييف لا يسمح لأحد بأن يخدعه، وسيعرف كيف يرغم الحيزبون الشمطاء على الكلام في الوقت المناسب».

وهكذا استمر الرجلان في حديثهما الحافل بالطعنات القاتلة لقلب ميشيل ستروجوف، لقد عرفوا أنه رسول القيصر، وأرسلوا فصيلة من الفرسان للحاق به وقطع الطريق عليه، والأفجع من ذلك أن أمه وقعت رهينة في أيدي التتار، وأن

إيفان أوجارييف القاسي يزمع أن يقسرها على الكلام حين يشاء، وابنها خير من يعلم أن السبيرة الباسلة لن تتكلم، وإذن فهي لابد ستدفع حياتها ثمنا لنجاته.

ولم يكن ستروجوف يتصور أنه يستطيع أن يمقت إيفان أوجارييف أكثر مما كان يمقته، لكن موجة من الكراهية العنيفة شبت الآن في قلبه أضعافا مضاعفة، فإن الآثم الذي خان بلاده يهدد الآن بتعذيب أمه.

وخلال الحديث الذي استمر بين الضابطيين أدرك ستروجوف أن قتالا عنيفا قد نشب في ضواحي «كوليفان» بين القوات الروسية القادمة من الشمال وقوات التتار، وأن جيشا روسيا صغيرا مؤلفا من نحو ألفي جندي يزحف الآن صوب تومسك، وأنه لو أشتبك مع جيوش (فيوفارخان) الجرارة فلن يكون مصيره غير الإبادة التامة، ثم إن طريق أركوسك قد بات كله في قبضة الغزاة، وأخيرا علم أن رأسه هو قد وضع في كفة ميزان، يقابلها على الكفة الأخرى مبلغ ضخ من المال، وأن الأوامر قد صدرت بالقبض عليه حيا أو ميتا، ومن ثم فإن الضرورة الملحة تقتضيه أن يسبق فصيلة مطارديه إلى طريق أركوتسك، وأن يعبر نهر «أوبى» قبلهم ولهذا ينبغي أن يفر قبل أن تنتهى فترة راحة الفرسان في العراء، وحين انتهى ميشيل ستروجوف إلى هذا العزم، شرع في تنفيذه فورا.

ولم يكن مقدرا أن تطول راحة الجنود أكثر من ساعة واحدة، برغم أن جيادهم لم تستبدل منذ غادروا «أومسك» وبرغم التعب الذي حاق بهم من فرط إنهاك أجسامهم طيلة الأيام الماضية.

وكانت الساعة حوالي الأولى صباحا، أي أنه ينبغي أن يستغل فترة الظلام الباقية قبل مطلع الفجر كي يتسلل من الأجمة التي يختبئ فيها ويواصل رحلته، لكن خطة كهذه تبدو مستحيلة، ومن ثم تريث الشاب برهة يفكر في جميع الاحتمالات، قبل أن يتورط في تصرف مبتسر، إن عبور الغدير الصغير أمر متعذر، وذلك نظرا لعمقه واتساع مجراه، فضلا عن أن الأرض التي تليه لينة يصعب معها الركون إلى فرار عاجل، ولو أن الأعداء شعروا به لأطلقوا النفير ولحقوا به فورا كي يعيدوه أسيرا مكبلا بالأغلال.

وإذن فليس أمامه غير طريق واحد، هو الطريق الرئيسي، عليه أن يتسلل إلى حيث ربط جواده، ويعبر به ربع فرسخ حتى يبلغ نهاية الأجمة، دون أن يحدث صوتا يلفت إليه الأسماع أو الأنظار، ثم ينطلق به في سكون محتما بالظلام حتى يبلغ ضفة نهر أوبى، وهناك يغلب أن تنهار قوى جواده المسكين، ولكن لا بأس، فهو يستطيع أن يعبر النهر سابحا أو في «معدية»، ثم يبحث لنفسه عن وسيلة عاجلة لاستئناف رحلته.

وكان في طبع ستروجوف أن الخطر يذكي نشاطه وشجاعته، عدا أهمية النتائج التي تتوقف على نجاحه في مهمته، فهناك حياته، ورسالة وشرف بلاده، وحياة أمه، وإذن فليس له أن يتردد لحظة أخرى.

وكانت الحركة قد بدأت تدب في معسكر الفصيلة، وأخذ بضعة من الفرسان يروحون ويغدون على حدود الطريق أمام الأجمة، بينما قبع الباقون ليستكملوا راحتهم، وقد تجمعت جيادهم شيئاً فشيئاً في الجزء الأوسط من الأجمة ففكر ستروجوف في الاستيلاء على أحد تلك الجياد، لكنه حدث نفسه بأنها لابد منهكة مثل جواده، وخير له إذن أن يعتمد على جواده الذي لم يخذله والذي أدى له خدمات جليلة، وهكذا زحف الشاب حتى وصل إلى الذي كان راقداً على الأرض، فربت جسمه وحدثه في رفق حتى جعله ينهض دون جلبه، وفي تلك اللحظة ساعدته الظروف إذ استهلكت المشاعل وقودها فانطفأت، وسادت ظلمة كاملة، فجذبته الشاب في هدوء وأدرك الجواد ما يراد منه فتبع سيده بغير أن يحدث أدنى صوت، ووضع ميشيل ستروجوف يده على غدارته، متأهباً لتحطيم رأس أول فارس من التتار يقترب منه، لكنه لحسن الحظ استطاع الوصول إلى الطريق العام بغير أن ينتبه إليه أحد.

وكانت خطته ألا يمتطي صهوة الجواد إلا بعد أن يقطع مسافة بعيدة ويجاوز منعطفاً يقع على بعد مائتي خطوة من الأجمة.

ولكن حدث في اللحظة التي كاد فيها يعبر سياج الأجمة أن جمح أحد جياد الفصيلة متجها نحو الطريق العام، فجرى صاحبه خلفه ليستعيده، وإذ ذاك لمح شبحا يبدو على ضياء الخطوط الأولى من الفجر، فصاح منذرا رفاقه، ولم يكذب هؤلاء يسمعون الصيحة حتى وثبوا وثبة رجل واحد وهرعوا إلى الطريق، فلم يجد الشاب بدا من أن يمتطي جواده وينطلق به بأقصى سرعة، وفي اللحظة التالية أحس برصاصة تخترق فراء معطفه، لكنه لم يدر رأسه ولم يجب على الطلقة، وإنما انطلق في اتجاه نهر أوبى، وكان لابد أن يتبعه أعداؤه فلم تمض دقيقتان حتى سمع جلبة الجياد المنطلقة في أثره، وأخذت تقترب منه شيئا فشيئا.

كان ضوء النهار قد بدأ ينتشر فيزيد الأشياء وضوحا، فأدار ميشيل ستروجوف رأسه إلى الوراء، وإذا هو يرى فارسا يجد في أثره ويقترّب منه بسرعة كبيرة، وعرف فيه مساعد قائد الفصيلة، فسدد نحوه فوهة مسدسه، ودون أن يتوقف أطلق عليه منه بيد ثابتة طلقة أصابت صدره فسقط يتدحرج على الأرض.

لكن الفرسان الآخرين لم يتراجعوا، بل كروا على الهارب دون أن يعبأوا بقتل مساعد قائدهم، وراحوا يستحثون جيادهم بمهاميزهم وأقدامهم ليختزلوا المسافة التي تفصلهم عن طريدهم، لكن هذا استطاع أن يظل نصف ساعة بعيدا عن مرمى أسلحتهم، وإن أحس بجواده يضعف تدريجيا حتى لقد

خشى أن يصطدم بعائق فيسقط الجواد ولا ينهض بعد ذلك. وكان النهار قد أشرق تماما، وإن لم ترتفع الشمس بعد، وهناك على بعد فرسخين على الأكثر بدا يظهر عند الأفق خط شاحب تحف به بضع أشجار متناثرة، إنه نهر «أوبى» الذى يجرى من الجنوب الغربى نحو الشمال الشرقى، وظل فرسان التتار يطلقون رصاصهم على ستروجوف وهم يطاردونه بغير أن يصيبوه، بينما ظل هو يطلق عليهم رصاص مسدسه فيصيب منهم في كل مرة فارسا يتهاوى على الأرض جثة هامدة، وسط صيحات الغضب والغیظ من رفاقه.

لكن تلك المطاردة لم تكن لتنتهي في صالح ستروجوف، فقد انهارت قوى جواده أخيرا وكاد يتوقف عن الركض، وفي الوقت الذى كانت فيه فرقة المطاردين لا تبعد عنه سوى خمسين خطوة إلى الخلف، وكان النهر في تلك الساعة مهجورا ليس فيه سفينة أو ناقلة تصلح لعبوره، فصاح ستروجوف يستحث جواده: «تشجع، هيا، محاولة أخيرة»، وهوى بالجواد في النهر الذى كان عرضه في تلك المنطقة نصف فرسخ، وكان التيار فيه قويا عنيفا بحيث يصعب عبوره، فلم يكن من سبيل لبلوغ الضفة الأخرى سباحة بغير بذل مجهود يقرب من المعجزة.

أما فرسان التتار فقد وقفوا على ضفة النهر مترددين في الأقدام على المجازفة، وفي تلك اللحظة تناول قائدهم بندقيته وصوبها إلى الهارب، الذى كان وقتئذ في عرض النهر، فأصابت الطلقة الجواد دون صاحبه، ولم يلبث أن غاص في قلب الماء تاركاً صاحبه يستأنف السباحة تحت الماء احتمالاً من رصاص مطارديه.

آيات . . وأغاني !

استطاع ميشيل ستروجوف أن يواصل السباحة تحت الماء حتى بلغ الضفة اليمنى لنهر أوبى، وهناك اختفى بين الأعشاب التي تكسوها حتى يسترد أنفاسه اللاهثة من فرط الإجهاد قبل أن يستأنف رحلته ماشيا، دون جواده الأمين الذى استقر في قاع النهر.

لقد وضع قدميه في أرض دمرها الغزو، ونهبتها طلائع الأمير فيوفار خان وما زال بينه وبين بلوغ غايته هول كبير، وهتف الشاب محدثا نفسه في حماسة برغم عوامل التثبيط المحيطة به من كل جانب: «سأصل وحق السماء، وليحفظ الله روسيا المقدسة!»

وبعد أن استراح قليلا، نهض متسللا حتى بلغ شجرة ليمون ضخمة فاستظل بظلها المريض، وهناك، فوق الأرض الصلبة، وجد الفرصة للتفكير في الخطة التي يتبعها، وكان أول ما يسعى إليه أن يتجنب مدينة تومسك التي يحتلها التتار، وأن يصل إلى محطة يستطيع أن يحصل فيها على

جواد يواصل به رحلته من غير الطريق المطروق، إلى ما بعد كراستويارسك على أقل تقدير، وبعدئذ يمكنه أن يسلك طريق أركوتسك العام دون أن يخشى شيئا، أما الآن فعليه قبل كل شيء أن يتجه شرقا.

وبعد مسيرة فرسخين في محاذاة مجرى نهر أوبى، برزت أمامه بلدة صغيرة تقع على مرتفع من الأرض، بها بضع كنائس ذات قباب على الطراز البيزنطي ملونة باللونين الذهبي والأخضر، تلك هي كوليفان، المصيف الذى يحتمي فيه موظفو وأهالي كامسك وغيرها من المدن القريبة من المستنقعات من قيظ بلادهم في الصيف، وكان ميشيل ستروجوف قد عرف من الأحاديث التي سمعها عفوا في الأجمة أن البلدة لم تقع في أيدي الغزاة، الذين صرفوا همهم إلى الاستيلاء على أومسك من اليسار، وتومسك من اليمين، مهملين البلدان التي تتوسطهما.

وكانت الخطة التي رسمها بسيطة منطقية، فهو بعد أن يصل إلى كوليفان قبل الفرسان الذين يطاردونه سالكين إليها الضفة اليسرى للنهر، يستطيع أن يجد الجواد والثياب وكل ما يحتاج إليه ثم يخترق السهول الجنوبية متجها إلى طريق أركوتسك.

وكانت الساعة حوالي الثالثة صباحا، وقد بدت ضواحي كومليفان هادئة هاجعة كالمهجورة فنزحوا عنها إلى الأقاليم الشمالية، فاتجه ستروجوف بخطى حثيثة صوب المدينة،

لكنه ما كاد يقطع خطوات حتى سمع دوي انفجارات بعيدة آتية من هناك، فتوقف برهة يتسمع الأصداء التي لم تكن أذنه لتخطئ فهمها وهمس لنفسه «إنها مدافع وطلقات بنادق، ترى هل اشتبكت الحامية الروسية مع جيش التتار؟ آه! ليت السماء تمكنني من أن أصل إلى كوليفان قبلهم!».

ولم يخطئ الشاب، إذ تنقض دقائق حتى ازدادت الانفجارات واقتربت شيئاً فشيئاً، وفي المؤخرة، إلى يسار البلدة، تكاثفت الأبخرة فوق الأرض، نتيجة طلقات المدفعية.

وعلى الضفة اليسرى للنهر توقف فرسان المطاردة في انتظار معرفة نتيجة المعركة الدائرة، وهكذا لم يبق أمام ميشيل ستروجوف ما يخشاه في هذا الصدد، فاستحث خطاه صوب المدينة، بينما كانت الانفجارات تتوالى وتتضاعف وتقترب، والأدخنة تتصاعد في الجو بفعل الريح، وكان واضحاً أن المقتتلين يتجهون مسرعين صوب الجنوب، وأن كوليفان سوف تهاجم في القريب العاجل، ولكن، ترى هل يدافع الروس عنها ضد الغزاة؟، فكر في هذا طويلاً بغير أن يصل إلى نتيجة يطمئن إليها.

وحين لم يبق على بلوغ كوليفان غير نصف فرسخ، سمع ستروجوف طلقات نارية متتابعة تتردد بين منازل البلدة، وتقوض برج إحدى الكنائس وسط سحب من الغبار واللهب

هل انتقل القتال إذن إلى داخل كوليفان؟ ومن ثم اشتبك الخصمان في صراع داخل المدينة، وهل من المناسب في هذه الحالة أن يبحث عن ملجأ يأوي إليه، أم أنه بذلك يعرض نفسه لخطر اعتقاله، وهل ينجح في الفرار من كوليفان كما فر من أومسك؟ كل هذا كان يتردد في ذهنه وهو يغذ السير إلى المدينة، مما جعله يتوقف قليلا، محدثا نفسه بأن يتجه جنوبا نحو قرية «دياشننسك» أو سواها، حيث يكون في وسعه أن يحصل على الجواد المنشود.

ولكنه ما لبث أن ترك ضفة النهر اليمنى واتجه رأسا إلى كوليفان، وكانت الانفجارات قد ازدادت عنفا، ثم شبت النيران بعد برهة في الناحية اليسرى من البلدة، فابتلع اللهب حيا كاملا من أحيائها، وهو ما زال منطلقا يعدو عبر السهول، محاولا الاحتماء في ظل الأشجار القليلة المتناثرة، وفجأة ظهرت إلى يمينه ثلة من الفرسان التتار، وهنا لم يستطع مواصلة الفرار في ذلك الاتجاه، وكان الفرسان يتقدمون بسرعة نحو المدينة، وبدأ من العسير أن ينجو منهم، لكنه لمح عند زاوية أجمة كثيفة من الأشجار منزلا منعزلا بوسعه أن يبلغه قبل أن يراه أحد، وسرعان ما خف إليه، فقطع المسافة التي تفصله عنه وهى حوالي نصف فرسخ، وما كاد يبلغه حتى تبين أنه مكتب تلغراف، يمتد منه سلكان إلى الغرب والشرق، وسلك ثالث إلى كوليفان ووقف يسأل نفسه: ترى هل هجر المكتب في الظروف الراهنة هذه؟

وهل يستطيع أن يلجأ إليه ، ويقضى ليلته فيه حتى يستأنف في الصباح اختراق السهول التي تهددها طلائع التتار؟.

ولم يطل به التفكير ، فاندفع صوب باب المبنى ودفعه بعنف ، فإذا في داخله شخص واحد ، هو موظف هادئ قابع خلف مكتبه ، ويبدو غير عابئ بكل الأحداث التي تجرى في الخارج .

وسأله ستروجوف في صوت حطمه الإجهاد : «ماذا تعرف عن الحالة؟»

فأجاب وهو يبتسم : «لا شيء!».

فقال : «إن الروس والتتار ملتحمون في معركة»

فأجاب الرجل هادئاً : «يقولون ذلك!».

فسأله : «ألا تعرف أي الفريقين انتصر على الآخر؟»

قال : «لست أدري!»

قال : «أليس الخط مقطوعاً؟»

فقال : «إنه مقطوع بين كوليفان وكراسنويارسك ، لكنه موصول بين كوليفان والحدود الروسية».

قال : «وهو للمخابرات الحكومية وحدها طبعاً؟»

فقال : «للمخابرات الحكومية في الوقت المناسب، وللجمهور حين يدفع الأجر، عشرة كوبيك عن كل كلمة ، متى تريد استخدامه يا سيدي؟»

وأوشك ستروجوف أن يجيب هذا الموظف الغريب بأن ليس عنده أية برقية يريد إرسالها، ولا يطلب غير قطعة من الخبز والماء، ولكن الباب فتح فجأة بعنف، فسكت وقد حسب أن التتار هجموا على المكتب وتأهب للقفز من النافذة، ولكنه تبين أن رجلين فقط هما اللذان دخلا، وليس على وجهيهما سمات الجنود التتار، بل كان أحدهما يمسك في يده برقية مكتوبة بالقلم الرصاص، تقدم بها متخطيا رفيقه نحو نافذة الموظف الجالس بلا حراك، وقد عرف ستروجوف فيهما شخصين ما كان يحسب أنه سوف يلتقى بهما بعد افتراقهم، إنهما الصحفيان: السيد جوليفيه وهاري بلونت، وقد عادا سيرتهما الأولى قبل المهادنة: غريمين متنافسين على التقاط الأخبار!.

كانا قد غادرا «أيشيم» بعد رحيله منها بساعات، لكنهما بلغا كوليفان قبله، برغم وحدة الطريق، بسبب الأيام الثلاثة التي فقدوها على ضفة نهر أرتيش، والآن، بعد أن اشتركا في المعركة الدائرة عند مشارف المدينة بين جيش الروس والتتار، وبعد أن هجرا كوليفان في الساعة التي تحولت فيها المعارك إلى صراع في الشوارع العامة، هرعاً إلى مكتب التلغراف كي يرسل برقية إلى صحفهما ؟.

وكان ميشيل خلال ذلك واقفا في ركن تخيم عليه الظلال، يرى منه كل شيء ويستطيع أن يسمع كل شيء، دون أن يراه أحد، وكان يتوق إلى معرفة أحوال المنطقة وهل ينبغي أن يمضى إلى كوليفان أم يتراجع عنها، واستطاع الصحفي الإنجليزي أن يسبق زميله إلى النافذة التي يجلس الموظف خلفها، ومد إليه يده ببرقية أحصى هذا كلماتها ثم قال: «عشرة روبيات عن كل كلمة، فكوم الصحفي أمامه هرما من الروبيات، وإذ ذاك بدأ الموظف يطير البرقية التالية وهو يتلوها بصوت مسموع: «جريدة الديلي تلغراف - لندن. من كوليفان، التابعة لحكومة أومسك بسيبريا - يوم ٦ أغسطس - اشتباك القوات الروسية والتتار، الطوابير الروسية تصد بخسائر فادحة، التتار يدخلون كوليفان اليوم، النار تشتعل في كنيسةتين، الروس يفرون من المدينة!»، وكان الصحفي الماكر يحشو البرقية بين كل عبارة وأخرى بفقرات وآيات من التوراة حتى يستطلع بمنظاره المكبر أنباء جديدة عن المعركة، كيلا يترك النافذة لزميلة الفرنسي إذا انقطع هو عن الإملاء، وكيفا تنفرد جريدته دون صحف فرنسا بأنباء الموقف.

لكن تأملاته بمنظاره المكبر طالت في النهاية، حتى فرغ الموظف من إرسال آخر كلمة من العبارة الأخيرة التي كتبها له، فصار من حق الصحفي الآخر أن يملي رسالته، وتلا الموظف نصها كآلاتي بعد الديباجة: «الروس يفرون من المدينة بعد هزيمتهم، الفرسان التتار يطاردونهم مطاردة عنيفة».

ثم شرع الصحفي يحشو البرقية بأبيات من أغان باريسية شائعة، انتقاما من زميله الماكر! .

حدة الانفجارات وعنفها، ثم زعزعة مبنى التلغراف هزة شديدة، فقد اخترقت جداره قنبلة أثارت عاصفة من الغبار والشظايا، وإذ ذاك توقف جوليفيه عن إملاء برقيته، وتناول القنبلة بيديه قبل أن تنفجر ثم طوح بها من النافذة، كان ذلك في أقل من دقيقة، ولكن لم تنقض خمس ثوان حتى انفجرت القنبلة في الخارج، فاستأنف جوليفيه إملاء رسالته لجريدته: «اخترقت قنبلة من عيار ٦ بوصات جدار مكتب التلغراف الذى أرسلكم منه، ونحن في انتظار قنابل أخرى من الطراز نفسه!». .

ولم يبق شك لدى ستروجوف في أن الروس قد طردوا من كوليفان، وإذن فقد باتت فرصته الأخيرة أن يقطع السهل الجنوبي، وفي اللحظة التي كان هو يفكر خلالها في هذه الخطة دوى انفجار هائل بقرب مكتب التلغراف وانقضت طلقات ناربية إلى داخله من النافذة فكسرت زجاجها، وأصيب الصحفي الإنجليزي في كتفه فسقط على الأرض، وإذ ذاك سارع زميله إلى انتهاز الفرصة لإملاء خبر جديد نصه: «سقط هارى بلونت مراسل الديلي تلغراف إلى جانبي، على أثر انفجار شديد بالمكتب!». .

وهنا التفت موظف المكتب إلى جوليفيه وقال له في هدوء: «لقد قطع السلك يا سيدى!»، ثم غادر نافذته، وتناول قبعته فنفض عنها الغبار وهو يبتسم، وخرج من باب جانبي لم يلاحظه ستروجوف من قبل!.

وفي اللحظة التالية هاجم التتار مكتب التلغراف، فهرع جوليفيه والبرقية العقيمة في يده نحو زميله هارى بلونت، الممدد على الأرض مغشيا عليه، وحمله فوق كتفه محاولاً النجاة به في بسالة وشهامة، ولكن، كان الأوان قد فات، ووقع الاثنان أسيرين، وفي الوقت نفسه فوجئ ستروجوف بالهجوم غير المتوقع، في اللحظة التي كان يحاول فيها القفز من النافذة، فأدركه المهاجمون، ووقع هو الآخر أسيراً في أيدي التتار!.

في معسكر التتار

على مسيرة يوم كامل من مدينة كوليفان ، وعلى بضعة فراسخ من محلة «دياشنسك» ، يمتد سهل فسيح تشرف عليه أشجار الصنوبر والأرز ، ويرتاده عادة كل صيف رعاة سيبريا حيث يجدون المرعى الكافي لقطعانهم الجرارة.

على أن أحدا من هؤلاء الرعاة لم يفكر في ارتياد السهل ، لا لأنه أقفر من المراعي ، بل لأنه كان مزدحما إلى درجة كبيرة بخيام معسكر التتار بزعامة فيوفار خان أمير بخارى.

وهناك في السابع من أغسطس جلب التتار أسرى معركة كوليفان وبقايا الألفي جندي الذين كان يتألف منهم الفيلق الروسي الذى أبيد هناك ، ولم يكن ثمة أي أمل عاجل في النجاة بعد أن تطورت الأحداث ضد مصلحة الروس ، وفقدت حكومة القيصر سيطرتها على ما وراء جبال الأورال ، ولو إلى حين ، فتغلغل التتار في قلب سيبريا ، وانتشروا في البلاد التي شاعت فيها الفتنة ، إما في اتجاه الولايات الغربية أو الشرقية.

وكانت «أركوتسك» قد أصبحت مقطوعة الصلة بأوروبا، وما لم تدركها جيوش ولاية (اياكوتسك) وتحتلها في الوقت المناسب فلا مفر من أن تقع هذه العاصمة لروسيا الآسيوية في أيدي التتار، وقبل أن يصبح في الوسع استردادها يكون الغراندوق شقيق القيصر قد أسلم إلى يد خصمه إيفان أوجارييف لينتقم منه!». .

فماذا يصنع ستروجوف؟ هل يدعى تحت ثقل التجارب الرهيبة التي مرت به؟ هل يعتبر نفسه قد هزم نتيجة لتلك السلسلة من المصادفات السيئة التي حاقت به منذ حادث أيشيم؟ هل يدركه اليأس فيسلم بأنه خسر قضيته وفشل في مهمته واستحال عليه أن يتم رسالته؟! .

لاشك في أنه كان ممن لا يهدؤون أو يهجعون إلا يوم يموتون، لكنه حي، لم يصب حتى بجرح، ورسالة القيصر في طيات ثيابه سليمة من كل سوء، وتنكره لم يفتضح وشخصيته ما زالت مجهولة، ففيم إذن اليأس؟

إنه سيعتبر واحدا من هؤلاء الأسرى الذين يسوقهم التتار كقطيع من الماشية إلى تومسك، وباقترابه من تومسك يقترب في الوقت ذاته من أركوتسك، ولسوف يسبق دائما غريمه إيفان أوجارييف، وحين وصل في تفكيره إلى هذا الحد همس لنفسه مرة أخرى قائلا: «نعم، سأصل!». .

وهكذا كان كل تفكير ستروجوف منذ أسر منحصرًا في البحث عن وسيلة يغدو بها حراً! ولم يكن يدري ما السبيل إلى الفرار من جنود الخان، ولكنه ترك ذلك للفرصة الملائمة وآثر التصرف وفق ما يمليه عليه وحي الساعة.

والحق أن معسكر التتار كان يؤلف منظراً فخماً رائعاً يبهر الناظرين فهناك مئات من الخيام المصنوعة من الجلد أو الجوخ أو الحرير، تلمع في ضوء الشمس، وفوق قممها المدببة تتأرجح الأعلام الملونة، وكانت أفخر تلك الخيام تخص «الأسياء» والمنتمين إلى طبقة «الهودجا» وهم الشخصيات الأولى في دولة الخان، وثمة جناح خاص يتوجه ذيل الحصان، وتتأرجح على ساريتة عصى حمراء وبيضاء مصفوفة في وضع فنى، ترمز إلى الرتبة العليا لزعماء التتار، وفي أقصى المخيم تقوم آلاف من الخيام التركية التي يسمونها «كاراوي» والتي نقلت على ظهور الإبل .

وكان المعسكر يضم ما لا يقل عن مائة وخمسين ألف جندي، بين مشاة وفرسان، بينهم تلك الفئة الرئيسية من التركستان التي تمتاز أفرادها ببشرتهم البيضاء وقامتهم الفارعة وسواد عيونهم وشعرهم، وهم يكونون غالبية جيش التتار، ثم بينهم فئة «الأوزبيك» التي يعرف أفرادها بصغر أجسامهم ولحاهم الصهباء، وكان منهم الفصيحة التي انطلقت في أثر ميشيل ستروجوف من أومسك إلى نهر أوبى، وبينهم فئة الكرجيز ذوي الوجوه المفرطة والزرذ المحمل بالأسلحة

المنوعة، من رمح وسهم وخنجر وبندقية وفأس خاصة قصيرة لا تحدث غير اصابات قاتلة، وتدعى «تتشاكان»، وبينهم المغول ذوو القامات المتوسطة والشعر الأسود المصفور المتدلي على ظهورهم، فضلا عن وجوههم المستديرة وبشرتهم السمراء وعيونهم الحادة الغائرة ولحاهم الخفيفة وثيابهم الزرقاء المحلاة بالقטיפية السوداء، وأحزمتهم الجلدية ذات المشبك الفضي، وأخيرا بينهم فئة الأفغان ذوي البشرة الصدئة، والعرب ذوو الطابع السامي الفطري، والأتراك ذوو العيون التي كأنما تنقصها الأهذاب، يجمعهم كلهم علم الخان، علم السلب والنهب والحرق والتخريب!

وإلى جانب هذا العدد، كان هناك أيضا الجنود العبيد، وأكثرهم من الفرس، الذين يقودهم ضباط من جنسيتهم، وكانوا معروفين القدر بين جيوش الخان، ثم اليهود الذين يعملون لخدمة الجيش، ويرتدون ثيابا يشدونها بأحزمة من الوسط، ويصففون شعرهم بطريقة مزخرفة تغنيهم عن غطاء الرأس المحرم عليهم، إلخ.

وعلى قدر تعدد الأجناس التي يتألف منها جيش التتار، اختلفت أجناس الجياد التي يمتطونها فكان منها الجياد التركية والخاباندية والكرجيزية، وكانت هناك عدا ألوف الجياد والبغال والحمير قطعان الماشية والإبل لطعام تلك الجيوش الجرارة، ومن جميع هذه الصور الحية لمجموعات البشر والحيوان والخيام وأشجار الصنوبر والأرز التي تألفت

منها باقات تتناثر بين ظلالها رقع من الشمس وأقواس قزح، كانت تتجمع للرسم المبدع لوحة رائعة يستنفد رسمها كل فنه وألوانه!.

وحين وصل إلى المعسكر ركب الأسرى الذين تمخضت عنهم معركة كوليفان، وسيقوا إلى خيام فيوفار خان وكبار رجال دولته، قرعت الطبول ونفخ في النفير، واختلط بهذا الضجيج الهائل دوي طلقات المدافع، وكانت محتويات خيام الخان الخاصة المقامة في المعسكر ذات صبغة حربية بحتة أما بيه المدني، وبه حريمه، فكان قد نقل إلى تومسك عاصمته المؤقتة حتى يستبدل بها عاصمة سيبيريا الشرقية.

على أن الخيمة الخاصة للخان كانت من الحرير الخالص، مقامة على قوائم لها مقابض من ذهب، تعلوها «شرابات» كثيفة يعبث بها الهواء، وكانت تحتل مركز مساحة كبيرة، يحيط بها سور من أشجار الصنوبر الباسقة، وأمام الخيمة، فوق منضدة جميلة بيضاء مطعمة بالأحجار الكريمة، وضع مصحف كبير كتب على أوراق الذهب الرفيعة المزركشة، وكان علم التتار يرفرف فوق الخيمة وقد رسمت عليه أسلحة الخان.

وحول تلك الساحة تقوم نصف دائرة من خيام كبار موظفي بخارى، وفي مقدمتهم: حامل أختام الخان، وقائد المدفعية، وكبير المستشارين، وشيخ الإسلام أو كبير العلماء

ورئيس الحظائر الذى يتبع الخان على ظهر جواده إلى داخل قصره، عدا نائب الأمير، الذى يحل محله أثناء غيابه، لينظر في الشكاوى ويفصل فيها، وعدا كبير الفلكيين الذى يستشير النجوم في المناسبات المهمة ويفضى بما تشير به إلى الخان.

ولم يكن الخان قد غادر خيمته حين سيق الأسرى إلى المعسكر، ولا شك في أن هذا كان حظا حسنا لأولئك التعاء، فإن إشارة أو كلمة منه كانت تكفي لذبحهم جميعا، وكان الخان يؤثر احتجاجه عن رعاياه، استزادة لمظاهر المهابة والجلال اللذين يحيطان باسمه في نفوسهم، أما الأسرى فكان مصيرهم أن يحتشدوا في معتقل ضيق، حيث تساء معاملتهم ويقتر عليهم في الغذاء ويعرضون لشتى تقلبات الطقس، إرضاءً لرغبات الخان.

وكان أكثرهم صبورا واستسلاما وانقيادا، ميشيل ستروجوف، فقد ترك المشرفين يقودونه حيث يشاءون، موقنا بأنهم إنما يقودونه إلى الغاية التي يسعى هو إليها، ويوفرون له الأمان الذى لم يكن ليجده لو سافر وحده من كوليفان إلى تومسك، ومن ثم راح يقول لنفسه: «حين أصل إلى تومسك أكون قد سبقت فيورخان باثنتي عشرة ساعة، كما أكون قد سبقت إيفان أوجارييف باثنتي عشرة ساعة أخرى، ومن ثم يكون في وسعي إذا هربت أن أسبقهم إلى أركوتسك!»

وكان أشد ما يخشاه أن يكون إيفان أوجارييف في معسكر التتار، فإن هذا عدا احتمال الكشف عن حقيقة شخصيته، كان يعنى أنه سيصل مع غريمه إلى غايتهما في وقت واحد، ومن ثم يتعذر عليه القيام بمهمته الخطيرة، كما أن معناه أيضا التئام شمل جيوش إيفان أوجارييف مع جيوش فيورخان مما يهدد أركوتسك بزحف كتلة الجيشين الرهيبة نحوها بلا إبطاء.

وحين ذكر ميشيل ستروجوف غريمه اللدود، ذكر أمه المعتقلة في أومسك، ثم ذكر نادية التي اختطفها التتار في «أرتيش» وسبقته إلى الأسر ولا ريب، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل من أجلهما؟، وهل يقدر له أن يراهما مرة أخرى؟، لقد فكر في هذا كثيرا، ولكنه لم يستطع أن يهتدى في شأنه إلى حل يطمئن إليه.

وفي أثناء ذلك كان الصحفيان الأسيران قد نقلتا بدورهما إلى معسكر التتار، وقد عانى «بلونت» متاعب جمّة بسبب الجرح الذي أصيب به في مكتب التلغراف، وما كان ليبلغ المعسكر حيا لولا عناية زميلة ومنافسه جوليفيه، وقد أرقده هذا في المعسكر على فراش من الأوراق الجافة تحت ظل شجرة وشرع يغسل جرح كتفه ويبلله بالماء، فلما استراح بلونت من ألمه عاوده داؤه الصحفي، فسأل زميله: «هل تحسب برقياتنا الأخيرة قد عبرت حدود روسيا؟».

فأجاب بقوله : «ولم لا ؟ ، ولكن دعنا من السياسة فليس أسوأ منها للجروح! ».

قال : «إذن فلنتحدث عن المستقبل ، ولتعلم أنه ليس في نيتي البتة أن أظل أسيرا للقتار! »

فقال جوليفيه : «ولا أنا! ».

قال : «فلنهرب في أول فرصة! » ، فقال : «ولم الهرب؟ نحن محايدان ولسنا محاربين ، وسوف أطلب بحقنا في الفراج! »

فقال بلونت : «تطلب هذا الوحش فيوفار خان؟! » ، قال : «بل أطلب ساعده الأيمن إيفان أوجاريف».

قال : «إنه نذل أيضا ما في ذلك شك! » ، قال : «نعم ، ولكن هذا النذل روسي ، وهو لابد يعلم أنه ينبغي ألا يعتدى على حقوق رعايا الدول الأخرى ، عدا أنه ليست له أية مصلحة في بقائنا في الأسر! ».

فقال بلونت : «لكن إيفان أوجاريف ليس هنا في المعسكر! »

قال : «نعم ، ولكنه سيأتي ولا ريب ، فلا بد أن يلحق بالخان ، إن سيبريا مشطورة الآن إلى شطرين ، ولا شك أن جيش فيوفار خان لا ينتظر غير أوجاريف كي يستأنف زحفه على أركوتسك»

فسأله : «وإذا اطلق سراحنا ، ماذا نفعل؟»

فقال: «نواصل مهمتنا، فنتبع التتار حتى تسمح لنا الظروف بالانضمام إلى المعسكر الروسي، إننا لم نكد نبدأ مهمتنا الحقيقية، وإذا كنت أنت قد جرحت في خدمة صاحبة الجلالة الصحافة فإنني لم أبذل لها شيئاً بعد، والآن ينبغي لك أن تستريح قليلاً، فإلى النوم!»

وهكذا كان الذى يتمناه الصحفيان - وهو حضور إيفان أوجارييف - هو ذاته مبعث رعب ميشيل ستروجوف، وقد أدرك هذا تعارض المصالح بينه وبينهما، فحاول جاهداً ألا يدع بصرهما يقع عليه!.

وانقضت على هذا المنوال أربعة أيام، لم يتغير الموقف خلالها أدنى تغير ولم يسمع الأسرى أية إشارة إلى موعد رحيل الجيش، وكانت الرقابة عليهم أثناء ذلك قاسية صارمة، بحيث كان من المستحيل عليهم أن يتسللوا من نطاق الحراس الذين يتناوبون حراستهم ليل نهار، أما الطعام الذى أتيح لهم فكان لا يزيد على الحد الأدنى الضروري لبقائهم على قيد الحياة، كان الحراس يقذفون إليهم، مرتين كل أربع وعشرين ساعة، قطعة من أمعاء الماعز، مشوية على الفحم، أو قطعة من الجبن المسمى، كروت المصنوع من لبن النعاج الحامض!.

وكان الطقس سيئاً جداً، تنتابه عواصف شديدة محملة بالأتربة يعقبها هطول الأمطار، في الوقت الذى لم يكن

للأسرى التعساء أي مأوى يلجؤون إليه فرارا من غضب الطبيعة، فمات منهم عدد من النساء والأطفال والجرحى، تولى الأسرى أنفسهم دفنهم هنا: !.

وخلال تلك الأيام القاسية، كان ميشيل ستروجوف والسيد جوليفيه - كل على حدة - يؤديان أقصى ما يستطيعان تأديته من خدمات لبقية الأسرى، بفضل قوة بنيتهما وشدة مراسهما، ويزودان الضعيف منهم واليائس والمكتئب بما يقوى من عزيمته ويسري عنه ويحيى الأمل في نفسه!.

ولكن هل تدوم هذه الحال؟ هل قنع فيوفار خان بالنجاح السريع الذى أحرزه فاعتزم أن يقضى فترة استراحة طويلة قبل أن يستأنف زحفه على أركوتسك؟

هذا ما كان يخشاه الأسرى جميعا!، ولكن لم تحل صبيحة يوم ١٢ أغسطس حتى وقع الحادث المرتقب الذى طالما تمناه الصحفيان، وأشفق منه ميشيل ستروجوف! فقد قرعت الطبول ونفخ في النفير، وأطلقت المدافع، وهبت سحابة من الغبار الكثيف على أفق الطريق إلى كوليفان. وأقبل على معسكر التتار آلاف من الجنود، على رأسهم، إيفان أوجاريف.

خطة جوليفيه

لم يكن الجيش الجرار الذى جلبه إيفان أوجارييف إلى فيوفار خان سوى جزء من الجيش الذى استولى على أومسك، أو القسم الأدنى منها على وجه أصح فإن القسم الأعلى الذى اعتصم فيه الحاكم العام وحامية المدينة بقى مستعصيا على الغزاة، وقد آثر أوجارييف ألا يعطل الأعمال الحربية التى تهدف إلى غزو سيبيريا الشرقية، بإطالة الوقوف أمام الحصن المستعصي، ومن ثم ترك في أومسك جيشا كافيا وخف لإمداد غزاة كوليفان، ثم جاء لينضم إلى جيش التتار الرئيسى .

توقف جنود أوجارييف عند مدخل المعسكر، إطاعة لأوامره، وكان قد جلب معه بدوره قلة من الأسرى الروسين والسيبريين الذين استسلموا لجيشه في أومسك وكوليفان، وكان من سوء حظ هؤلاء أنهم تركوا في العراء، فلم يجدوا حتى مثل المأوى الضيق الذى حشر فيه زملاؤهم في معسكر الخان.

ترى أي مصير يدخره فيوفار خان لأولئك التعساء ؟
أيسوقهم أمامه كالماشية إلى تومسك؟ أم يدبر لهم مذبحة من تلك المذابح الدموية التى ألفها زعماء التتار، كان الجواب

سرا يحتفظ به الأمير ذو النزوات ، وكان الذين يكونون عادة مؤخرة كل جيش زاحف ، والذين لا يتركون وراءهم خيرا أو زرعا أو ضرعا ، وكان من بينهم رهط الغجر الذى رافق ميشيل ستروجوف على ظهر السفينة إلى بيرم ، ومن أفراد «سنجار» تلك الجاسوسة المتوحشة التي لا تفارق سيدها إيفان أوجارييف أينما يذهب ، فتندس مع رهطها في كل مكان لتتنقل لسيدها كل ما ترى وتسمع ؟ وهكذا كان يقف على كل ما يجرى في المناطق التي يهيمه أمرها ، بفضل هذه المائة عين والمائة إذن التي ينشرها حيثما أراد ، والتي يدفع لأصحابها مقابل هذه الجاسوسية النافعة أموالا ضخمة.

وكان سنجار قد وقعت يوما في مأزق رهيب ، خلصها منه أوجارييف ، ومنذ ذلك اليوم لم تنس جميل صنعه ووهبت نفسها له ، جسما وروحا ، وأدرك أوجارييف - وقد سار في طريق الخيانة لوطنه - أية خدمات تستطيع المرأة أن تؤديها له ، كانت تنفذ أي أمر يصدره إليها بدقة مثالية ، مدفوعة بغريزة غامضة أقوى من العرفان بالجميل ، وهكذا صارت بمثابة أمة مملوكة للخائن الذى اتصلت به منذ بداية أيام نفيه في سيبيريا ، أمة مخلصه بلا وطن ولا عائلة يلذ لها أن تكرر حياتها البوهيمية لخدمة الغزاة الذين يطلقهم سيدها أوجارييف على سيبيريا كالكلاب الجائعة ، وكانت سنجار - شأن بنات جنسها - نشيطة صارمة - لا تعرف الصفح ولا الشفقة.

ومنذ وصول سنجار إلى أومسك، لم تفارق سيدها، وقد علمت بأمر اللقاء غير المقصود الذى تم في محطة البريد هناك بين ميشيل ستروجوف وأمه مارفا، وشاركت مولاها خوفه من وصول رسول القيصر إلى غايته، وتطلعت إلى اليوم الذى يتاح لها فيه تعذيب مارفا ستروجوف بشتى ألوان التعذيب التى تحذقها، كي تنتزع منها سر ولده، لكن الساعة التى ادخرها أوجاريف لتعذيب الأم لم تكن قد حانت بعد، وفي انتظارها جعلت سنجار عينها على مارفا ترقب كل حركاتها وسكناتها وكلماتها ليل نهار، علها تظفر منها في لحظة ضعف بكلمة تكشف أمر ابنها، ولكن الأم العجوز ظلت ساكنة صابرة رابطة الجأش .

وفي اللحظة التى قرعت فيها الطبول إيذانا بوصول جيش الخائن الروسي خف قائد مدفعية التتار ورئيس حظائر الخان يتبعها رهط من الفرسان، إلى مقدمة المعسكر لاستقبال إيفان أوجاريف، وحين بلغوا مكانه أغدقوا عليه تحياتهم ودعوه إلى مرافقتهم إلى خيمة فيوفار خان، فرد هو تحياتهم في فتور برزانتة المعهودة، وكان ما يزال يرتدى، مع ما عرف عنه من جرأة وقحة سترة ضابط روسي ! .

ولم يكد يستحث جواده ليعبر باب المعسكر حتى تسالت «سنجار» بين فرسان الحامية واقتربت منه حيث ظلت صامتة جامدة، فسألها هامسا: «هل من جديد؟»، قالت : «لا ، هل اقتربت الساعة لإجبار العجوز على الكلام؟» .

قال : اصبري يا سنجار حتى نصل إلى تومسك»

فسألته : «ومتى نصل؟»، فقال : «خلال الأيام الثلاثة القادمة!». .

وعندئذ برقت عينا سنجار السوداوان ببريق غير عادي، وانسحبت بخطى هادئة، بينما ضغط أوجاريف مهماز جواده وسار نحو خيمة الخان يتبعه أركان حربه من الضباط التتار. وكان فيوفار خان ينتظر قائده وساعده الأيمن، وقد اصطف حوله مستشاروه وكبار مرؤوسيه، فترجل أوجاريف عن جواده ودخل الخيمة حيث مثل في حضرة الخان، وكان هذا في نحو الأربعين من عمره، طويل القامة، شاحب الوجه، خبيث العينين، مخيف الملامح، ذا لحية سوداء تتدلى فوق صدره، ويرتدى سترة عسكرية محلاة بزرد من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وخنجرا معقوفا، وخوذة مرصعة بأحجار من الماس تبهر الأنظار، وكانت هيئته توحى بسلطانه المطلق على رعاياه.

وفي اللحظة التي دخل فيها أوجاريف الخيمة ظل كبار المرؤوسين جالسين على حشاياهم الموشاة بالذهب، أما فيوفار فقد نهض عن أريكة فاخرة تحتل ركن الخيمة التي فرشت أرضه بسجادة رائعة من منتجات بخارى، واقترب الأمير من ضيفه ثم طبع على جبينه قبلة علامة رفع الكلفة والحدز بينهما وخاطبه قائلا:

— ليس عندي ما أسألك عنه ، فتكلم أنت يا إيفان ، كلنا آذان مصغية لك .

فقال أوجارييف : «مولاي ، إليك ما عندي ، إن الوقت ليس وقت عبارات جوفاء ، وأنت تعرف جيدا ما فعلته أنا على رأس جيشك ، إن خطوط أيشيم وأرتيش قد أصبحت في حوزتنا ، وفرسان التركستان يستطيعون الآن أن يجعلوا جيادهم تستحم في مياه النهرين التي صارت تتارية ، وقبائل الكرجيز قد أشعلت الفتنة منذ بلغها صوت فيوفار خان ، وطريق سيبريا الرئيسي قد صار ملك يمينك من أيشيم إلى تومسك ، وفي وسعك أن تدفع جيوشك كما تشاء نحو الشرق حيث تشرق الشمس أو نحو الغرب حيث تغرب !» .

فقال الخان : «وإذا سرت مع الشمس؟»

قال : «معنى هذا أن ننطلق نحو أوربا ، ونغزو على وجه السرعة أقاليم سيبريا من توبولسك إلى جبال الأورال»

فقال : «وإذا اتجهت إلى الغرب؟»

قال : «إذن ، نخضع لسيطرة التتار أركوتسك وأغنى مناطق آسيا الوسطى»

فسأله : «وجيوش سلطان بطرسبرج؟» يعنى قيصر روسيا

فقال : «ليس ثمة ما تخشاه من جهتها ، لقد كان الغزو مفاجئا ، وقبل أن يستطيع الجيش الروسي أن يفعل شيئا

نكون قد أستولينا على أركوتسك أو توبولسك، إن قوات القيصر قد سحقت سحقاً في كوليفاء، كما أنها ستسحق حيثما يقدر لها أن تلتقى بجيوشك في كل مكان!»

فسأله «آية فكرة توحى لك هذا التفاني في سبيل قضية التتار؟»

فقال: «فكرتي أن أسير في مواجهة الشمس، وأعطي أعشاب البراري الشرقية لجياد التركستان، وأستولى على أركوتسك عاصمة أقاليم الشرق، ومعها الرهينة التي تستحق التضحية بأقاليم كامل، يجب أن يقع الغراندوق شقيق القيصر في يديك!».

وكانت الغاية الأولى التي يسعى إليها إيفان أوجارييف هي الانتقام من الغراندوق، ومن هنا كان يتحدث عنه، وكأنه أحد قراصنة القرن الثامن عشر القساة، وكانت مخيلته تتعجل الوصول إلى هذه الغاية فيتصور نفسه وقد قبض على غريمه وراح يضربه ويهينه بلا شفقة، أما الاستيلاء على أركوتسك وجعل سيبريا الشرقية بأسرها تحت سيطرة التتار فكانت هدفاً ثانوياً له!

وقال له فيوفار خان: «فليكن ما تريد يا إيفان، وتستطيع أن تنقل مركز قيادتنا إلى تومسك غداً، أو اليوم إذا شئت».

فانحنى إيفان أوجارييف، وانصرف لتنفيذ أمر الخان وفي اللحظة التي مضى فيها ليمتطي جواده، سمع ضجة صادرة من معتقل الأسرى، صيحات مختلطة وبضع طلقات

نارية، ولم يدر أهى محاولة مرد أم فرار؟، فتقدم وحارسه بضع خطوات نحو مكان الضجيج، وإذ ذاك برز أمامهما أسيران لم يستطع الجنود منعهما من التقدم، فلوح حارس إيفان بإشارة تقضي بالإجهاز على الأسيرين دون انتظار الوقوف على تفصيل الأمر، ولكن إيفان أوقفه وقمع الخنجر الذى كان يتهياً للانطلاق من يده، فقد أدرك من هيئتهما أنهما أجنيبان، وأمر بإحضارهما أمامه.

ولم يكن هذان الأسيران سوى هاري بلونت وجوليفيه !

كانا قد بذلا منذ وصول أوجاريف إلى المعسكر محاولات عدة للثول بين يديه، قوبلت جميعها من جانب الحراس بالرفض، ومن هنا عمدا إلى الصراع ومحاولة الفرار التي كان مصيرها أن تؤدي إلى إعدامهما لولا تدخل إيفان .

وحين مثلا أمامه جعل يتأملهما بعينه الفاحصة، فلم يتذكر أنه رآهما من قبل برغم أنهما كانا حاضرين في محطة بريد «أيشيم» أثناء المشادة التي نشبت بينه وبين ميشيل ستروجوف بصدد الجياد، ذلك لأن الضابط المغرور لم يأبه للمسافرين الذين كانوا في ردهة المحطة أثناء تلك المشادة، أما الصحفيان فقد عرفاه على الفور منذ مثلا في حضرته، فهمس جوليفيه في أذن بلونت: «انظر، يبدو أن الكولونيل أوجاريف والمسافر الفظ في محطة أيشيم ليسا غير شخص واحد!». .

ثم أضاف في أذن زميله : «اعرض قضيتنا يا بلونت تحقق لنا خيرا، فإن مرأى هذا الضابط الروسي وسط معسكر التتار يملأ نفسي اشمئزا، وبرغم أنه صاحب الفضل عليّ في بقاء رأسي فوق كتفي إلى هذه اللحظة فإن عيني تنحرفان في احتقار كلما أردتهما أن تنظرا إلى وجهه !»

وحين فرغ الصحفي من عبارته أبدى غاية التعالي وعدم المبالاة، فهل أحس إيفان أوجاريف بما تنطوي عليه حركة الأسير الذى أمامه من استخفاف ومهانة؟. على أية حال فإنه لم يظهر شعوره، وإنما سأل في لهجة روسية باردة: «من أنتما؟» فأجابه بلونت قائلاً: «صحفيان نمثل جريدة إنجليزية وأخرى فرنسية»

قال : «وهل لديكما الأوراق التي تثبت شخصيتكما؟»

فقال: «هاك هي الخطابات التي تزكينا في روسيا لدى القنصليات ال؛ إنجليزية والفرنسية»

وتناول الكولونيل الخطابات، وبعد أن طالعها بإمعان سألهما: «أطلبان الترخيص لكما بتتبع عملياتنا الحربية في سيبيريا؟» فقال: «نطلب إطلاق سراحنا، هذا كل ما في الأمر»

قال : «إنكما مطلقا السراح منذ الآن، وسوف أتتبع ما تكتبان في صحفكما،» ثم امتطى جواده ومضى مثيرا خلفه زوبعة من الغبار.

وقال بلونت لزميله : «ما رأيك يا مسيو جوليفيه في الكولونيل إيفان ؟» .

قال : «رأيت أن حارسه كان رشيقا في الحركة التي كاد بها أن يفصل عنقينا عن كتفينا !»

قال : «نسيء استغلالها ، فنمضى توا إلى تومسك لنرى ما عساه أن يحدث !» .

وبقدر ما كان وصول إيفان أوجاريف خيرا وبركة على جوليفيه وبلونت ، كان خطرا ونقمة على ميشيل ستروجوف ، فلو أن الصدفه وضعت رسول القيصر في طريق إيفان لعرف فيه هذا فورا ذلك المسافر الذى تشاجر معه في محطة أيشيم ، لكن وصول أوجاريف أفاد ستروجوف من ناحية أخرى ، هى التعجيل بالرحيل من المنطقة ، فقد أصدر الأمر بنقل المعسكر إلى تومسك فورا ، وابتهج ستروجوف بهذه الخطوة التي ستتيح له الوصول إلى تومسك في ركاب الأسرى دون التعرض لمخاطر الوقوع في أيدي كشافة التتار المنبثين في مداخل المدينة الكبيرة ، ثم عاد ففكر في الفرار في منتصف الطريق خشية أن يلحقه غريمه فيعرفه ، لكنه لم يلبث أن عدل عن فكرته حين علم بأن فيوفار خان وإيفان أوجاريف قررا الرحيل في جيش مكون من آلاف الفرسان على أن يتبعهما موكب الأسرى يحرسهم فيلق من جنود التتار .

ولما كانت المسافة بين المعسكر والمدينة المرموقة أكثر من مائة وخمسين فرسخا، فقد قدر ستروجوف لقطعها ثلاثة أيام، ولا سيما أن حرمان الأسرى من الطعام الكافي قد أضعفهم وجعلهم أعجز من أن يحتملوا مشقة السفر الطويل، وبدأ الطابور سيره في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ١٢ أغسطس، وكان الجو قائظا والسما صافية من الغيوم.

أما جوليفيه وبلونت فقد ابتاعا جوادين وانطلقا بدورهما إلى أومسك.

وكان بين الأسرى الذين جلبهم إيفان أوجارييف معه امرأة عجوز لفت صمتها الأنظار وجعلها شبه منعزلة عن بقية الذين أراد لهم القدر نفس المصير.

كانت شبه تمثال من الألم الصامت، لم تفتح فمها بكلمة شكوى أو تذمر.

وكانت الأوامر تقضى بتشديد الحراسة عليها أكثر من سواها، كما تولت العجيرة «سنجار» مراقبتها عن كثب دون أن تشعر، وخلال الطريق تبعت التعسة جميع الأسرى سيرا على الأقدام، رغم تقدمها في السن، مستسلمة لعذابها المرير!

ولكن شاءت الأقدار أن تضع بجانبها فتاة شجاعة كريمة النفس تفهم آلام المحزونين وتبذل لهم معاونتها، فتاة لفتت الأنظار بجمالها وهدوئها، وبرغم أن الأسيرتين لم تتبادلا كلمة فإن الفتاة كانت دائما قريبة من الأخرى

بحيث تستطيع أن تغيثها وقت الحاجة، وإن كانت العجوز نظرت بشيء من الريبة إلى هذا العطف الصامت غير المفهوم من فتاة لا تعرفها، وشيئا فشيئا أنست مارقا ستروجوف إلى نظرات الفتاة المستقيمة الصريحة وعاطفتها الخفية التي توجهها المشاركة في الألم عادة بين نفسين تعستين، ولم تكن هذه الفتاة سوى نادية، وقد منحت العجوز، دون أن تعرف شخصيتها، عناية كبيرة، مدفوعة إلى ذلك بوحى طبيبتها الغريزية، وقد أثار تقارب المرأتين - اللتين كانتا بمثابة الجدة والحفيدة - وسط ذلك الجمع من التعساء نوعا من الشعور بالاحترام الصامت.

وكانت نادية قد نقلت على أثر اختطافها بواسطة التتار من عرض النهر إلى أومسك، حيث حجزت في معتقل الأسرى التابع للكولونيل أوجارييف، وشاركت مارقا ستروجوف وسواها مصيرهن التعس، ولو كانت الفتاة ضعيفة العزيمة لحطمتها الصدمة المزدوجة التي أصابتها من عرقلة رحلتها إلى أبيها، واعتقادها موت مرافقها الشهم (ستروجوف) غريقا في قاع النهر!.

والواقع أنها أحست على أثر الصدمتين شعورا باليأس والحنق، كانت صورة ميشيل ستروجوف وهو يتلقى ضربة الرمح ثم يغوص في قاع اليم ما تزال تلح على خيالها لا تبرحه، بل إنها ما برحت تسأل نفسها: «كيف يمكن أن يموت شاب نبيل مثله هكذا، ولمن إذن أدر الله معجزاته؟»،

وأحيانا كان الحنق يغلبها على ألمها، وذكرى المهانة التي تلقاها الشاب من الضابط المتعجرف في محطة أيشيم تعاودها، فيغلي دمها في عروقها وتحدث نفسها، من الذي سينتقم لذلك الميت الذي لن يستطيع الانتقام لنفسه؟ «، وكانت تتوجه إلى الله ضارعة: «يا إلهي، مكني أنا من الانتقام!» ثم لا تملك نفسها من التحسر «آه لو ميشيل قد باح لها قبل موته بسرّه، لربما استطاعت برغم ضعفها أن تتم المهمة التي أخذها على عاتقه هذا الأخ الذي ما كان ينبغي أن يعطيها الله إياه ما دام ينوي أن يعود فيأخذها»، وباستغراقها في أفكارها على هذا النحو لم يكن من المستغرب أن تلتزم نادية عدم المبالاة حتى بمتاعب أسرها وآلامه.

وفي غمرة تلك الظروف جمعتها الأقدار بالمرأة العجوز مارفا ستروجوف، دون أن يخطر ببالها لحظة أن هذه الأسيرة الشمطاء هي أم مرافقها التاجر النبيل «نيقولا كوربانوف»، بل دون أن يجول بخاطر مارفا بدورها أن هذه الفتاة المجهولة كانت على صلة وثيقة بابنها، وإنما الذي لفت نظر نادية إلى مارفا هو وجود لون من التوافق الخفي في الطريقة التي عانت بها كل منهما ظرفها الأليم، هو ذلك الاستهتار الغريب الذي كانت تتلقى به العجوز متاعب حياتها اليومية في الأسر، وذلك الاحتقار لآلام الذي كانت تستمده ولا ريب من ألم نفساني عميق شبيه بألمها هي، ولم تخطئ نادية في هذا الظن، ومن ثم نبت في قلبها عطف

غريزي على مارفا من أجل ذلك الجانب الخفي المكتوم من آلامها، ووجدت نفسها مدفوعة نحوها على الدوام بقوة لا تقاوم، هي قوة الإعجاب بطريقة المرأة في تحمل تعاستها.

ولم تعرض نادية على مارفا مساعدتها، وإنما قدمتها إليها من تلقاء نفسها، فلم تقبلها مارفا ولم ترفضها، وفي المراحل العسيرة من الطريق كانت الفتاة تقدم للعجوز ذراعها كي تستند إليه، وفي ساعة توزيع الطعام لم تكن مارفا تبدي حراكا، فكانت نادية تقتسم معها غذاءها، وبفضل مرافقتها الشابة استطاعت مارفا ستروجوف أن تتبع الجنود الذين يقودون ركب الأسرى دون أن تربط إلى سرج دابة من الدواب كغيرها من الأسيرات التعسات، خلال الطريق.

وقالت لها مارفا مرة: «فليكافئك الله يا ابنتي من أجل كل ما تفعلين لشيخوختي!»، وكانت هذه العبارة في وقت من الأوقات كل ما تبودل بين الأسيرتين من حديث.

وخلال تلك الأيام - التي بدت لهما دهرا طويلا - كان من المعقول أن تتبادل المرأتان الحديث عن آلامهما المشتركة، لكن مارفا ستروجوف، بتأثير شعور من الحذر يمكن فهمه، لم تتحدث إلا لنفسها، وفي اختصار شديد، فلم تشر من قريب أو بعيد إلى ابنها أو إلى اللقاء المشئوم الذي تم بينه وبينها وجها لوجه في أومسك، وكذلك لزمت نادية مع مرافقتها حدود الصمت أكثر الوقت، لكنها ذات يوم أحست

باطمئنان إلى النفس البسيطة النبيلة التي أمامها، ففاض قلبها، وقصت على مارقا كل ما وقع لها منذ غادرت فلاديمير حتى وفاة نيقولا كوربانوف، ووجد حديثها عن مرافقها الشاب اهتماما وأذنا صاغية من السيرية العجوز، فقالت لها: «نيقولا كوربانوف!، حدثيني أيضا عن هذا الشخص، لست أعرف بين شباب هذه الأيام غير شخص واحد لا يستغرب منه هذا التصرف، أواثقة أنت يا ابنتي أن اسمه كان نيقولا كوربانوف؟».

فقالت: «لماذا يكون قد خدعني في هذا الصد وهو الذى لم يخدعني قط في شيء؟»

قالت: «تقولين إنه كان باسلا شديد البأس يا ابنتي، طبقا لما روي عنه؟»

قالت: «نعم»

قالت: «تقولين إن شيئا لم يكن يوقفه أو يعوقه أو يدهشه، وأنه كان عذبا حتى في قوته، حتى لقد وجدت فيه أخا لك، عدا أنه أخ، وأنه سهر على راحتك مثل أم»

قالت: «نعم، نعم، أخ وأخت وأم، كان لي كل شيء»

فسألتها: «وكان أسدا في ساعة الدفاع عنك؟»

فقالت: «نعم، كان أسدا بل أكثر من أسد، كان بطلا»

فسألتها: «لكنك تقولين أنه تحمل إهانة قاسية في محطة البريد بأيشيم؟»

فقالت: «نعم، تحملها، ولكن لا تسيئي الظن به يا أماه، كان في الأمر سر ولا شك»

فسألتها: «في لحظة تلك المذلة، هل شعرت نحو نيقولا كوربانوف بالاحتقار؟»

فقالت: «بل شعرت نحوه بالإعجاب، دون أن أفهمه، وباحترام فاق كل ما استحقه من قبل»

فعدت تسألها، أكان طويل القامة؟

فقالت: «نعم»

قالت: «هو وسيم الوجه، أليس كذلك؟، تكلمي يا ابنتي»

فأجابت نادية وقد احمر وجهها: «بل كان جميلا جدا»

فهتفت الأم وهي تحتضن نادية في انفعال: «إنه ابني، أقول لك إنه ابني!». .

فبغتت نادية، وتمتمت مرددة: «ابنك؟، ابنك؟»

وعادت مارفا تقول: «أو لم يحدثك يوما عن أمه؟»

فقالت: «أمه؟، لقد حدثني عن أمه كما حدثته عن

أبي، مرارا وتكرارا، إنه كان يعبد أمه!»

فصاحت العجوز: «نادية، نادية، إنك لا تدريين كم تسعدينني بحديثك عن ابني، ولكن، أما كان يعتزم أن يزور أمه تلك التي يحبها والتي تقطن في أومسك».

فقالت: «كلا، ما كان يعتزم ذلك، لسبب لست أعلمه، كل ما فهمته من مسلكه أنه كان يحرص على أن يجتاز البلاد سرا، كان ذلك بالنسبة له مسألة حياة أو موت، بل مسألة واجب وشرف!»

فقالت مارفا: «نعم، واجب حتمي من تلك الواجبات التي يضحى في سبيلها الإنسان بكل شيء، ويضن على نفسه بكل شيء، حتى بفرحة طبع قبلة على وجنتي أمه العجوز، قبلة ربما تكون الأخيرة، الآن فهمت كل ما استعصى عليك وعليّ فهمه من قبل، لكن الضوء الذي سلطته على ظلمات قلبي فبددتها يا نادية، لا أستطيع أن أسلطه أنا على قلبك، والسر الذي كتبه عنك يا ابنتي ينبغي أن أكتمه أنا بدوري، سامحيني يا نادية!»

وهكذا وضح كل شيء للسيبرية العجوز عن تصرفات ابنها، حتى تصرفه غير المفهوم بإزائها في محطة بريد أومسك، ولم يعد لديها شك في أن الشاب الذي رافق نادية في رحلتها لم يكن غير ابنها، وأن مهمة سرية هامة لابد قد أجبرته على إخفاء شخصيته كرسول للقيصر أثناء اجتيازه الأراضي المحتلة.

وحدثت العجوز نفسها قائلة: «آه، يا ابني الحبيب الشجاع، كلا لن أخونك أو أشي بك، وأي تعذيب لن ينتزع مني اعترافا بأنك أنت الذى رأيتَه في أومسك،

وقد كان في استطاعة مارفا ستروجوف أن تكافئ «نادية على إخلاصها لها بكلمة واحدة، فتقول لها: إن مرافقها الشهم نيقولا كوربانوف - أو بتعبير أصح ميشيل ستروجوف - لم يغرق في قاع نهر أرتيش، فقد قابلته في أومسك وتحديث إليه بعد ذلك الحادث بأيام، ولكنها صمتت، وانطوت على نفسها مكتفية بأن قالت: «أرجو ألا تثقل عليك الأحزان يا ابنتي، وأن ترى أباك، ومن يدرى، لعل الشاب الذى تعيننه لم يموت، فإن الله لا يمكن أن يسمح به كشاب شهم نبيل مثله، فتعلقي بأذيال الأمل يا ابنتي.

واحدة . . . بواحدة !

كانت مارفا ستروجوف ونادية تجهلان أن ميشيل ستروجوف قد أسر في كوليفان، وأنه أحد أفراد القافلة نفسها التي تضمهما، ويسير معهما في الطريق إلى تومسك، فقد ضم الأسرى الذين جلبهم إيفان أوجارييف إلى أولئك الذين كانوا في معسكر فيوفار فصاروا آلاف مؤلفة يؤلفون طابورا طويلا يمتد بضعة فراسخ على الطريق، وكان بينهم كثيرون شدوا بعضهم إلى بعض بسلاسل طويلة، كما كان بينهم النساء، والأطفال، الذين وضعوا فوق سروج الدواب، وكان الركب أشبه بقطيع من البشر، ويضطربهم الحراس إلى أن يلتزموا في سيرهم نظاما معيناً، وبين الحين والآخر كان يسقط منهم واحد فلا ينهض مرة أخرى، فقد كانت الرحلة رهيبة قاسية، تحت أشعة الشمس وسيط الحراس الذين لا يكفون عن حثهم على الإسراع في المسير ووراء العاصفة الرملية التي تثيرها حوافر جياد الزعماء الذين يتقدمون الصفوف.

وهكذا بدت الرحلة بالنسبة للأسرى التعساء كأنها لن تنتهي، وزاد في صعوبتها تعذر وجود الماء في مرحلة كبيرة

من الطريق المختصر الذى أمرت الحملة بأن تسلكه إلى تومسك، كي تبلغها في أسرع وقت، خشية حدوث مفاجآت من جانب الروسيين، وخلال الطريق تساقط مئات من الأسرى فتركت جثثهم حيث هي حتى تأتى الذئاب في الشتاء فتلتهم بقاياها.

وحين رأى ميشيل ستروجوف دوريات التتار التي تملأ الطريق ازداد يقينا بتعذر هربه من صفوف الأسرى، فإنه لو نجا من مطاردة الحراس لن ينجو من أيدي رجال الدوريات.

وفي مغرب يوم ١٥ أغسطس بلغت القافلة محلة «زابديرو» الصغيرة، على بعد ثلاثين فرسخا من تومسك، ومن تلك البقعة يسير الطريق في محاذاة النهر، وقد كان أول ما فعله الأسرى المجهدون أن حاول بعضهم الهبوط إلى الماء ليستحموا، لكن الحراس ردوهم إلى صفوفهم خشية أن ينتهز جريء منهم أو يائس تلك الفرصة فيعمد إلى الفرار، واتخذت تدابير صارمة لحراستهم، منها حشد طابور من الزوارق بعرض النهر!.

وكان على الأسرى أن يعسكروا تلك الليلة على ضفة نهر «توم» بعد أن أجل الخان دخول تومسك إلى الغد، وتقرر إقامة احتفال عسكري ابتهاجا بإقامة مركز القيادة العليا للتتار في هذه المدينة الهامة التي احتل فيوفار خان قلعتها، وتسكع جنوده حول أسوارها انتظارا للحظة دخولهم إليها

رسميا، في هيئة حشد واحد، وترك إيفان أوجارييف الخان في تومسك في اليوم التالي وعاد إلى المعسكر في زابدبيرو، ليغادرها في الغد مع مؤخرة جيش التتار، وأعد له بيت مريح كي يقضى فيه ليلته.

ومنذ نفخ في النفير إيدانا بتوقف الركب تنفس الأسرى الصعداء، آملين أن ينالوا قسطا من الراحة بعد أن حطمهم المسير ثلاثة أيام متوالية، وحين غربت الشمس خرجت مارفا ستروجوف تتكئ على ذراع نادية إلى ضفة النهر لإرواء ظمئها وانحنى العجوز على مجرى الماء العذب، بينما اغترفت لها نادية جرعة في يدها ومدتها نحو شفقتها، ثم شربت هي بدورها، وعندئذ أحست المرأتان بالانتعاش يعاودهما.

وفيما كانت نادية تستدير لتقفل راجعة، ندت منها صرخة بالرغم منها وتراجعت إلى الخلف، فقد كان «ميشيل ستروجوف» على قيد خطوات منها، والتفت هو على صرختها فراها، لكنه استطاع السيطرة على نفسه وقمع الكلمة التي كان يتوق إلى أن يهتف بها، وفي اللحظة التالية استطاع التعرف إلى أمه أيضا، فحجب عينيه بيديه وابتعد فورا، وهمت نادية بالاندفاع وراءه بوحى من غريزتها، لولا أن همست العجوز في أذنها قائلة: «مكانك يا ابنتي، حذار!» فقالت نادية: «إنه هو، إنه على قيد الحياة يا أماه، إنه هو!»

فهمست قائلة : «نعم، إنه ابني، ميشيل ستروجوف،
وأنت ترين أنني لا أخطو خطوة واحدة نحوه، فاحذي
حذوي يا ابنتي!»

ولقد عانى ستروجوف ساعتئذ حمى انفعال عنيف من
أقصى ما مر به في حياته، وتناهبته الهواجس وأخذ يسأل
نفسه، هل قرب الله بين المرأتين في محنتهما المشتركة؟ هل
تعلم نادية إذن من هو؟ لقد لمح أمه تعوقها عن اللحاق
به، وإذن فقد أدركت أمه الموقف وصانت سره، وطيلة
تلك الليلة فكر ميشيل عشرين مرة في أن يجتمع بأمه تحت
جناح الظلام، كي يضمها إلى صدره ويعانقها، ويضغط يد
نادية، مرافقته الحسنة، لكنه أدرك خطر المحاولة، وآله أن
يوطن نفسه على مواصلة رحلته بعد تومسك دون أن يعانق
المخلوقتين اللتين تتركز فيهما كل حياته، واللتين يعلم مبلغ
ما تتعرضان له من أخطار.

ولم يدر بخلد الشاب أن هذا اللقاء الجديد الخاطف لم
ينقض غير ملحوظ، فقد التقطته عين «سنجار» جاسوسة
إيفان أوجاريف التي لا تغفل عن شيء فقد كانت ترقب
العجوز من بعيد، فلمحت حركتها التي استوقفت بها
نادية وأدركت من بريق عيني مارفا جلية الأمر، وإن لم
تقع عينها على الشاب نفسه أثناء ذلك اللقاء العابر،
فقد حجبته عن عينيها بعض العوائق، ولكن كفأها أن
تستنتج من تتبع حركات الأم أن ابنها، رسول القيصر، لابد

موجود في تلك الساعة في المعسكر، ضمن الأسرى ولا ريب. ولم تحاول سنجار أن تعثر على الشاب في الظلام، بين ذلك العدد الهائل من الأسرى، فاكتفت بأن تخطر سيدها إيفان أوجارييف، ومن ثم غادرت المعسكر فوراً إلى البيت الذي كان إيفان يقضى فيه ليلته، على مسيرة نحو ربع ساعة، وقالت له: «إن ابن مارفا ستروجوف في المعسكر، ضمن الأسرى»

فقال: «آه، إذن سأستطيع..»

قالت: «لن تستطيع شيئاً، فأنت لا تعرف شكله!»

قال: «لكنك تعرفينه ولا ريب، ألم تريه؟»

قالت: «لم أتمكن من رؤيته، وإنما رأيت حركة تصدر من أمه دلتني على وجوده»

فقال لها: «لعلك تعلمين الأهمية التي أعلقها على اعتقال هذا الرسول، فلو وصل الخطاب الذي يحمله إلى الغراندوق، فسوف يأخذ حذره مني، وتفشل خطتي كلها، وإن لابد لي من الحصول على ذلك الخطاب بأي ثمن، وها هو ذا حامله في قبضتي!»

وكان يتكلم بانفعال شديد، ينم عن شدة اهتمامه بهذا الأمر، لكن البوهيمية لم تضطرب البتة أمام إلحاحه، ثم استطرده يقول: «لكن المعسكر يضم آلافاً من الأسرى يا

سنجار، وأنت تقولين إنك لا تعرفين ميشيل ستروجوف!«
قالت : «نعم، أنا لا أعرفه، لكن أمه تعرفه، إيفان،
يجب حمل المرأة على الكلام!«
فقال : «غدا ، ستتكلم!«

وأشرق وجه العجربة بفرحة وحشية، ومد أوجاريف يده
إليها مودعا، وحين عادت إلى المعسكر لزمت مكانا قريبا من
مارفا ونادية، وقضت الليلة ترقبهما، وقد لاحظت أنهما
لم تناما طيلة الليل، برغم التعب الذى هدهما، فقد أزال
قلقهما النعاس عن أجفانهما، إن ميشيل ستروجوف حي،
لكنه أسير مثلهما، فهل يعرف إيفان أوجاريف ذلك؟ وإذا
كان لم يعرفه بعد فهل لن يعرفه في القريب.

وكانت سنجار إلى قرب المرأتين، وقضت ساعات ترهف
سمعهما، لكنها لم تسمع شيئا، فقد لزمت كلتاها الحذر
فلم تنبسا بكلمة!

وفي صبيحة اليوم التالي، نحو الساعة السادسة، قرعت
الطبول ونفخ في النفير، وأقبل إيفان أوجاريف يبدو على
وجهه الحنق المكتوم الذى يتقرب فرصة للانفجار، وحين
رآه ميشيل ستروجوف وهو بين صفوف الأسرى أحس أن
كارثة توشك أن تقع، ولم يكد الكولونيل يصل إلى قلب
المعسكر حتى ترجل عن جواده والتف فرسان حرسه حوله
في شبه دائرة، وفي تلك اللحظة اقتربت منه سنجار وهمست

له: «ليس لديّ جديد يا إيفان!» فلم يجب إلا بإصدار أمر مختصر إلى واحد من ضباطه ، وفي الحال انتشر الجنود بين الأسرى ينظمون صفوفهم على عجل ويستحثونهم بضربات السياط ووخزات الرماح، ثم عقدوا حولهم نطاقاً فولاذياً يستحيل معه على أحدهم أن يفكر في الفرار.

وساد الصمت المطلق، وبناء على إشارة من إيفان أوجاريف اتجهت سنجار نحو الجهة التي تقف فيها مارفا ستروجوف، فلما رأتها هذه مقبلة نحوها همست لنادية من خلال أسنانها، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة الثقة بنفسها: «تظاهري بأنك لا تعرفيني يا ابنتي ومهما يحدث، ومهما تبلغ قسوة المحنة لا تنبسي بكلمة أو حركة، حرصاً على حياته هو لا حياتي»

وفي اللحظة التالية اقتربت منها سنجار ووضعت يدها على كتفها، فقالت لها: ماذا تريدين مني؟

فقالت: «تعالِي»، ودفعتها بيدها نحو الساحة الواقعة أمام إيفان أوجاريف، فلما بلغت العجوز مكانه اعتدلت في وقفتها وعقدت ذراعيها فوق صدرها، وانتظرت.

وسألها: «أأنت مارفا ستروجوف؟»

قالت: «نعم»

فقال: «ألا تعدلين عن أقوالك التي أجبتني بها منذ أيام في أومسك؟»

قالت: «لقد قلت كل ما عندي!»

فقال: «أتجهلين أن ابنك ميشيل ستروجوف، رسول القيصر، قد مر بأومسك؟»

قالت: «نعم»

فقال: «والرجل الذى ظننته ابنك في محطة البريد؟ ألم يكن هو»

قالت: «لم يكن ابني!»

قال: «ومنذ تلك الساعة لم تريه وسط هؤلاء الأسرى؟»

قالت: «كلا»

وأمام هذه الإجابة التي نمت عن إصرار تام على إنكار كل شيء، سرت بين الجماهير مهمة مسموعة، فلوح لها إيفان مهددا واستطرد يقول للعجوز: «اسمعي، إن ابنك هنا، وسوف تدلين عليه فورا، سوف يتتبع أمامك جميع هؤلاء الأسرى، وإذا لم ترشدي إلى ميشيل ستروجوف فسوف تنالين جلدات بالسياط بعدد هؤلاء جميعا!»

وكان إيفان أوجاريف يدرك جيدا أن المرأة لن تتكلم برغم أي تهديد أو تعذيب، ومن ثم كان يعتمد لاكتشاف غريمه

على ما قد يبدو عليه من انفعال حين يلتقى بأمه وجهها لوجه ، وقد كان في استطاعة إيفان أن يأمر بتفتيش الأسرى جميعا ، لضبط الرسالة ، لكنه كان يخشى أن يكون الفتى قد حفظ ما فيها وأعدمها ، وإذن فلا مفر من الحيلولة دون وصول الشاب نفسه إلى أركوتسك ، لا الرسالة فقط.

وكانت نادية قد سمعت كل شيء ، وأدركت أن الشاب أراد أن يعبر المناطق المحتلة متخفيا ، وسرعان ما بدأ طابور الأسرى يتتابع أمام مارفا ستروجوف ، التي ظلت جامدة كتمثال ، دون أن يبدو الانفعال في نظرها لأي أسير ، وكان ابنها في الصفوف الأخيرة ، فلما مر أمام أمه أغمضت نادية عينيها كيلا ترى ما قد يحدث ، واستطاع الفتى الاحتفاظ بثباته في الظاهر ، فانتهى العرض بهزيمة أوجاريف على يد الأم وابنها ، وإذ ذاك همست له سنجار: السوط.

فصاح منفعلا: «نعم ، السوط لهذه الشمطاء ، حتى تموت أو تتكلم»

واقترب من المرأة جندي من التتار ، حاملا آلة العذاب الرهيبة المصنوعة من خيوط الحرير المقتول ، والتي تكفي مائة وعشرون جلدة منها لقتل المحكوم عليه ، وكانت مارفا تعرف ذلك ، لكنها كانت تعرف أيضا أن أفطع عذاب لن يحملها على الكلام ، ولو استشهدت في سبيل الكتمان.

وألقيت مارفا على ركبتيها على الأرض، بمعاونة جنديين، وتمزق ثوبها من الخلف فظهر ظهرها عاريا، وثبت خنجر أمام صدرها بحيث إذا انهارت تحت وقع السياط نفذ الخنجر في قلبها، ووقف الجندي أمامها ينتظر الأمر بالتنفيذ.

وصاع به أوجارييف: «هيا»، فشق صفيير السوط الهواء، ولكن قبل أن يهوى على ظهر المرأة اختطفته يد قوية من الجلاد، وإذا ميشيل ستروجوف يجابه غريمه وجها لوجه، لقد ضعف أمام المنظر الرهيب، ولئن كان قد احتمل سوط إيفان أوجارييف في محطة أيشيم فإنه لم يقو على احتمال أن يهوى على ظهر أمه الآن.

وصاح أوجارييف ظافرا: «ميشيل ستروجوف»، ثم تقدم منه خطوة، وعاد يصيح: «آه رجل أيشيم؟»، فأجابه الشاب: «هو بعينه» ثم رفع السوط وهو به على وجه إيفان أوجارييف فمزقه، وهو يقول: «واحدة.. واحدة»، وصاح متفرج لم يميزه أحد بين صفوف الأسرى: «أحسننت».

وفي اللحظة التالية انقض عشرون جنديا على ميشيل ستروجوف حتى كادوا يقتلونه، فهتف بهم إيفان أوجارييف غاضبا: «هذا الرجل مدخر لعدالة الخان، فتشوه».

وحين فتشوه عشروا على رسالة القيصر بين طيات ثيابه، ولم يكن قد وجد وقتا لإعدامها، فسلمت فورا إلى إيفان أوجارييف.

ولم يكن المتفرج الذى هتف بقوله: «أحسننت» غير الصحفي الفرنسي جوليفيه، الذى توقف وزميله بلونت في «زابدييرو» لتتبع آخر الأنباء فأتيح لهما أن يحضرا المشهد السالف، وأجابه بلونت هامسا: «لقد عرف البطل كيف ينتقم لحادث أيشيم، لكنه قضى على نفسه بالموت، وكان خيرا له كي يتم مهمته ألا يظهر إلى النهاية».

فقال: «كيف؟، أيترك أمه تموت بالسياط؟!».

فقال: «وهل حقق الآن مصيرا أفضل، سواء لها أو لنفسه أو لأخته؟».

فقال جوليفيه: «إنها قصة تستحق أن تنشر على أية حال، وليت إيفان أوجاريف يطلعنا على محتويات الرسالة!».

وفي أثناء ذلك، كان إيفان أوجاريف، بعد أن مسح الدم عن وجهه، قد فض أختام رسالة القيصر وقرأها بإمعان مرة ومرات كأنما أراد أن ينفذ إلى خباياها، ثم أمر بأن تشدد الحراسة على ميشيل ستروجوف في الطريق إلى تومسك، وبعد دقائق كان يتقدم الجيش إلى حيث ينتظره الخان في تلك المدينة.

الفتح الظافر

كان الخان يتأهب لاستقبال جيوشه الظافرة في تومسك بالاحتفالات الباهرة التي تموج بالغناء والرقص والمجون والخلاعة، وقد اختار لتلك الاحتفالات - طبقا للذوق الآسيوي - مساحة كبيرة تقع فوق التل الذى يشرف من ارتفاع مئات الأقدام على مجرى نهر توم، حيث يحفل الأفق بالمباني الأنيقة والكنائس ذات القباب الشاهقة والغابات الغارقة في الضباب الدافئ والخضرة التي تتناثر وسطها أشجار الأرز والصنوبر، وإلى يسار الساحة أقيم نموذج لقصر ذي هندسة غريبة يمثل صروح التتار وسلاطين بخارى، كما أقيمت شرفات خصصت للخان وحاشيته وحريمه وحريم كبار رجال دولته.

وكانت بين أولئك «السلطانات» اللواتي اشتراهن من أسواق العبيد في بلاد القوقاز والعجم، المحجبات والسافرات، لكنهن جميعا كن يرتدين أفخر الثياب التي تدع أذرعهن عارية تظهر الأساور الكثيرة المثبتة إلى بعضها البعض بسلاسل من الأحجار الكريمة، عدا سراويلهن الزاهية وأرديتهن الحريرية

التي تحدث حفيفا ورفيفا محبيين إلى قلوب الشرقيين ،
وكان يلفت النظر فيهن عيونهن النجل ، أسنانهن اللؤلؤية
وبشرتهن الخمرية وأجفانهن المكحلة وأهدابهن الطويلة.

وكان ينتشر تحت تلك الشرفة المخصصة للخان عدد
كبير من الحراس المسلحين بشتى أنواع الأسلحة ، تأهباً
لأي حادث ، وحول الساحة كلها يزدحم جمهور غفير يمثل
جميع عناصر أهل آسيا الوسطى ، من تركمان ومنشوريين
ومغول وبخاريين وعجم وصينيين وتركستانيين ، ومع بعضهم
نساءهم اللواتي تنوعت أزيأؤهن وأشكالهن ، ولم يتخلف عن
حضور المهرجان غير أهل سيبريا الذين فر بعضهم ولزم
الآخرون بيوتهم خشية السلب والنهب في نهاية الاحتفال.

وفي الساعة الرابعة دخل الخان ساحة المهرجان بين
أصوات الطبول والمزمار والمدافع والنفير ، ممتطياً صهوة جواده
الخاص الذى علقت على جبينه حلية من الماس البراق ،
وكان يرتدى زيه الحربي ، وإلى جواره كبار رجال حاشيته
وحكومته وأركان حربه ، وفي تلك اللحظة ظهرت في الشرفة
أولى نساء فيوفار ، سلطانة بخارى ، وكانت من أصل فارسي ،
وتمتاز بجمال صاعق ، وخلافا للتقاليد ، واتباعاً لنزوة طارئة
من نزوات الخان ، ظهرت امرأته الأولى أمام الملاء سافرة
الوجه ، ينسدل شعرها على كتفيها الناصعتين اللتين لا يكاد
يستترهما الشال الحريري المذهب الشفاف ، وتزدحم ثيابها
بمختلف أنواع الحلي الثمينة من ذهب وفضة وفيروز وزمرد

وكهرمان وياقوت وغيرها، حتى لقد بدت الثياب وكأنها نسجت من الأحجار الكريمة، أما جيدها ورقبتها ورسغها وقدمها فقد تالأت بآلاف من الماسات التي تزيد قيمتها على المليون روبية.

وترجل الخان وحاشيته عن جيادهم، واتخذوا مجلسهم تحت خيمة فاخرة أقيمت وسط الشرفة الأولى، وأمام الخيمة كالعادة، وضع المصحف على قاعدته الخاصة، وقبيل الساعة الخامسة علت أصوات النفير والأبواق معلنة وصول الساعد الأيمن للخان، أو مستشاره الأول: إيفان أوجارييف، وكان يرتدي في هذه المرة سترة التتار العسكرية، وتقدم بجواده أمام خيمة الخان، يحيط به فريق من جنود معسكر زابدييرو، الذين احتشدوا في أركان الساحة بحيث لم يبق مكان لغير المسرح الذى ستعرض عليه الملاهي المنوعة، وكان بين المتفرجين الصحفيان جوليفيه وبلونت اللذان رغبا في حضور احتفالات التتار بدخول تومسك قبل أن يستأنفا سفرهما إلى أركوتسك بغية الانتقال إلى صفوف الروس بعد أن رأوا الكفاية من همجية التتار وحرائقتهم وجرائمهم ونهبهم وسلبهم إلى حد عافتها معه نفساهما، وهكذا جلسا يشبعان فضولهما ويستمدان موضوعات لتعليقاتهما من مشاهدة المهرجان بكل دقائقه، وأبهة الخان، ونسائه وحرime، وجيشه، وحراسه، لكنهما لم يملكا نفسيهما من الاشمئزاز حين مثل إيفان أوجارييف أمام الخان تمهيدا لبدء الاحتفال.

وكانت البداية أليمة بالنسبة لذوي المشاعر المرهفة، فإن الاحتفال بالنصر لم يكن ليكمل بغير إذلال المهزومين أمام المألأ، ومن ثم هوت سياط الجنود على مئات الأسرى بلا رحمة، وهم يمرون أمام الخان قبل أن تحتويهم سجون المدينة، ثم جاء دور ميشيل ستروجوف في المرور، وكان يتولى حراسته حرس خاص طبقا لأوامر إيفان أوجارييف، وتوجست أمه شرا، فقد كانت تعلم أن أوجارييف ليس بالذي ينسى الإساءة، وأنه لابد سينتقم للسطو الذي أهوى به غريمه على وجهه علانية، انتقاما تتجلى فيه همجية التتار في أبشع صورها، وكان الذي يؤلم الأم بصفة خاصة أنها هي التي تسببت في هذا الهول الذي يوشك أن يلحق بابنها، فلو سيطرت على عاطفتها حين لقيته في محطة أومسك لواصل الشاب رحلته ووصل إلى غايته في أمان.

جاء دور ستروجوف في المثول أمام الخان، فهتف به أوجارييف: «عفر جبهتك بالتراب!»

فأجاب الشاب: «لن أفعل!» وللحال امتدت أيدي جنديين لقهره على الانحناء، فكان نصيبهما الإلقاء بهما على الأرض بدفعة قوية من ساعده المقتول.

وصاح إيفان أوجارييف غاضبا: «سيكون الموت نصيبك»

فأجاب ستروجوف مزهوا: «سأموت، لكن الأثر الذي خلفه السوط على وجهك أيها الخائن لن يزول أبد الدهر».

وعند هذا شحب وجه إيفان شحوبا شديدا ، فسأله الخان مستفسرا: «من يكن هذا الأسير؟»

فقال: «جاسوس روسي!»

وبنطقه هذه العبارة أدرك أوجارييف أي عقاب صارم رهيب أراد أن ينزل بالشاب ، وتقدم ميشيل خطوة نحو إيفان ، فأوقفه الحراس ، وإذ ذاك أوماً الخان بإشارة انحنت له الجماهير على أثرها طائعة ، ثم حمل إليه المصحف الشريف ففتحه ووضع إصبعه على سطر منه كيفما اتفق ، وكانت تلك عادة يلجأ اليها الشرقيون كثيرا لمعرفة الطالع وتقرير الخطط ، ويسمونها «الفال».

وعلى أثر ذلك تناول كبير العلماء المصحف وقرأ بصوت مسموع الآية التي وقعت عليها أصبع الخان

وحين فرغ من تلاوتها التفت الخان إلى ستروجوف وقال له وهو يشير نحوه بأصبعه مهددا : «جاسوس روسي؟ أجئت لترى ما يجري في معسكر التتار؟!

إذن .. أنظر بكل طاقة عينيك..»

وأجلس ميشيل ستروجوف مقيد اليدين تحت عرش الخان ، على سلم الشرفة ، ولا ريب أن إيفان أوجارييف ، الخبير بتقاليد التتار ، فهم ما ينطوي عليه تهديد الخان ، فقد افترت شفتاه عن ابتسامة شماتة قاسية ، ثم جلس

إلى جوار مولاه، وفي اللحظة التالية دوى النفير مؤذنا ببدء استعراضات اللهو والطرب، ونظر ميشيل ستروجوف إلى حيث أمر أن ينظر.

خرجت إلى الساحة أسراب من الراقصات والعازفات على «الدوتار» والماندولين، وغيرها من آلات موسيقى التتار، ثم بدأ الرقص، وكانت الراقصات من أصل فارسي، يرتدين أزياءهن الوطنية وحليهن الباهرة، وقد رحن يعرضن مختلف الرقصات التي يحذقنها، منفردات ومجموعات وكانت وجوههن سافرة، ولكن بين الفينة والفينة كن يتشحن بخمار شفاف يزيدهن فتنة، ويبدو مثل سحابة من الضباب تتتابع على عيونهن البراقة، لكن الذى أدهش «جوليفيه» منهن أنهن كن أميل إلى التراخي والبلادة منهن إلى الحمية المفورة، أقرب إلى راقصات الهند الوقورات منهن إلى راقصات مصر المثيرات للحواس.

ولم يكد ينتهى الاستعراض الأول حتى سمع صوت يصيح بستروجوف في صرامة وتشف: «انظر بكل طاقة عينيك، انظر!» كان صاحب الصيحة رجل من التتار طويل القامة شديد البأس، هو الجلاد المنفذ لأوامر الخان العليا، وكان يجلس خلف ميشيل ستروجوف وفي يده خنجر مدبب، وإلى جواره موقد تشتعل فيه قطع من الفحم بغير دخان ظاهر، وإن تصاعد منها بخار خفيف صادر عن مواد أخرى خلطت بالفحم، هي خليط من اللبان والبخور الجاوي.

ثم أعقب فريق الراقصات الفارسيات فريق آخر من جنس مخالف عرفه ميشيل ستروجوف على الفور، كما عرفه الصحفيان، فقد التفت بلونت على الأثر نحو زميله قائلاً: «أتذكر؟ إنهن عجريات نيجنى نوفجورود!».

فأجابه جولييفيه مؤمناً: «نعم، وأحسب أن عيون هؤلاء الجاسوسات تجلب عليهن مالا أكثر من سيقانهن».

وكانت في مقدمتهن سنجار، وقد ارتدت زيا باهرا زادهها جمالا وإغراء، لكنها لم تكن ترقص، وإنما وقفت كتمثال وسط زميلاتهما اللواتي رحن يوقعن رقصات شتى البلاد التي يجبنها: بوهيميا ومصر وإيطاليا وإسبانيا وغيرها، وبين حين وآخر كانت سنجار تستحث بقية الرهط بصاجات تضربها بيديها، ثم تقدم فتى لا يزيد على الخامسة عشرة، وفي يده آلة موسيقية راح يعزف عليها ويغني غناء شجيا، بينما جعلت إحدى زميلاته ترقص رقصة مثيرة، وفي النهاية نثر الخان وحاشيته على الفرقة قطعة كثيرة من الذهب، من شتى فئات العملة التي نهبها التتار أثناء غزواتهم، وحين صمت الضجيج ارتفع صوت الجلال يردد عبارته الرهيبة وهو يضع يده على تف ستروجوف بقوة:

«انظر بكل طاقة عينيك، انظر!»

وكانت الشمس قد أخذت تنحدر نحو الأفق، وتباشير الظلمة قد بدأت تزحف على السهول، فتزيد كتلة أشجار

الأرز والصنوبر قتاما على ققام، ومياه نهر التوم تزداد سوادا على سواد، والليل لا يني يزحف على التل الذى يشرف على المدينة وتقام فوقه الاحتفالات.

وفجأة أقبل على المكان مئات العبيد يحملون المشاعل المتوهجة، بينما اشتدت حركة الراقصات الغجريات عنفا ووحشية، وازدادت الآلات الوترية صخبا وضجيجا، وجعل المغنون يتصايحون صيحات حادة مخيفة، ثم أقبلت فصيلة من التتار في زيهم الحربى فشاركت في الرقص والضجيج، وأخذ أفرادها يطلقون النار من مسدساتهم في الهواء، ثم انطفأت جميع المشاعل فجأة، وتوقفت جميع الراقصات، واختفت الراقصات، وبدا كأن المهرجان قد انتهى، وبإيماء من الخان أحضر ميشيل ستروجوف إلى وسط المكان، فالتفت جوليفيه إلى زميله وقال: «أتعزم أن تشهد نهاية المأساة؟»

فقال : «كلا، إن قرأني في غنى عن وصف هذه المشاهد»

فقال : «يا للفتى المسكين، إنه كان يستحق أن يموت في الميدان ميتة أفضل من هذه»

قال : «ألا نستطيع أن نفعل من أجله شيئا؟»، فهز رأسه أسفا .

وخرج الصحفيان من المكان وهما يتذاكران شهامة ميشيل ستروجوف بإزائهما أثناء رحلتهم المشتركة، وبعد ساعة كانا ينهبان الطريق إلى أركوتسك، على أن يقفا على تفصيل «حملة الانتقام» هذه بعد أن ينضما إلى صفوف الروس.

وفي أثناء ذلك كان ميشيل ستروجوف قد أوقف أمام الخان، وفي عينيه نظرة احتقار له وإيفان أوجارييف، كان يتوقع الموت على أيديهما، لكنهما عبثا حاولا أن يتبيننا في مسلكه أمانة ضعف أو تخاذل.

وأوماً الخان إيماءة أخرى، فدفعا الشاب نحو عرشه خطوات، وإذ ذاك هتف به في لهجة تشف: «لقد جئت تستطلع، يا جاسوس الروس، فمتعت نظرك لآخر مرة، وبعد لحظة سوف تغمض عيناك عن النور إلى الأبد»

إذن فقد حكم على ميشيل ستروجوف بما هو أمر من الموت، بالعمى.

وبرغم ذلك فإن الشاب وهو يسمع الحكم الرهيب عليه لم يضعف، وإنما ظل بلا حراك، مفتوح العينين إلى أقصاهما، كأنما يريد أن يركز حياته كلها في نظرة أخيرة، فإن استجداء الرحمة من هؤلاء الوحوش كان في نظره عقيما، ومزريا، ومن ثم لم يفكر فيه لحظة، وإنما فكر في مهمته المقضي عليها بالفشل، وفي أمه، ونادية، اللتين لن يراهما إلى الأبد، لكنه لم يظهر شيئا من الانفعالات التي تعتمل في نفسه، وأحس برغبة قوية في أن ينفذ نوعا من الانتقام، على قدر طاقته، فالتفت إلى إيفان أوجارييف وقال له بلهجة تهديد: «إيفان، أيها الخائن، إن آخر لعنة تصدر من عيني سوف تكون لك»، فهز إيفان أوجارييف كتفيه في

استهزاء، وفي تلك اللحظة اقتربت منه أمه، فهتف بها: «أماه، ابقى أمامي كي أودع نور الحياة وأنا أتملى وجهك الحبيب، فتنطفئ عيناى وأنا أنظر إليك».

فاقتربت منه أكثر، لكن إيفان أوجاريف صاح بجنوده: «اطردوا هذه المرأة»، فدفعها جنديان إلى حيث وقفت على بعد خطوات من ولدها.

وظهر الجلال، وفي هذه المرة كان يحمل في يده خنجره المحمي على نار الفحم، وفقا لتقليد التتار في سلب البصر بالسلاح الحاد المحمي.

ولم يحاول ميشيل ستروجوف أن يقاوم، لم يعد وجوده يتركز في غير أمه التي يلتهمها بنظراته الأخيرة مودعا، إن حياته كلها في هذا المشهد الآخر الحبيب، ونظرت إليه مارفا وهى تمد نحوه ذراعيها بلوعة، وممر السلاح المحمي على عيني الشاب، وندت عن المرأة العجوز صرخة يأس، وسقطت على الأرض فاقدة الوعى.

إن ميشيل ستروجوف قد صار أعمى.

وانسحب الخان مع حاشيته من المكان، بعد أن تم تنفيذ مشيئته، ولم يبق في الساحة غير إيفان أوجاريف وحملة المشاعل، فاقترب إيفان ببطء من ضحيته، وأحس ستروجوف باقترابه فنصب قامته، ثم أخرج الخائن من جيبه رسالة الامبراطور، وفتحها، وفي سخرية لاذعة وضعها

أمام عيني الشاب المطفأتين ، قائلاً : «اقرأ الآن يا ميشيل ستروجوف، اقرأ، واذهب فأعد في أركوتسك ما قرأته، إن رسول القيصر الحقيقي هو : إيفان أوجارييف»

ثم دس الآثم الرسالة في ثوبه، وغادر المكان يتبعه حملة المشاعل، بينما بقى ميشيل ستروجوف وحده، على بعد خطوات من أمه الساكنة الحركة، والتي لعلها ماتت.

ومن بعيد كانت تسمع صيحات السكارى والمغنين، كانت تومسك المضيئة تتوهج كمدينة في عيد.

وأرهدف الشاب سمعه، لكن المكان كان صامتاً موحشاً، فجر نفسه متحاملاً نحو المكان الذى سقطت فيه أمه، وانحنى يتحسسها بيديه ويقرب وجهه من وجهها، ويتسمع دقات قلبها، ثم بدا كأنه يكلمها بصوت خافت.

ترى هل كانت العجوز حية، تسمع ما يقوله ولدها؟ إنها لم تحرك ساكناً، فلثم الشاب جبهتها وشعرها الأبيض، ثم نهض يتحسس طريقه نحو أقصى المكان.

وفجأة ظهرت نادية، فاتجهت نحوه مباشرة، وبالخنجر الذى كانت تحمله قطعت القيود التي تقيّد ذراعيه، ثم همست له : «أيها الشقيق».

فهتف بها: «نادية؟، نادية؟»

فقالت : «تعال أيها الشقيق، منذ الساعة ستكون عيناى لك عينين، وسأكون أنا التي تقودك إلى أركوتسك.

صديق في الطريق

بعد نصف ساعة كان ميشيل ستروجوف ونادية قد غادرا تومسك، ولم تكن نادية هي الوحيدة من الأسرى التي استطاعت الفرار في تلك الليلة، فإن فرحة الاحتفال بالنصر، قد أغرت الحراس بشيء من التكاثر والإهمال وفي تشديد الحراسة على الأسرى، بعد الرقابة الطويلة والسهر المتواصل، وهكذا استطاعت الفتاة بعد أن سيقنت مع الأسرى أن تفر من حراسها وتعود إلى مسرح المأساة، حيث شاهدت كل شيء، وفيما كانت السكين المحماة تنتزع البصر من صديقها الشاب استطاعت أن تقمع مشاعرها، فلم تنبس بكلمة أو حركة تلفت الأنظار إليها، وانثال إلى ذهنها إلهام عاجل: «سوف أكون بالنسبة للأعمى بمثابة الكلب الذى يقوده».

وبعد أن ذهب إيفان أوجارييف تدثرت بالظلام وانتظرت حتى انفضت الجماهير وترك ميشيل ستروجوف وحيدا مهملا، إذ لم يعد ثمة خطر منه، ثم برزت من مكنها في اللحظة التي كان فيها الشاب يقبل أمه المغمى عليها ويتأهب للفرار.

وبعد دقائق كانا يهبطان التل، يدها في يده، وبعد أن تبعا مجرى النهر حتى آخر حدود المدينة وضعا أقدامهما على طريق أركوتسك، ولم يجدا صعوبة في الاهتداء إليه، فقد كان الطريق الوحيد الذى يتجه نحو الشرق.

وقادت نادية مرافقها بأقصى سرعة وفي عزمهما أن يصلا إلى كراسنويارسك التي تبعد عن تومسك خمسمائة فرسخ قبل أن يبلغها التتار، وإلا تعرضا لخطر قطعهم المواصلات.

وكيف استطاعت نادية احتمال متاعب ليلتي ١٦ و١٧ أغسطس؟ كيف وجدت القوة الجسدية اللازمة لقطع مثل تلك المرحلة الطويلة؟ كيف استطاعت قدامها أن تحملها إلى «سيميلوفسكاو» التي بلغاها في الصباح التالي بعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة، قطعاً فيها خمسين فرسخاً؟!.

وطيلة المسافة لم ينطق ستروجوف بكلمة، وحين وصلا، وجدا البلدة مهجورة إلا من بضع بيوت احتفظت بساكنيها، بينما فر الباقون بأمتعتهم على عربات هربا من الغزاة، وجلست نادية ومرافقها على أول مقعد صادفاه، وهناك طفقت الفتاة تتأمل الشاب لأول مرة بحرية كاملة وهى آمنة من أن يرى نظرتها التي تفيض بالتفاني والرقّة الخالصة، وكانت أهداب الأعمى تغطي نصف عينيّه الجافتين اللتين أتلّفت حرارة الصلب المحمي أعصاب الرؤية فيهما، وإن احتفظتا بنفس النظرة الأخاذة التي كانت لهما قبلا، وفي

تلك اللحظة مد ميشيل يديه يتحسس مرافقته ، وقال لها :
«أهذه أنت يا نادية».

فقالت : «نعم ، أنا بقربك ، ولن أتركك قط يا ميشيل !».

وكانت هذه أول مرة تناديه فيها باسمه ، فارتجف وقد
أدرك أنها فهمت كل شيء عن شخصيته ، وقال لها :
«نادية ، لا مفر من أن ننفصل !»

فصاحت قائلة : «ولم ننفصل يا ميشيل؟»

قال : «لست أود أن أكون عقبة في رحلتك ، إن أباك
ينتظرك في أركوتسك ويجب أن تلحقني به»

فقالت : «إن أباي ليلعنني يا ميشيل لو تخليت عنك بعد
كل ما فعلته من أجلي !»

فقال : «نادية ، نادية ، ينبغي ألا تفكري إلا في أبيك».

فقالت : «ميشيل ، إنك بحاجة إليّ أكثر من أباي ،
فهل تزمع العدول عن الذهاب إلى أركوتسك !».

قال : «لا»

قالت : «لكنك فقدت الرسالة التي كنت تحملها»

فقال : «أتعنين الرسالة التي سرقها إيفان أوجارييف؟
سوف أكون في غنى عنها ، لقد عاملوني كجاسوس ، إذن
سأتصرف كجاسوس ، سوف أنقل إلى أركوتسك ما رأيت

وسمعت ، وأقسم أمام الله أن الخائن سيجدني أمامه مرة أخرى وجهاً لوجه ، ولكن يجب أن أصل قبله !» .

فقالت : «وتتحدث عن انفصالنا؟»

فقال : «لقد سلبني التعساء كل شيء !» .

قالت : « بقيت معي بضع روبيات ، وعيناى ، أستطيع أن أرى لك وأقودك إلى حيث تريد»

فقال : «وكيف نذهب؟»

قالت : «على أقدامنا»

قال : «وكيف نعيش؟»

قالت : «من التسول !»

فقال : «إذن هيا بنا يا نادية ، !»

قالت : «هيا ، يا ميشيل !»

وكانا قد استراحا ساعة ، فنهضا ، وبدأت نادية تمارس دور المتسولة فاستطاعت الحصول على ما يسد رمقهما ويطفئ ظمأهما ، وبعد أن أكلا وشربا سلكا طريق أركوتسك ، وكانت الفتاة تقاوم التعب والإجهاد بنشاط دون أي تذمر ، أما ميشيل فكان يتحامل على نفسه ويأمل متى بلغ كراسنويارسك أن يقنع حاكمها العام بشخصيته ويحصل منه على الوسائل التي توصله إلى أركوتسك بأقصى سرعة ، وفي

انتظار ذلك سار الاثنان مستغرقين في أفكارهما، لا يتكلمان إلا قليلا، كأنما كانت أيديهما المتشابكة تغنيهما عن الكلام وتتكفل بنقل أفكارهما، ولكن بين حين وآخر كان ميشيل يقول: «تكلمي يا نادية!».

فتجيبه بصوت تحاول أن يخلو من أثر الإجهاد: «فيما يا ميشيل، إننا نفكر سويا».

ولكن بعد مرور ساعتين من تركهما كراسنيوارسك توقف ميشيل بغتة وسأل الفتاة: «هل الطريق مهجور؟»
فقالت: «تماما».

قال: «ألا تسمعين صوتا من بعيد؟»

قالت: «نعم أسمع»

فقال: «ربما كان صوت التتار قادمين، فلنختبئ، انظري جيدا»

وصعدت الفتاة مرتفعا على جانب الطريق ثم عادت تقول: «إنها عربة يقودها شاب»

فسألها: «أهو يسير وحده؟»، قالت: «نعم»

فتردد ميشيل هنيهة وهو يسأل نفسه: أياختبئ خشية أن يكون القادم من الأعداء، أم يغامر بانتهاز الفرصة لعله يجد مكانا في العربة، إن لم يكن لنفسه فلنادية على الأقل،

بينما يسير هو متكئا على العربى وبمحاذاتها؟

وقرر أن يجازف ، وأقبلت العربى يقودها شاب بجواره
كلب يؤنسه ، وأدركت نادىة من هيئة الشاب أنه روسى ،
يوحى بالثقة ، وكان يسير الهوينى وكأنه لا يدرك أن التتار
قد يقطعون عليه الطريق لو أدركوه ، وحين حاذى المسافرين
أوقف العربى ونظر إلى الفتاة مبتسما ، وقال : « أين تزمعان
الذهاب هكذا؟ »

فأجابه ميشيل ستروجوف : « إلى أركوتسك »

فقال الشاب : « ألا تعلم أن بينك وبينها فراسخ وفراسخ؟ » ،
قال : « أعلم ذلك »

فقال الشاب : « وتذهب إليها ماشيا؟ »

قال : « نعم » .

فقال : « قد تقوى أنت ، ولكن الآنسة .. »

فقال ستروجوف : « إنها أختي »

قال : « فلتكن أختك ، ولكن صدقني أنها لن تستطيع أن
تبلغ أركوتسك قط ! » .

فقال ستروجوف : « أيها الصديق ، لقد سلبنا التتار
نقودنا ، وليس معي ما أدفعه لك ، ولكن إذا استطعت أن
تأخذ أختي إلى جانبك فإني على استعداد لأن أتبع عربتك

على قدمي، ولو عَدَّوًا إذا اقتضى الأمر، ولن أعوقك لحظة.

وهنا قالت نادية للشاب : «سيدى، إن أخي أعمى!»

فصاح الشاب في دهشة: «أعمى؟!»

قالت: «نعم قد أحرق التتار عينيه»

فازداد الشاب دهشة وقال: «أحرق التتار عينيه؟، يا للمسكين!، إنني ذاهب إلى كراسنويارسك فاصحباني إلى هناك، نستطيع أن نجلس ثلاثتنا معا ونضع الكلب تحت أقدامنا».

فقال ستروجوف : «شكرا لك أيها الصديق، ما اسمك؟»
قال: «نيقولا بيجاسوف»

فقال: «لن أنسى هذا الاسم»

وقال له الشاب: «هيا أصعد أنت وأختك، وستجدان بعض الطعام في مؤخرة العربة».

ولم تكد تسير بهم العربة قليلا، حتى أعانت حركتها الرتيبة الفتاة على النعاس، بعد الإجهاد الطويل، وإذ ذاك قال نيقولا لستروجوف: «إنها ظريفة»

فقال ستروجوف: «نعم»

فسأله الشاب: «هل أنتما آتيان من بعيد؟»

قال : «نعم ، من بعيد جدا»

فقال : «يا لكما من مسكينين ، لابد أن حرق عينيك قد آلمك؟»

فقال : «وأي ألم؟» .

فسأله : «ألم تبك؟»

فقال : «بلى»

فقال : «لو كنت مكانك لبكيت أيضا ، ينبغي التفكير في أن الإنسان لن يرى من يحب ، ولكنهم يرونك ، ولعل في هذا بعض العزاء» .

فقال : «ربما ، ولكن قل لي أيها الصديق ، ألم ترني في مكان ما من قبل؟»

فقال : «أنت؟ ، كلا ، مطلقا !»

فقال : «إن صوتك يبدو مألوفا لأذني»

قال : «لعلك تقول هذا لتعرف من أين أنا قادم ، أنا قادم من كوليفان»

فقال : «من كوليفان؟ ، بالضبط ، هناك قابلتك ، ألم تكن في مكتب التلغراف؟»

قال : «هذا صحيح ، كنت المكلف بإرسال البرقيات»

قال : «أتذكر يوم تشاجر صحيفان فرنسي وإنجليزي

على أسبقية الوقوف أمام نافذتك، وضمن الإنجليزي برقيته آيات من التوراة»

قال: «هذا جائز، لكنى لا أذكره، فإني لا أقرأ البرقيات التي أرسلها، ما دام واجبي يحتم عليّ أن أنساها فالأسهل أن أجهلها!».

ومضت العربدة بركابها الهوينى كدأبها، كانت تسير ثلاث ساعات وتستريح ساعة - من أجل الجواد - طيلة النهار والليل، وفي أثناء الاستراحة كان الركاب الثلاثة يتناولون الطعام مع الكلب المخلص سيركو، وكانت المؤن التي في العربدة تكفي لعشرين شخصا، وقد وضعها نيقولا تحت تصرف نادبة وميشيل في كرم بالغ.

وبعد يوم من الراحة استردت نادبة بعض قواها، ومضت الرحلة رغم بطئها في سير منتظم وفي ظروف ملائمة، وأحيانا كان الناس يغلب نيقولا فيغفي قليلا، وأثناء ذلك كان ميشيل يتناول الزمام فيسرع في السير، ثم تعود العربدة إلى سيرها البطيء حين يستيقظ صاحبها.

وعلى هذا المنوال بلغ الركب نهر «أيشيمسك» ثم نهر ماريسك فمجرى ماء «تشولا» الذى يفصل سيبيريا الشرقية عن سيبيريا الغربية، وكان الطريق أحيانا منبسطا يمر وسط الحقول المترامية، وأحيانا يتخلل غابات وأحراشا لا نهاية لها، وكانت أكثر البلاد والقرى مهجورة من سكانها، حتى حدود

نهر «ينيساي» الذى قدر القوم هناك أنه قد يعوق الغزاة. وفي يوم ٢٢ أغسطس بلغت العربدة محلة «أتشينسك» على بعد ثلاثمائة وثمانين فرسخا من تومسك، وبقي يفصلها عن كراسنويارسك مائة وعشرون فرسخا، وكان قد مضى على الركاب الثلاثة ستة أيام، ومرة جاء ذكر الغزو في حديث بينهم فقال نيقولا: «يحتمل أن يتوقف التتار عن الزحف خلال فصل الشتاء»

فأجابه ميشيل ستروجوف: «أخشى ألا يفعلوا»

فقال: «لعلك على حق، فإن معهم رجلا شريرا يلهب ظهورهم كلما فتروا، هل سمعت باسم إيفان أوجارييف؟»، قال: «نعم»
قال: «أتعلم أن من أفضع الأشياء أن يخون المرء وطنه؟»، قال: «هذا صحيح».

فقال: «أراك لا تشمئز حين أحدثك عن إيفان أوجارييف، في حين أن قلب كل روسي ينبغي أن ينتفض غضبا عند سماع هذا الاسم»

فقال: «أؤكد لك أيها الصديق أنني أكرهه أكثر مما تستطيع يوما أن تكرهه»

فقال: «هذا عسير التصديق، فإنني حين أفكر في الشر الذى ألحقه ببلادنا أود لو أقتله».

فقال ستروجوف في هدوء متكلف: «وأنا أيضا، ثق من ذلك».

في ممر «ينيساي»

عند غروب اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس،
بلغ الרכب مشارف «كراسنويارسك»

وكان حسن الحظ أن لم يبد حتى تلك الساعة أي أثر
لكشافة التتار أو طلائعهم، وإن بدا ذلك غير مفهوم، ودل
على أن ثمة ظرفا خطيرا لابد قد عاق جيوش الخان عن
الزحف العاجل نحو أركوتسك .

وكان هذا ما حدث، فإن جيشا روسيا جديدا كان قد
زحف على تومسك محاولا استردادها من أيدي التتار،
لكنه ضعف عن التغلب على قوات العدو المتجمعة، التي
تفوقه، ومن ثم اضطر إلى التقهقر أمامها، وإلى المعركة التي
وقعت بينهما منذ ثلاثة أيام يرجع السر في عدم ظهور طلائع
التتار هناك في كراسنويارسك، ولكن ميشيل ستروجوف وإن
جهل هذه التفصيلات، لم يكن يجهل أنه يسبق التتار
بمسيرة بضعة أيام، وأن من الممكن أن يبلغ أركوتسك قبلهم
برغم الثمانمائة وخمسين فرسخا الباقية بينه وبينها.

ودخلت العربية مدينة كراسنويارسك بعد الساعة السابعة مساءً بقليل، وكم كانت دهشة ركبها بالغة حين وجدوا المدينة الكبيرة مهجورة من قاطنيها تماماً، فما كان ثمة من يسير في شوارعها العريضة النظيفة، أو يتنزه في متنزهها الجميل الممتد وسط الغابة حتى النهر، وقد سكت جرس الكاتدرائية الضخم كأنما أصيب بالخرس، وكذلك أجراس الكنائس الأخرى الصغيرة، ورغم ما عرفت به المدن الروسية من استمرار أجراس كنائسها في الرنين دون انقطاع.

كانت آخر برقية وصلت إلى حاكم المدينة من مكتب القيصر قبل قطع الأسلاك قد أوصت السلطات وجميع قاطني المدينة بإخلائها فوراً، وأن يهاجروا إلى أركوتسك بممتلكاتهم الثمينة، وكل ما قد يكون ذا فائدة للتتار، وبذلك يتركون المدينة للغزاة قاعاً صفصفاً وصحراء قاحلة، ونفذ الشعب الأمر بإجماع رائع، فلم يبق كائن حي واحد في كراسنويارسك!.

وراح الركاب الثلاثة يذرعون شوارع المدينة وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، وكانت أصواتهم وحدها كل ما تدرده أصداء المدينة المهجورة، وأحس ميشيل ستروجوف بغیظ مكتوم إزاء حظه السيئ الذى عرقل اتصاله بحاكم المدينة والحصول بواسطته على وسيلة سريعة للوصول إلى أركوتسك.

واستقر رأى الجماعة على المبيت في أي مكان هناك، ثم استئناف السفر في الصباح، لتعذر عبور نهر «ينيساي» في

غير ضوء النهار، ودفعوا باب أول بيت صادفهم فانفتح وكان خاليا بطبيعة الحال، مثل بقية بيوت المدينة، فقصوا فيه ليلتهم، وفي فجر اليوم التالي استأنفت العربة سيرها نحو نهر «ينيساي»، وكان ميشيل ستروجوف بادي القلق يفكر في احتمال أن يكون الروس قد أتلفوا جميع الناقلات التي تعبر النهر كي يعرقلوا تقدم الغزاة، وعندئذ يتعذر على الركب أن يعبر المجرى العريض الذى تستغرق الناقلة في عبوره في الظروف العادية ثلاث ساعات.

ووصلت العربة إلى ضفة النهر اليسرى بينما كانت الشمس ترسل أشعتها فأجابته الفتاة: «إن النهار لم يكد يبرز بعد، والضباب كثيف لا يكاد يرى معه الماء».

وكان جريان المياه السريع في ذلك الفصل من السنة يحدث هديرا مسموعا أصغى إليه الثلاثة وهم ينتظرون انقشاع الضباب وشروق الشمس، ثم بدأت الريح تهب فتساهم في طرد الضباب الذى يحول دون الرؤية، وظهرت على الضفة الأخرى للنهر صفوف الأشجار، فقال نيقولا لميشيل: «ليتك تستطيع أن ترى هذا المنظر الرائع لجمال الطبيعة أيها المسكين».

فسأله هذا: «ألا ترى سفينة أو زورقا..؟ انظر جيدا أيها الصديق، على هذه الضفة والضفة المقابلة.. لعلك تعثر على ناقلة؟»

وتقدم نيقولا ونادية نحو ضفة النهر ليمعنا النظر، وكان عرض النهر في تلك المنطقة لا يقل عن فرسخ ونصف فرسخ، وتتوسطه بعض الجزر الصغيرة وعلى الضفة الأخرى تبدو تلال عالية تتوج هاماتها الغابات، ولكن ليس ثمة ناقلة من أي نوع بين الضفتين أو عند الجزر، كان المهاجرين قد دمروا كل شيء ليعرقلوا زحف التتار.

وبغثة هتف ستروجوف: «إنى أتذكر الآن أن في أقصى المدينة مرفأ صغيرا لعبور النهر، ولا يبعد أن يكون الراحلون قد نسوا فيه أداة تصلح للانتقال، هيا بنا أيها الرفاق.

وسار الثلاثة بخطى سريعة حتى بلغوا ذلك المرفأ الصغير بعد نحو عشرين دقيقة، فلم يعثروا فيه على بغيتهم، لكن ميشيل ستروجوف لم ييأس، بل استحثهم على البحث في الأكواخ المطلة على المرفأ، لعلهم يجدون فيها شيئا يصلح لعبور النهر، وتفرق نيقولا ونادية كل يفتح بابا ويطل داخله، بينما راح ميشيل يفتح الأبواب بدوره ويتحسس بيده ما قد يكون فيها، وإذ أوشك المبصران أن يكفا عن البحث يائسين تناهت إليهما صيحة من زميلهما الأعمى فخفوا إليه مسرعين، وإذا هو على عتبة باب كوخ من الأكواخ يهتف بهم:

«اتبعاني إلى داخل الكوخ»، ثم قال لهما وهو يتحسس بيده شيئا: «ماذا في هذه القرب؟»، فهتف الشاب: «إنها مملوءة من (الكوميس) ها قد وجدنا مؤونتنا لبقية الرحلة».

لكن فرحة الشاب لم تتم بالعثور على هذا الشراب الوطني المقوى الذى يصنع من اللبن، إذ صاح ستروجوف قائلاً: «ضع قربة منها جانبا، وأفرغ القرب الباقية، إنها سوف تعيننا على عبور النهر، فإن العربة خفيفة وكذلك الجواد، ونستطيع أن نسبح جميعا بمعاونة هذه القرب»

ولم يجد الشاب بدا من الموافقة، ثم احتفظوا بقربة ملاءى بذلك الشراب، وأفرغوا القرب الباقية ثم نفخوها وربطوها، وثبتوا قربتين منها بين عجلات المركبة، وقربتين إلى جانبي الجواد، أما الكلب فقد سبح دون معونة أحد.

ووقف الثلاثة فوق صندوق العربة، فلم يبلغ الماء أكثر من كعوب أقدامهم، وحرص ميشيل ستروجوف وهو يتولى توجيه الجواد ألا يسيره ضد التيار، ولو أدى الأمر بهم إلى بلوغ الضفة الأخرى في نقطة بعيدة عن مواجهة المدينة.

ولقى الركب صعوبة كبيرة في التقدم، ثم زاد الطين بلة وقوعهم في دوامة عنيفة، أخذت العربة تدور فيها حول نفسها بسرعة شديدة، وكاد الجواد يختنق تحت الماء، وأحس الثلاثة بالخطر المحدق وبالقوة التي تجذبهم نحو القاع، وفجأة خلع ميشيل ستروجوف ما يعوقه من الثياب وألقى بنفسه إلى الماء، ثم جذب عنان الجواد بذراعة القوية فأخرجه من مركز الدوامة، وما لبثت العربة أن خرجت من دائرة الخطر واندفعت مع التيار، فهتف نيقولا فرحا «مرحى، مرحى».

وبعد ساعتين من بدء الرحلة كانت العربدة قد بلغت إحدى الجزر الوسطى، بعد أن سبحت ستة فراسخ، فصعد الجواد بالركب إلى سطحها، حيث استراحوا ساعة كاملة، ثم استأنفوا سيرهم على البر حتى نهاية الجزيرة، وهناك انحدروا مرة أخرى إلى النهر.

ولم تكن المرحلة الثانية في صعوبة الأولى، نظرا إلى خلوها من الدوامات، وإن كان التيار فيها أسرع، فجرف الركب معه مسافة خمسة فراسخ أخرى حتى بلغوا الضفة الشرقية للنهر، وحين وضعوا أقدامهم على البر هتف نيقولا منتشيا: «ما كانت المغامرة تكون ممتعة هكذا، لولا ما انطوت عليه من مصاعب».

فقال ميشيل ستروجوف معلقا: «إن ما كان عسيرا علينا أيها الصديق قد يكون مستحيلا بالنسبة للنتار»

وهكذا اطمأن ستروجوف أخيرا إلى أن طريق أركوتسك صار مفتوحا أمامه، وإلى أنه قد سبق النتار بمسيرة أيام، فضلا عن أن النهر سيعوق تقدمهم أياما أخرى حتى تتسنى لهم إقامة قنطرة يعبرونه عليها.

ولأول مرة منذ لقائه المشئوم بإيفان أوجارييف في أومسك أحس أن قلقه يزايد، واطمأن إلى أنه لن يصادف في الغالب عقبة أخرى تعوق وصوله إلى أركوتسك، وهو طريق ممهد، يعد هذا الجزء منه أحسن كثيرا من الأجزاء التي انقضت

في المراحل السابقة من الرحلة، تتخلله أحيانا غابات من الأرز والصنوبر تسير فيها العربة مائة فرسخ في حمى من الشمس المحرقة، لكن القرى والبلاد التي مروا بها كانت كسابقاتها مهجورة تماما من قاطنيها، فخلا الطريق من فلاحي سيبريا ذوى الطابع السلافي .

وكان شهر أغسطس قد دنا من نهايته، فكان الطقس جميلا، والهواء عذبا، وبخاصة في المساء، فلم تضايقهم عاصفة هوجاء، ولم تهطل عليهم أمطار هامية، أما الحرارة أثناء النهار فكانت معتدلة، وتحسنت صحة نادية وستروجوف بعد أن استراحا من عناء الأسر المير، بينما وجد نيقولا في الرحلة الممتعة خير عوض عن عمله الممل الذى كان يقتضيه الجلوس على مقعد أمام جهاز التلغراف اثنتي عشرة ساعة في اليوم.

واستطاع ميشيل ستروجوف إقناع نيقولا بأن يزيد في سرعة الجواد إلى ستين فرسخا في اليوم، متوسلا إلى ذلك بأنه وشقيقته نادية يتعجلان اللحاق بأبيهما في المنفى في أركوتسك، وتأثر نيقولا بهذه القصة فقال لنادية مبتسما.

«أي فرحة سوف يستشعرها مسيو كوربانوف حين تكتحل عيناه برؤيتكما، وتنبسط ذراعا لتعانقاكما، ولكن، آه، لقد نسيت، أي ألم سيحسه المسكين حين يرى ابنه أعمى، إن البهجة لا تكمل في هذه الدنيا».

وفي ٢٨ أغسطس جاوزوا محلة بلايسك، وفي اليوم التالي جاوزوا «ربسك» وفي اليوم الذي يليه وصلوا إلى «كامسك» وهي بلدة صغيرة تقع على نهر صغير يسمى باسمها، فألفوها خالية مهجورة، بيوتها وكنيستها خاوية على عروشها، ليس فيها ثمة إنسان أو حيوان، إن أمر حكومة موسكو قد نفذ بدقة تدعو إلى الإعجاب، والأشياء التي لم يتيسر حملها أتلّفها السكان قبل أن يتركوا بلدتهم للغزاة صحراء قاحلة.

جثة على الطريق

في صبيحة ٤ سبتمبر بلغت العربة «بيروسنسك» وهناك وجد نيقولا لحسن الحظ في فرن مهجورة بعض الكعك المصنوع من الشحم، وكمية كبيرة من الأرز المطبوخ بالماء، فأضيفت المؤونة الجديدة إلى قرية «الكوميس» التي غنموها من كراستويارسك، وبعد استراحة كافية واصل الركب سفره بعد ظهر يوم ٨ سبتمبر.

كانت المسافة الباقية حتى أركوتسك لا تزيد على خمسمائة فرسخ، ولم تظهر بعد في مؤخرة الطريق طلائع التتار، فاستطاع ميشيل ستروجوف أن يوطن نفسه على أنه سوف يمثل في حضرة الغراندوق بعد ثمانية أيام أو عشرة على الأكثر.

وفي أثناء خروج العربة من «بيروسنسك» اخترق الطريق على بعد ثلاثين قدما في مواجهتها أرنب بري.. فهتف نيقولا وقد أظلمت الابتسامة التي كانت تزين وجهه: «آه .. رأييت ؟».

فسأله ميشيل ستروجوف: «ماذا؟».

واستدرك نيقولا قائلاً: «لكنك لم تر بالطبع ، من حسن حظك».

فقاطعت نادية بقولها: «أنا أيضا لم أر شيئا».

فقال: «هذا أفضل ، هذا أفضل ، لكني أنا رأيت».

وسألاه: «ماذا رأيت؟».

فقال: «رأيت أنربا برياً يقطع الطريق أمامنا».

وكان ذلك في عرف الروس المتطيرين نذير شؤم يلحق بالمسافر، ومن ثم أوقف نيقولا العربية، وأدرك ميشيل ستروجوف الحافز الذى دفعه إلى ذلك فقال له محاولاً التسرية عنه: «ليس ثمة ما ينبغي أن تخشاه أيها الصديق».

فأجاب نيقولا: «هذا بالنسبة لك، ولها، أما بالنسبة لي، فإنه القدر». ثم وخز الجواد فانطلق بالعربة من جديد، ومر اليوم بسلام .

وفي ظهر اليوم التالي ، ٦ سبتمبر، توقف المسافرون في محلة «الساليفسك» - وكانت مهجورة أيضا - فعثرت فيها نادية، عند عتبة بيت من البيوت، سكينتين حادتين ، من تلك التي يستعملها صيادو سيبيريا، فأعطت أحدهما لستروجوف فأخفاها في ثيابه ، واحتفظت بالأخرى لنفسها، وكان باقيا أمامهم حتى المدينة التالية حوالي خمسة وسبعين فرسخا، وخلال اليومين الأخيرين لم يستطع نيقولا أن يسترد بهجته ومرحه المألوفين، فقد أثر فيه حادث الأرنب تأثيرا

كبيراً، وصار يلزم الصمت أكثر الأوقات، وهو الذى اعتاد ألا يكف عن الثرثرة، ولم يعد يحرص على راحة جواده فيسير به متباطئاً بل ضاعف من سرعته وقد أحس ألا أمان له إلا بين جدران أركوتسك ذاتها.

وبلغ المسافرون غابة كثيفة، وكم كانت دهشتهم بالغة حين تبينوا أثناء سيرهم آثاراً تدل على أن حشداً كبيراً من البشر قد عبر الطريق قبلهم بزمان قصير، وبعد مسيرة مسافة أخرى لاحظوا من آثار التدمير والإتلاف ما يقطع بأن الذين مروا لا يمكن أن يكونوا سوى التتار، فقد رأوا حقولاً درستها حوافر الجياد، وغابات عملت فيها فؤوس المخربين، والبيوت القليلة المتناثرة خلال الطريق كان منها المحروق ومنها الذى تتخلل جدرانها طلقات الرصاص.

وكان ذلك مبعثاً لكثير من القلق والانعراج في نفس ستروجوف فراح يحدث نفسه: «لاشك أن طابوراً من التتار قد عبر هذا الطريق حديثاً، لكنه لا يمكن أن يكون من جيوش الخان التي ما زالت في المؤخرة، وإذن، من يكون هؤلاء الغزاة الآخرون، وبأي وسيلة خفية استطاعوا الالتفاف حول طريق أركوتسك؟، وهل قدر لنا أن ننجو من الأعداء الأول لنجابه أعداءً جددًا؟».

على أن ستروجوف لم يشرك نادياً ونيقولاً في خواطره القاتمة هذه حتى لا تزعجهما، ولا سيما أنه قرر أن يتابع

رحلته ما دام في وسعه ذلك، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون.
وفي خلال المرحلة التالية ازدادت الأدلة على أن فيلقا من
الفرسان المشاة قد مر أخيرا من الطريق، ولاحت عن بعد
نار مشتعلة عند الأفق، وكانت بعض البيوت القروية ما تزال
متقدة بالنار، مما يقطع بأن حرقها لم يبدأ منذ أكثر من يوم.
وأخيرا في صبيحة الثامن من سبتمبر، توقفت العربة
مضطرة وقد أبى الجواد أن يتقدم خطوة، بينما جعل
الكلب سيركو ينبح بشدة، فتساءل ستروجوف: «ماذا
هناك؟». وأجابه نيقولا وهو يترجل: «جثة على الطريق».
وكانت الجثة لأحد فلاحى «الموجيك»، وقد شوهت
تشويها رهيبا وبردت أطرافها، وأراد نيقولا أن يتولى دفن
الضحية التعسة كيلا تلتهمها وحوش الليل، لكن ستروجوف
صاح به متعجلا: «فلنرحل، فلنرحل فورا، ليست لدينا
ساعة واحدة نضيعها».

واستأنفت العربة سيرها.

وباقترابها من «نيجنى أودينسك» صارت الجثث المتناثرة
على الأرض تعد بالعشرات، ودماؤها لم تتجمد بعد، ولم
يصادف الركب إنسانا حيا يمكن أن يسألوه، وفي حوالي
الساعة الرابعة من المساء لمح نيقولا في الأفق قباب كنائس
نيجنى أودينسك، وقد اكتست بأبخرة كثيفة لا يمكن أن
تكون ضبابا، ووصف نيقولا ونادية ما يريانه لميشيل

ستروجوف، مشفقين من أن تكون المدينة محتلة بالتتار، فقال الشاب: «فلنقدم حذرين، ولكن لننتقدم».

وبعد مسيرة فرسخ آخر هتفت نادية: «إنه ليس ضبابا أيها الأخ، أنه دخان. إنهم يحرقون المدينة».

وكانت السنة اللهب تتصاعد إلى عنان السماء، فاستنتج المسافرون الثلاثة أحد أمرين: إما أن التتار أحرقوا المدينة حين وجدوها مهجورة، وإما أن الروس أنفسهم قد أحرقوها إطاعة لأمر الغراندوق، ومن ثم تردد الركب بين التوقف ومتابعة التقدم؟، ثم ارتأى ستروجوف أن يتخذوا الجانب الأحوط فيلتفوا حول المدينة متجنبين المرور فيها، ليضمنوا عدم الوقوع مرة أخرى في أيدي التتار، وفيما هم يهيمون بتنفيذ هذه الخطة سمع صفير رصاصة تخترق الهواء ثم تبين أنها أصابت رأس الجواد فخر على الأرض جثة هامدة، وقبل أن يدرك الثلاثة ما حدث انقض عليهم حوالي عشرة من الفرسان وقلبوا العربة رأسا على عقب ثم أسروهم ونهبوا بهم الطريق نهبا نحو «نيجنى أودينسك».

لم يفقد ميشيل ستروجوف اتزانه إزاء الحادث، وجعل همه أن يتسمع ما يدور بين الفرسان من حديث بلغة التتار التي يفهمها جيدا، فعلم أنهم من طلائع تسبق جيش الغزاة كي يلتفوا وإياهم حول أركوتسك، فهم بمثابة طابور ثالث أعده إيفان أوجارييف ليضمن الإجهاز على عاصمة

سيبريا الشرقية بأوفر قوة وأقصى سرعة، كما فهم من حديثهم أيضا أن جيشهم مؤلف من خمسين ألف مقاتل وأنهم بعد إحراق «نيجنى أودينسك» سينهبون الطريق إلى مشارف أركوتسك حيث ينتظرون وصول جيش الخان.

وهكذا أسفرت الحوادث عن موقف غاية في الخطورة بالنسبة للروس، لكن ميشيل ستروجوف لم يفقد مع ذلك آماله بل صر بأسنانه وحدث نفسه بعبارته المعهودة: «سوف أصل».

وبعد نصف ساعة وصل الفرسان بأسراهم إلى المدينة المحترقة، ثم تابعوا السير، ولم يغفلوا عن أن واحدا من الأسرى فاقد البصر، بل اتخذوا من عاهته موزعا للسخرية والزراية به وبخاصة حين كان جواده يجمع به فلا يملك المسكين توجيهه، الأمر الذى آلم نادية ونيقولا وإن لم يستطيعا التدخل نظرا إلى جهلهما بلغة التتار ولأن تدخلهما كان قميناً أن يصد في غير رحمة، ولم يقتصر الأمر على ذلك، إذ لم يلبث الفرسان أن استبدلوا بالجواد الذى يمتطيه ستروجوف جوادا آخر أعمى مثله إمعانا في النكاية به، فصار يرتطم به في الأشجار آنا، ويخرج به عن الطريق آونة، ولكن الشاب لم يبد احتجاجا أو يرفع صوته بشكوى، كان جواده يسقط به فينتظر حتى يأتوا ليرفعوهما، وعندئذ تبدأ المهزلة القاسية من جديد، ولم يطق نيقولا أن يعامل رفيقه هذه المعاملة المنطوية على القسوة والندالة، فلما أراد

أن يتدخل لإغاثته أوقفوه ومنعوه من ذلك بالقوة والعنف. واستمر العبث بالضرير التعس على هذا المنوال، والقساة فرحون بلعبتهم المسلية، وفي إحدى المرات جمح الجواد الأعمى براكبه نحو مستنقع على جانب الطريق يبلغ عمقه أربعين قدما، فأراد نيقولا أن يخف لإنقاذ صديقه، لكنهم حالوا بينه وبين ذلك فاندفع الجواد نحو المستنقع، وأطلقت نادبة ونيقولا صرخة فزع، وقد حسبا الشاب هلك في الهاوية، ولكن حين مضى العابثون إلى مكانه وجدوه قد ألقى بنفسه عن ظهر الجواد قبل أن يهوى به، فلم يصب هو بأي أذى، أما الجواد فقد كسرت ساقاه ولم يعد صالحا للركوب، فتركه القساة في مكانه بغير أن يريحوه من آلامه برصاصة قاضية، وقيدوا ميشيل ستروجوف إلى أحد جيادهم كي يستأنف الرحلة سائرا خلفهم على قدميه.

ومع ذلك لم يتذمر الشاب أو ينبس بشكوى أو احتجاج، بل تبع القافلة بخطى سريعة مقيدا بحبل غليظ، فأثبت بحق أنه «الرجل الحديدي» الذي تحدث عنه الجنرال كيسوف إلى القيصر.

وفي اليوم التالي - ١١ سبتمبر - توقفت القافلة في المساء كي ينعم أفرادها وخيولهم بقسط من الراحة، وفي أثناء جلستهم المرحية أقدم أحدهم - وكان ثملا - على إهانة نادبة، التي كانت قد عوملت حتى تلك اللحظة باحترام

وتوقير، ولم ير ميشيل ستروجوف الإهانة ولا مرتكبها، لكن
ينقولوا رآها ورآه، فتقدم منه، ودون تفكير أو ترو، أو وزن
للأمور أخرج من جيبه مسدسه وأفرغ رصاصة منه في قلب
المعتدى، قبل أن يتمكن هذا من إيقافه أو التنبه لنيته.

وهجم الفرسان على نيقولا يريدون الفتك به، لكن
قائدهم أمر بقاءه وثاقه وحمله أمام واحد منهم على ظهر
جواده، ثم انطلقت القافلة بأقصى سرعتها وطيلة الطريق
كان ستروجوف يقرض الحبل الذى يشده إلى الجواد بأسنانه.
وجد ستروجوف نفسه بعد قليل، واقفا في الطريق،
ونادية إلى جواره، وليس من أحد غيرهما هناك.

نهاية مؤلة

صار ستروجوف ونادية حرين، ولكن بلا عون ولا مؤونة ولا وسيلة للمواصلات، في طريق مقفر لا يبدو فيه أثر لإنسان أو قرية أو كوخ، والساعة العاشرة مساءً.

وصاحت الفتاة جزعة: «تري ماذا سيفعلون بصدقنا المسكين؟ إن التقاءنا كان قاضيا عليه»، فلم يجب ستروجوف، وإذ ذاك استطردت نادية: «ألا تعلم أنه دافع عنك حيث جعل منك التتار ألعبوبة في أيديهم، وأنه خاطر بحياته من أجلي؟» ومع ذلك لم يجب ستروجوف بكلمة، وإنما ظل كالعهد به جامدا ورأسه بين يديه، وعادت الفتاة تسأله: «إلى أين تريدني أن أقودك؟».

فقال: «إلى أركوتسك»

قالت: «عبر الطريق العام؟». فقال: «نعم يا نادية»، فأخذت بيده، وبدأ المسير.

وفي صباح اليوم التالي - ١٢ سبتمبر - بعد مسيرة عشرين فرسخا، توقف الاثنان في محلة محروقة ومهجورة، كي

يأخذا قسطا من الراحة، وطيلة الليل ظلت نادبة تبحث بين الأشلاء وجثث الموتى عن جثة نيقولا، ولكن دون جدوى، حتى رجحت أن يكون القساة قد أبقوا عليه حتى تلك الساعة، ولكن ترى هل يدخرون له نهاية أشد قسوة، حين يصلون إلى أركوتسك؟ .

وكان الجوع قد عضهما بأنيابه، فلما عثرت نادبة في أحد البيوت المهجورة على كمية من اللحم المجفف والخبز تكفيهما أياما حملها الاثنان فرحين، واستأنفا المسير.

وكان ميشيل يسير بخطى جادة منتظمة، ولا يتأخر إلا من أجل مرافقته، التي لم ترد أن تعوق سرعته فتحاتمت على نفسها ومضت في ركابه، ولم يستطع أن يلمح مبلغ الإرهاق الشديد الذى حل بها، لكنه أحس به، فكان يقول لها بين الحين والآخر: «إنك قد استنفدت قواك أيتها الطفلة المسكينة».

فتغمغم قائلة: «كلا»، فيقول لها: «حين تعجزين عن المسير سوف أحملك يا نادبة» فتقول: «حسنًا»

وكانا يسيران ويدها في يده، لا يتكلمان إلا قليلا، ونادبة تنظر إلى الأمام والخلف، كما كانا يستريحان مرتين في اليوم، إحدهما في الليل حيث ينامان ست ساعات، وعثرت نادبة مرة أخرى في أحد الأكواخ على كمية من اللحم تكفي لوجبات أخرى، لكنهما - خلافا لما كان يأمل ستروجوف -

لم يصادفوا ماشية أو جيادا على الإطلاق، فقد نهب التتار أو ذبحوا كل ما وجدوه منها، ومن ثم صار لزاما عليهما أن يواصلوا رحلتهم سيرا على الأقدام، عبر هذه السهول التي لا نهاية لها، وكانت تعترضهما أثناء المسير آثار الطابور الثالث للتتار الزاحفين على أركوتسك، بين جواد ميت هنا، وعربة مهجورة هناك، وجثث لآدميين من أهل سيبريا المتعساء متناثرة عند مداخل القرى.

لكن الخطر لم يكن في الواقع يكمن أمامهما، بل كان يطارد هما من الخلف، فإن طلائع جيش الخان الرئيسي الذي يقوده إيفان أوجارييف كان يحتمل أن تظهر من لحظة إلى أخرى، والزوارق التي أرسلت من مجرى نهر «ينيساي» الأدنى كانت لا بد قد وصلت إلى كراسنويارسك واستخدمت في عبور النهر، ومن ثم فقد صار الطريق مفتوحا أما الغزاة، لا يقوى جيش روسي على أن يسده بين كراستويارسك وبحيرة بايكال، وهكذا لبث ستروجوف يتوقع وصول طلائع التتار في أي وقت، وصارت نادية تتسلق كل مرتفع يمران به في الطريق كي تتطلع بانتباه إلى الغرب، لكن عاصفة من الغبار لم تلح في الأفق منبئة بوصول الغزاة.

★★★

أحس ميشيل ستروجوف أثناء السير بأنه أرهق نادية بخطواته السريعة فأنقص من سرعته بعض الشيء، ولم

يكونا يتكلمان إلا قليلا، وإذا تكلما فعن نيقولا، الذي صارت الفتاة تستعيد ذكريات الأيام القليلة التي رافقهما خلالها.

وكان ميشيل يحاول جهده أن يدع باب الأمل في شأن صديقهما مفتوحا برغم ترجيحه أن يكون التعس قد لقي حتفه على يد الأعداء، وذات مرة سألها معاتبا : «إنك لا تتحدثين البتة عن أمي يا نادية..؟»

أمه؟. ولم تجدد نادية آلامه؟، أو لم تمت السيرية العجوز؟. أو لم يطبع ابنها القبلية الأخيرة على جثتها الممددة في ساحة المهرجان في مدينة تومسك؟ وناشدها الشاب متلهفا : «حدثيني عنها يا نادية، تكلمي، إنك بذلك تدخلين البهجة على قلبي»

وعند ذاك فعلت الفتاة ما لم تفعله من قبل، روت كل ما جرى بين مارفا وبينها منذ لقائهما في أومسك، وكيف دفعتهما غريزة غير مفهومة نحو الأسيرة العجوز دون أن تعرفها، ثم مبلغ عنايتها بها، ومبلغ تشجيع الأخرى لها، في الوقت الذي لم يكن ميشيل فيه بالنسبة لها سوى التاجر نيقولا كوربانوف، وعندئذ قاطعها الشاب قائلا وقد غام جبينه :

كان يجب أن أظل دائما ذلك التاجر، لقد حنثت في قسمي يا نادية، فقد كنت أقسمت ألا أرى أمي !

ف قالت : «لكنك لم تسع إلى رؤيتها يا ميشيل، وإنما هي المصادفة وحدها التي وضعتك في طريقها».

فقال: «إنني أقسمت ألا أكشف عن شخصيتي مهما يحدث».

قالت: «ميشيل، أو كان في مقدورك أن تكتفم مشاعرك وأنت ترى السوط يهوى فوق جسد أمك؟، إن أغلظ قسم لا يستطيع أن يعوق ابنا عن إغاثة أمه».

قال: «لقد حنثت في قسمي يا نادية، ولا يجدى الإنكار، فليغفر الله والقيصر لي»

فقالت: « ميشيل، عندي سؤال لك، لكنك في حل من الإجابة إذا رأيت أن واجبك يقتضيك الصمت»

فقال: «تلكمي يا نادية»

قالت: «لماذا تتعجل الآن الوصول إلى أركوسك، بعد أن انتزعت رسالة القيصر منك، أو كنت تعرف مضمون الرسالة قبل أن تغادر موسكو؟»

فقال: «كلا، لم أكن أعرفها»

قالت: «إذن هل لي أن أفهم من ذلك أن الرغبة في تسليمي إلى أبي التي تدفعك نحو أركوتسك؟»

فقال: «كلا يا نادية، إنني أخدعك إذا تركتك تعتقدين ذلك، وإنما أنا أذهب حيث يقتضيني واجبي الذهاب، أما تسليمك إلى أبيك، فهل نسيت أنك أنت التي تقوديني الآن؟، أليست يدك هي التي ترشدني، ألم تردي إليّ

أضعاف الخدمات التي أدتها لك من قبل؟، لست أدري
إذا كان القدر سيكف عن عرقلة طريقنا بعد الآن، ولكن في
اليوم الذى تشكرينني فيه على توصيلك إلى أبيك سوف
أشكرك أضعافا على توصيلي إلى أركوتسك»

فقالت نادية وقد غلبها التأثر: «أيها المسكين، لا تتكلم
هكذا، فليس هذا هو الجواب الذى أطلبه منك، ميشيل،
لماذا تتعجل الآن الوصول إلى أركوتسك؟»

فقال: «لأنني يجب أن أبلغها قبل إيفان أوجاريف»

قالت: «وهل ما زلت تأمل ذلك؟»

قال: «نعم، ولسوف أصل»

وفيما هو ينطق بهذه الكلمات تبينت نادية في لهجته
الكرهية الشديدة للخائن، كما تبينت أن مرافقها يخفي
عليها شيئا، لأنه لا يستطيع أن يبوح لها بكل شيء.

في يوم ١٥ سبتمبر - بعد ثلاثة أيام - وصل الاثنان إلى محلة
(كويتونسكاو) على بعد سبعين فرسخا من (تولونوفساكو)،
وكانت الفتاة تعاني آلاما مبرحة من فرط التعب، حتى لقد
كادت قدماها تعجزان عن حملها، لكنها ناضلت، وقاومت
الإجهاد ولسان حالها يقول: «ما دام ميشيل لا يستطيع
أن يرى مبلغ تعبى فسأواصل السير ما اسعفتني قواي».

وطيلة الأيام الثلاثة التالية كانت الرحلة آمنة من كل خطر أو عقبة جديدة، لا يعرقلها غير التعب الشديد، وكان واضحاً أن طابو التتار الثالث ينهب الطريق نحو الشرق، مخلفاً وراءه حطاماً وأطلالاً وحرائق وجثثاً متحللة متناثرة على الأرض.

أما عن الغرب، فلم يكن هناك على الإطلاق ما ينبئ باقتراب طلائع جيش الخان، وجعل ميشيل ستروجوف يفترض في تأويل ذلك أبعد الاحتمالات وأغربها، ترى هل جمع الروس قوات كبيرة يهددون بها تومسك وكراسنويارسك مباشرة؟ وهل يكون مصير الطابور الثالث المعزول عن الطابورين الآخرين أن يقطع عليه الطريق؟ إذا كان الأمر كذلك فسوف يسهل على الغراندوق الدفاع أركوتسك وكسب الوقت الكافي لرد جيوش الغزاة على أعقابها؟

وكان ستروجوف يستسلم أحياناً لهذه التصورات والآمال، لكنه لا يلبث أن يفيق منها على الواقع المرير، فيتبين أن أمامه مجرى يتعين عليه عبوره، هو نهر «دنكا» وهو آخر مجرى يتخلل المائتين وثلاثين فرسخاً التي تفصله عن أركوتسك.

وبدأت قوى نادية تخونها، وحدثت نفسها بأنها - لو كان ميشيل مبصراً - لقاتلت له بغير تردد: «دعني يا ميشيل في أي كوخ يصادفنا وأسرع أنت إلى غايتك فأتهم رسالتك وقابل أبي وأخبره عن مكاني ثم عودا إليّ معا فيما بعد لاستردادى، اذهب فلست خائفة، وسأعرف كيف

أختبئ من التتار، وأصون حياتي من أجله، ومن أجلك،
اذهب يا ميشيل، فلست أستطيع المسير»

واضطرت نادية للتوقف مرارا، فكان ميشيل يحملها بين
ذراعيه ويغذ السير بخطى سريعة وبأقصى طاقة نشاطه،
وهكذا بلغ الاثنان في الساعة العاشرة من مساء ١٨ سبتمبر
محلة «كيميلتاز كاو»، ولمحت نادية من أعلى تل هناك
خطا قاتما عند الأفق هو نهر دنكا، وكانت تضيئه ومضان
من النور لا يصحبها رعد.

وقادت نادية ستروجوف عبر المحلة المهدمة، وكانت
آثار الحرائق والتخريب فيها تدل على أن التتار قد مروا بها
منذ خمسة أيام أو ستة على الأقل، وتهالكت نادية على
مقعد حجري في طرف البلدة فسألها ميشيل «أنتوقف هنا؟»
فقالت: «إن الليل قد هبط يا ميشيل، ألا تبغى أن
تستريح بضع ساعات؟».

فقال: «كنت أود أن أعبر النهر وأجعله فاصلا بيني
وبين طلائع جيش الخان، لكنك فيما أحسب عاجزة عن
المسير»، فقالت: «بل هيا بنا».

وقادته على ضوء البرق المتلاحق، فرسخين أو ثلاثة، في
صحراء لا حد لها، ولا شجرة فيها ولا تل، ولا نسمة هواء

تحرك جوها الساكن وهدوءها الشامل، وفجأة توقفا كما لو كانت أقدامهما قد غاصت في الأرض، على صوت عواء يشق فضاء البرية، وهتفت نادية: «أسمع؟»، وتلت ذلك صرخة لوعة وبأس، كأنما صدرت من شخص يستغيث وهو يحتضر، فصاحت نادية مدفوعة بشبه إلهام خفي: «نيقولا، نيقولا»، وجذبت رفيقها من يده نحو مصدر الصوت وقد أمدّها الانفعال بقوة خفية، وبعد مسيرة بضعة دقائق على أرض جانبية تكسوها الحشائش والأعشاب وصلا إلى بقعة لا يفصلها عن النهر أكثر من نصف فرسخ، وعندئذ سمعا حشرة استغاثة أخرى أضعف من الأولى، وإن كانت أقرب منها، يصحبها نباح كلب.

فقال ميشيل على الفور:

— إنه سيركو، الذى لابد قد تبع سيده!

ونادت نادية ملهوفة: «نيقولا».

ولكن نداءها ظل بلا جواب، وحلقت بضعة طيور برية في السماء حتى اختفت عن الأنظار.

وأرھف ميشيل سمعه، بينما سرحت نادية بصرها فيما حولها، فلم تر شيئا يلفت النظر.

وأقبل الكلب سيركو على نادية مضرجا بالدماء يعوي عواء الاستغاثة، وتقدمها نحو نسر ضخم كان جاثما على الأرض،

فطار النسـر إلى ارتفاع قليل ثم عاد فأهوى بمنقاره على رأس الكلب بشدة، فسقط الحيوان الأمين على الأرض جثة هامدة.

وفي تلك اللحظة بدت من نادبة صرخة فزع، فقد كادت قدمها تصطدم برأس ملقى على الأرض، لولا الضياء الذى كانت تلقيه السماء على أديم السهل.

وخرت نادبة على ركبتيها بجانب ذلك الرأس.

كان نيقولا مدفونا حتى رقبته في التراب، تبعا لعادة التتار الوحشية في الانتقام من أعدائهم، بتركهم هكذا يموتون من الجوع أو العطش أو بين أنياب ذئب عابر أو منقار نسر جاثم، دون أن يقوى المدفون على الفكك من سجنه الرهيب في بطن الثرى، فلا يملك غير أن يدعو الموت إليه والموت لا يقبل عليه إلا بطيئا وثيد الخطى.

على هذا المنوال كان التتار قد دفنوا ضحيتهم التعسة نيقولا منذ ثلاثة أيام، ولمحت النسور الكاسرة ذلك الرأس الناتئ فوق الثرى فهاجمته، ومنذ ساعات اشتبك كلبه معها في معركة ودافع فيها عن سيده دفاع الأبطال، حتى سقط صريعا.

شق ميشيل ستروجوف الأرض المحيطة بجسم صديقه بسكينه الحادة كي يخرجـه من باطنها حيا، ففتح المسكين عينيه اللتين كانتا حتى تلك اللحظة مغمضتين، وعرف ميشيل ونادية على الفور، فغمغم بصوت خافت:

«وداعا يا صديقي، إنني قانع بأننى رأيتكما ثانية، صليا من أجلى»

وكانت تلك آخر كلماته، فعندما فرغ ميشيل من حفر الأرض الصلبة المحيطة بجسم صديقه، واستطاع إخراجه من باطنها، بادر بوضع أذنه على موضع القلب منه، فآلقاه قد سكن إلى الأبد.

وإذ ذاك عمد إلى توسيع الحفرة التي دفن فيها التعس وهو حي، ثم إلى تعميقها كي تتسع لجثمانه وجثمان كلبه الأمين، وفي تلك اللحظة سمع ضجيج على بعد نحو نصف فرسخ، فأرهدف ميشيل ستروجوف أذنيه، وإذا هو يتبين في الضجيج ضوضاء فرقة من الفرسان تتقدم نحو نهر دنكا، فهتف بصوت خفيض:

— نادية، نادية.

فتنبهت من صلاتها التي كانت مستغرقة فيها، ترحما على الميت، بينما تابع ميشيل كلامه قائلا:

— انظري، انظري!

وغمغمت هي في اكتئاب: «التتار!»

كانت تلك الضوضاء صادرة من طلائع جيش الخان، الزاحف نحو أركوتسك بأقصى سرعتة، ولكن ميشيل قال كالمحدث نفسه: «إنهم لن يمنعونني من دفنه!»

واستمر في مهمته ، وبعد قليل كان جثمان نيقولا قد وورى
في قبره ، ويداه معقودتان فوق صدره ، ثم ركع صديقه أمامه
وصليا من أجل روحه صلاة أخيرة ، وحين نهضا قال
ميشيل ويده المتوقعة ممتدة نحو فيلق الفرسان الذى مر :
— هيا يا نادية !

لكنهما لم يستطيعا المضي في الطريق الرئيسي الذى شغله
القتار ، وصار لزاما عليهما أن يدورا حول أركوتسك من
طريق آخر ، وبذلك لم تعد بهما حاجة إلى عبور النهر .
وكانت نادية قد انهارت تماما من فرط التعب ، فحملها
الشاب بين ذراعيه القويتين ومضى يشق بها طريقه نحو
الجنوب الغربي

كان أمامهما نحو مائتي فرسخ !

فكيف يقطعانها ؟ .

وكيف يقاومان التعب ؟

وأين يجدان غداءهما ؟

وبأي نشاط خارق يمكنهما تسلق المرتفعات الأولى من
جبال «سايانسك» ؟

هذه هي الأسئلة التي طافت برأسي ميشيل ستروجوف
ونادية في تلك اللحظة الرهيبة التي دهمتهما فيها طلائع
جيش فيوفار خان.

ولم يكن لديهما أي جواب عن سؤال منها ومع ذلك ،
نهضا من مكانهما ، وغادرا تلك البقعة إلى حوت جثمان
صديقهما الوفي العزيز ، ثم واصلا سيرهما من طريق آخر
غير الطريق الرئيسي ، وبعد اثني عشر يوما - في ٢ أكتوبر
- نحو الساعة السادسة مساءً ، لاحت لهما رقعة شاسعة
من الماء.

وكانت لك هي بحيرة « بايكال ».

بايكال . . وأنجارا

تقع بحيرة بايكال على ارتفاع نحو ألف وسبعمائة قدم فوق مستوى البحر، وطولها نحو تسعمائة فرسخ، وعرضها مائة، أما عمقها فغير معروف، وتحيط بهذه المساحة الشاسعة من الماء، التي يغذيها نحو ثلاثمائة نهر، سلسلة رائعة من الجبال البركانية، وفي تلك الأيام الأولى من أكتوبر كانت الحرارة تهبط في الليالي الطويلة إلى درجة الصفر، والثلوج الباكورة تغطي القمم القريبة من البحيرة، أما في الشتاء فكانت مياه البحيرة تتجمد إلى عمق بضعة أقدام، فتعبر الزحافات والقوافل أرضها المنبسطة الملساء بسهولة كبيرة.

وفي تلك الليلة - الثانية من أكتوبر - كان ميشيل ستروجوف قد بلغ الضفة الجنوبية الغربية من البحيرة حين أبصرت نادية على الشاطئ جمعا يقرب من الخمسين شخصا، خشيت في البداية أن يكونوا من التتار، ثم تبينت - لفرحتها - أنهم من الروس، ولمحها الجمع ورفيقها الأعمى فخفوا إليهما على الفور وصحبوهما إلى زورقهما الراسي على الشاطئ على أهبة الرحيل، وكانوا نفرا من المهاجرين

الهاربين من غزو التتار، وأثلجت خطتهم في الاتجاه نحو المدينة بطريق البحر قلب ميشيل ستروجوف، الذى رأى فيها فرصته الأخيرة، وإن لم يظهر فرحته علانية إمعانا في إخفاء شخصيته، وكانت الناقلة التي اختاروها للسفر صندلا من خشب الشوح يتسع لنحو مائة راكب، فلم يروا بأسا في أن يدعوا ضيفيهما إلى ظهرها، ولم تكد نادبة وميشيل يستقلانها حتى عاود الفتاة شيء من نشاطها، ولا سيما بعد أن زودت وصاحبها بالغذاء الكافي الذى كانا شبه محرومين منه في الأيام الأخيرة، وبعد قليل أوت إلى فراش من القش وأغصان الشجر فلم تلبث أن استغرقت في نعاس عميق .

ولم يحدث ميشيل سائليه عن شيء مما وقع له في تومسك، بل زعم أنه من سكان كراسنويارسك ولم يستطع بلوغ أركوتسك قبل أن تعبر طلائع جيش الخان نهر الدنكا، ثم أضاف ترجيحه أن تكون نخبة قوات التتار قد اتخذت مراكزها في مواجهة العاصمة السiberية، الأمر الذى يقتضى عدم إضاعة دقيقة واحدة من الوقت بلا مبرر.

وهكذا أقلعت الناقلة في الثامنة مساء، يقودها بحارة من فلاحي الموجيك الأقوياء، وكان رئيسهم بحارا مسنا في نحو الخامسة والستين ذا لحية بيضاء غزيرة تتدلى فوق صدره، وعلى رأسه غطاء من الفراء، وملامحه تنبئ بالصرامة والشدّة، وقد اتخذ هذا الربان مكانه في مؤخرة الناقلة ولم ينطق إلا بعشر كلمات في عشر ساعات، وكانت مهمته

الرئيسية الشاقة أن يحتفظ بالناقلة في اتجاه تيار المياه المنطلق دون أن تجنح إلى عرض البحيرة.

وكان منظر المسافرين على ظهر الناقلة يوحي بأنهم خليط من الروس ذوي الظروف والنزعات المتباينة، منهم الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، فضلا عن اثنين من الحجاج فاجأهم الغزو أثناء رحلتهم الدينية، وبضعة رهبان، ورئيس ديني، وكان هؤلاء المتدينون عاكفين على صلواتهم في فترات منتظمة، يرفعون عقيرتهم بها وسط الليل الساكن وقد جلسوا في مقدمة الناقلة.

ومضت الرحلة على ما يرام، بينما استغرقت نادية في سنة عميقة من النوم، وجلس ميشيل بجانبها منتبها لا يكاد يغفو إلا لماما، وفي مطلع النهار عاقت سير الناقلة ربح عنيفة مضادة لتيار الماء، وكانت على بعد نحو أربعين فرسخا من مصب نهر «أنجارا» الذي تنتهي إليه البحيرة، بحيث لم يكن ينتظر أن تبلغ ذلك المصب قبل الساعة الرابعة مساء، على أن أشد ما كان يخشاه الربان الشيخ أن تتجمد مياه البحيرة في الليل بتأثير البرد الشديد.

واهتم ميشيل ستروجوف بهذا الأمر، فلما استيقظت نادية لبث يسألها كل حين عن عدد القطع الجليدية الطافية على سطح البحيرة، فكانت تجيبه بما تراه، وقرب الساعة الرابعة لاح مصب «أنجارا» للربان تحف به بضع

صخرات عالية، وعلى الضفة اليمنى ظهر ميناء «ليفنتشاي» الصغير، وكنيسته، وبيوته القليلة المتناثرة.

ورأى الربان أن يتوقف في الميناء لإجراء بضعة إصلاحات وترميمات في السفينة تستلزمها مواجهة القدر الباقي من الرحلة، ولاسيما أن التيار يلغ فيها أقصى عنفه وشدته، وكان أهل البلدة الصغيرة قد هجروها هرباً من الغزاة المسرعين على ضفتي «أنجارا»، ولم ينسوا أن يرسلوا إلى أركوتسك أسطولهم من الزوارق والسفن التي كانت راسية في مينائهم وما خف حمله من المؤن التي يحتاجون إليها في مأواهم المؤقت بعاصمة سيبريا الشرقية .

في هذه اللحظة التي تاهبت فيها الناقلة للإقلاع من الميناء الصغير خرج من أحد البيوت المهجورة رجالان راحا يعدوان بأقصى سرعتهما نحو الناقلة، ولمحتهما نادية، التي كانت تجلس في المؤخرة، فكادت تفلت منها صيحة حادة، وأمسكت بيد ميشيل ستروجوف كأنما تلتمس منه العون والتشجيع، فسألها بصوت خافت :

— ماذا بك يا نادية؟

فقالت : «زميلانا خلال جبال الأورال»

فقال : «ذلك الفرنسي وزميله الإنجليزي؟

قالت : «نعم» .

وأحس ميشيل ستروجوف بالارتباك، إزاء هذا الخطر الجديد الذى يهدد تنكره الصارم بالافتضاح، فالواقع أن الصحفيين الأجبيين لن يريا فيه الآن ذلك التاجر كوربانوف، وإنما ميشيل ستروجوف رسول القيصر، وكان الصحفيان قد التقيا بصاحبنا قبل ذلك مرتين، منذ اقترافهما عنه في محطة أيشيم المرة الأولى في معسكر «زابيديرو» حين أهوى بالسوط على وجه إيفان أوجارييف، والثانية في تومسك حين مثل أمام الخان ليحاكم، ومن ثم فهما يعلمان الآن شخصيته الحقيقية.

واتخذ ميشيل ستروجوف قراره في الموقف بسرعة، فهمس لمرافقته :

«نادية، حينما تطأ أقدامهما أرض الناقله اطلبي منهما أن يقتربا مني».

وكان جوليفيه وبلونت قد غادرا تومسك قبيل تنفيذ العقاب في ميشيل ستروجوف، قاصدين الانضمام إلى صفوف الجيش الروسي في أقرب وقت، وبلوغ أركوتسك قبل أن يبلغها التتار، لكن ظهور الطابور الثالث عاقهما كما عاق ستروجوف واضطرهما إلى أن يسلكا مثله طريق بحيرة بايكال، فوصلا إلى الميناء الصغير منذ أيام ثلاثة، لكنهما وجداه مهجورا، فلبثا حائرين حتى قيض الله لهما هذه الناقله التي راحا يعدوان للحاق بها في آخر لحظة.

ولما بلغا الناقله هتف جوليفيه بربانها طالبا نقلهما على ظهرها مقابل أي مبلغ يطلبه، فأجابه الشيخ : «لا أحد هنا يدفع مالا، وإنما حسب كل راكب أنه يعرض حياته للخطر» ورأت نادية الصحفيين يتخذان لهما مكانا في مقدمة الناقله، وفي اللحظة التالية أحس جوليفيه يدا توضع على كتفه، فاستدار ليرى نادية، وإذ ذاك كادت تغلت منه صرخة دهشة، لولا أن لمح الفتاة تضع أصبعها على فمها محذرة، وقالت له : «تعال»، فأشار الرجل إلى زميله وتبعها كلاهما.

وكانت دهشة الرجلين أشد عند وقوع بصرهما على ستروجوف، فقد كانا يحسبانه فارق الحياة، ولم يتحرك الشاب لدى اقترابهما، فقالت نادية لهما موضحة : «إنه لا يراكما أيها السيدان، فلقد أحرق التتار عينيه، إن أخي المسكين أعمى، وندت منهما صيحة إشفاق مكتومة، واقتربا منه ثم جلسا بجواره وانتظرا أن يبدأ بالحديث، فقال بصوت خفيض : «ينبغي ألا تعرفا من أكون، ولا الغرض الذى من أجله جئت إلى سيبيريا، وأنا أطلبكما باحترام سري، فهل تعدانني بذلك؟»

فقالا «نعدك بشرفنا»

فقال. «حسنا»

أشباح فوق الجليد

بعد نصف ساعة كانت الناقلة قد تركت البحيرة وانسأقت في مجرى النهر وكانت الساعة الخامسة مساء والبرودة شديدة تقل درجتها عن الصفر، والظلمة تامة شاملة.

وجعل الصحفيان يرويان لميشيل ستروجوف آخر الأنباء التي وقفا عليها، ومنها عرف أن جيوش التتار الثلاثة قد التقت واتحدت، وأن الخان وشريكه إيفان أوجارييف يطرقان أبواب أركوتسك، ومن الناحية الأخرى روى ميشيل لمحدثيه تفصيل العراقيين والتجارب المريعة التي استهدف لها هو ومرافقته منذ فرا من أسر التتار، بينما كانت الناقلة تمرق مسرعة بين كتل الجليد الطافية على مجرى النهر، ورجال الدين على سطحها يواصلون صلواتهم بصوت مسموع.

وكانت الساعة حوالي الثامنة مساء، وقد خيم على المنطقة كلها ظلام كثيف، حجب ضفتي النهر عن الأنظار، وأعان المهاجرين على مواصلة رحلتهم في أمان، غير ملحوظين من عيون التتار وأرصادهم المنبئين على ضفتي النهر، وكان سطح الناقلة يسوده السكون التام، منذ انحدرت في مجرى

النهر، إمعانا في التكتّم والاختباء، وحتى الرهبان كفوا عن صلواتهم المسموعة واكتفوا بغمجمة خافتة لا تبلغ الشاطئين، بينما جعل الريان همه الوحيد أن يتجنب قطع الجليد العائمة حتى لا تصطدم ناقلته بها.

وكان البرد قارسا يلذع العظام، وليس ثمة ما يحمي المسافرين منه، والهواء الذى انخفضت برودته إلى عشر درجات تحت الصفر يسبب لهم رجفة شديدة، وكانت نادية ورفيقها نائمين في المؤخرة، يحتملان البرد صامتين، وبجانبهما جلس الصحفيان يقاومان ما وسعهما الهجمات الأولى لشتاء سيبريا وقد لاذ الجميع بالصمت، يستغرق تفكيرهم حرج موقفهم الذى ينذر بالكارثة في أي لحظة.

وكان أشد ما يخشاه ميشيل ستروجوف حينذاك - برغم هدوئه الظاهري - أن يتصدى للناقلة سد من الجليد يعوق سيرها قبل أن تبلغ أركوتسك .

أما نادية فقد أعانتها بضع ساعات من الراحة والنوم على استرداد نشاطها، وقوة روحها المعنوية، فراحت تفكر في أبيها الذى يعيش وحيدا في المنفى السحيق، والذى لن تلبث أن ترتّمى بين ذراعيه بعد ساعات معدودات إذا سارت الرحلة على ما يرام، فتروى له آخر ذكريات أمها وهى تحتضر ولا تفارقه بعد ذلك قط.

وبدت من الشاطئ أضواء تنبعث من الغابات والقرى التي أحرقها التتار وفجأة لاح خطر جديد.

كان جوليفيه قابعا في مكانه وقد أدلى يده في الماء على سبيل اللهو من حين لآخر ، فشعر بمادة لزجة مختلطة بالماء وحين قربها من أنفه أدرك توا أنها زيت ، النفط، وللحال مثل في خاطره الخطر الماحق: أن الناقله تسبح على ماء تطفو فوق سطحه مادة قابلة للاشتعال، ترى من أين جاء هذا النفط؟، وبعد تفكير طويل اهتدى جوليفيه إلى التعليل الصحيح، وهو أن أهل ميناء باكو، الذين يعبدون النار، اعتادوا أن يلقوا على وجه الماء في أعيادهم الدينية سائل النفط الذى يكثر في تلك الأقاليم الغنية بثروتها المعدنية ، ثم يشعلون فيه النار ويتلهون بمنظر النهر المشتعل حتى ينفذ الوقود أو تطفئه الرياح، لكن هذا اللهو الذى كان يحدث في باكو، يعد الآن مصدر خطر كبير في نهر «أنجارا»، فقد تمتد النيران إلى أركوتسك ذاتها، وإذا لم يكن ثمة احتمال لأن يشتعل النفط بواسطة شخص من ركاب الناقله، فإنه ليس من المستبعد أن تتطاير شرارة من الحرائق المشتعلة على ضفة النهر فتلهب النفط السابح فوق مياهه.

لبث جوليفيه برهة فريسة لتردد محير، هل يصارح زملاءه المسافرين بالخطر الجديد الماثل؟ أم يكتمه عنهم ليوفر عليهم القلق المروع؟، وهل يحسن أن تلجأ الناقله إلى البر فرارا من الخطر، أم تواصل رحلتها المحوطة بأفطع الاحتمالات؟.

وانتهى من حيرته إلى وجوب الكتمان، فلم يصارح بهواجسه غير زميله هاري بلونت.

وقبيل الساعة العاشرة مساء خيل إلى بلونت أنه يرى أجساما سوداء تتحرك فوق الجليد العائم، وتقترب ظلالها. ولم يلبث أن تحقق الأمر فهتف مأخوذاً.

— التتار.. التتار.

ثم اقترب فوراً من ربان العائمة فلفت نظره إلى ما يرى وأجابه الربان قائلاً:

— إنها ذئاب، وأنا أفضلها على التتار على أي حال، ولكن ينبغي اتخاذ الأهباء للنجاة منها دون إحداث جلبلة أو ضوضاء.

وهكذا واجه الركاب مهمة الصراع ضد هذه الحيوانات المفترسة التي أطلقها الجوع والبرد في أرجاء الإقليم، دون اللجوء إلى إطلاق الرصاص عليها، خشية لفت أنظار التتار المنبثين على الشاطئ، ومن ثم تجمع النساء والأطفال في وسط العائمة، وأحاط بهم الرجال وقد تسلح كل منهم بسكينه أو عصاه، وتأهبوا للمعركة الصامتة، بينما كانت همهمة الذئاب الجائعة تملأ الهواء.

ولم يشأ ميشيل ستروجوف أن يظل مكتوف اليدين، فاستل سكينه وجعل يطعن بها كل ذئب يمر به في رقبتة بإلهام

الأعمى المتفتح البصيرة، كما ساهم الصحفيان في الصراع بنصيب ملحوظ، واستمرت المذبحة في سكون تام دون أن تبدر من أحد من الركاب صرخة ألم أو صيحة رعب، برغم أن بعضهم أصيب من أنياب الذئاب بجروح غائرة.

لكن المعركة بدت كأنها لن تنتهي، فبعد مضي نصف ساعة على احتدامها كانت أفواج الذئاب ما زالت تتواثب من الجليد العائم إلى الناقلة بالمئات، ثم أقبلت عشرة منها ذات أجسام ضخمة وعيون براقّة تلمع في الظلام وقد أضلها الغضب والجوع، فارتمى عليها ميشيل ستروجوف وزميلاه الصحفيان بجرأة خارقة، ولكن، في تلك اللحظة الحرجة حدث أمر لم يكن في الحسبان، فقد شبت على الشاطئ حرائق متوهجة في محلة، «بوشكافسك» أحالت الفضاء كله نورا ونارا.

ولما كانت الذئاب بطبيعتها لا تهاجم إلا في الظلام، فقد أزعجها الضوء فانسحبت في مثل لمح البصر من العائمة بل من النهر كله، وسبحت من فورها صوت ضفة النهر الأخرى التي يسودها الظلام.

وكان التتار ابتداء من تلك البقعة حتى أركوتسك يحتلون ضفتي النهر وهكذا دخل المهاجرون أخطر مناطق رحلتهم وإن لم يبق بينهم وبين غايتهم غير ثلاثين فرسخا.

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف حينذاك، ومضت العائمة تشق طريقها وسط الثلوج وقد حرص ركابها

على التزام الصمت والهدوء، ولعل أهم ما أنقذهم من انتباه التتار إليهم انشغال هؤلاء بحرق المحلة التي بلغوها حديثا. وفي خلال ذلك كان الصحفيان: جوليفيه وبلونت، يتوجسان خيفة من أن تمتد شرارة من البر فتشعل النفط السابح على وجه المياه، ولا سيما أن بعض الشرر كان يتطاير في الجو إلى ارتفاع خمسمائة قدم أو ستمائة، ولكن من حسن الحظ أن الهواء كان شبه ساكن في تلك الساعة، فقوي أمل الصحفيين في النجاة من ذلك الخطر الداهم، الذي لم يكن يعلم بأمره سواهما.

على أن العائمة لم تتجاوز منطقة تلك الحرائق حتى داهمها خطر جديد، هو ازدياد الثلوج العائمة وتعذر المرور بينها إلا بشق النفس، وهب الملاحون جميعا بمجازيفهم لدفع قطع الجليد بعيدا عن طريق عائماتهم، وتوقع بعضهم أن تسد الثلوج مجرى النهر تماما بعد مسيرة نحو ساعة واحدة، بينما تشبث آخرون بإيمانهم بمعونة الله، وخلال ذلك كان الموقف يزداد حرجا لحظة بعد أخرى، فلو أن مجرى النهر سد في وجوههم لما اقتصر الخطر على تعذر بلوغهم أركوتسك، بل لتعداه إلى تحطم العائمة بفعل صدمات الثلوج واضطرار ركبائها إلى الاتجاه إلى البر حيث يكون مصيرهم الذبح بأيدي التتار في غير رحمة.

وكان على المهاجرين إذن أن يبلغوا أركوتسك قبل الساعة الخامسة صباحا وإلا ما بلغوها على الإطلاق.

ووقع المحذور، فقد وصلت العائمة إلى بقعة يضيق فيها مجرى النهر إلى نصف عرضه المعتاد، وهناك تزاممت عليها الثلوج فسدت الطريق أمامها سدا لا أمل في اختراقه، وبعد لحظات انهالت على العائمة طلقات الرصاص من ضفتي النهر، ترى هل أبصرهم التتار آخر الأمر، وجرح من الرصاص بعض الركاب، ودب الفرع في صفوفهم. وعندئذ همس ميشيل ستروجوف في أذن نادية:

— هل أنت على استعداد؟

فأجابته دون تردد: «نعم».

وإذ ذاك قال لها: «إذن قوديني إلى خارج العائمة بغير أن تدعي أحدا من الركاب يلحظ نزولنا».

تسلل الاثنان تحت وابل الرصاص المنهمر كالمطر، مستترين بالظلام المتكاثف وضوضاء الفرع السائد، وبعد عشر دقائق كانا قد وضعاً أقدامهما فوق قطعة من الثلج العائم لم تلبث أن جرفها التيار وسط المجرى السريع، بينما تناهت إلى سمعهما أصوات استغاثة ركاب العائمة وصرخاتهم الملتاعة.

وحوالي الساعة الثانية صباحا بدت لنادية أضواء أركوتسك منبعثة من الضفة اليسرى.

وكان باقيا على المدينة المرموقة نصف فرسخ لا أكثر، فغمغم ستروجوف وهو يتنفس الصعداء: «أخيرا» .

ولم يتم عبارته، إذ صرخت نادية فجأة، وأفلتت يدها من ذراعه فوقف فوق قطعة الجليد التي بدأت في الذوبان بسرعة على وهج الحريق الهائل الذى اشتعل بغتة في زيت النفط الذى يكسو النهر، وبدأت على وجهه أمارات رعب مخيف، وهتف قائلاً: «آه، يبدو أن الله ذاته ضدنا».

في تلك الآونة كانت أركوتسك - عاصمة سيبريا الشرقية - قد غدت معزولة عن العالم كله، ولم يكن أمام الغراندوق شقيق القيصر إلا أن يعيد تنظيم الصفوف لبذل محاولة أخيرة لإنقاذ العاصمة من الاحتلال الذى أصاب قبلها «أيشيم» و «أومسك» و «تومسك»، ولما كانت إغاثة المدينة بجيوش روسية كبيرة أمرا متعذرا بسبب انقطاع المواصلات ووقوف التتار على أبواب العاصمة، فلم يبق أمام المدافعين عن المدينة إلا أن يعدوا عدتهم لحصار طويل الأمد يتعين عليهم أن يصمدوا له، وقد بدأ الاستعداد لذلك في اليوم الذى سقطت فيه «تومسك» بين أيدي الغزاة.

وكان الغراندوق قد علم بنبا زحف جيوش الخان على المدينة باستعداد ضخم، لكن الذى لم يعرفه هو أن قائد تلك الجيوش لم يكن سوى (إيفان أوجارييف الضابط الروسي الذى جرده هو

من رتبته العسكرية يوما، وإن لم يعرفه غير معرفة سطحية .
وقد سارت أعمال تحصين المدينة ضد الغزاة على قدم
وساق، بهمة وحماسة عظيمتين، ليل نهار، واشترك فيها
الجنود والتجار والمنفيون والفلاحون حتى أتم الجميع بناء
سور ضخمة لحماية العاصمة من غزاتها، واكتمل البناء قبل
ظهور طلائع التتار عند مداخل أركوتسك بنحو ثمانية
أيام، وهكذا لم يبق من سبيل لاقتحام المدينة بهجمة
خاطفة، وإنما صار لزاما على المهاجمين أن يعمدوا إلى خطة
الحصار الطويل والحرب البطيئة، وكانت جيوش التتار
الثلاثة قد التقت على أبواب أركوتسك في الخامس والعشرين
من سبتمبر، واحتلت الضفة اليمنى من نهر «أنجارا»، ثم
أخذت أهبثها لمحاصرة المدينة.

على أن الخطة التي كان إيفان أوجارييف قد أعدها من
قبل لغزو المدينة، منيت بالفشل نتيجة عاملين: أولهما
معركة تومسك التي عاقت التتار عن الوصول إلى أركوتسك
في الموعد المحدد، والثاني سرعة المدافعين عنها في إقامة
السور الهائل والحصينات الضخمة، وهكذا وجد أوجارييف
أن الخطة المثلى للاستيلاء على العاصمة هي التوسل بالحيلة
بدلا من القوة، ومن ثم تنفيذ مشروعه الاحتياطي القديم
بشأن كسب ثقة الغراندوق والتنكر أمامه في ثوب القائد
الروسي الباسل حتى تحين فرصة تسليم المدينة للعدو من
الداخل لا من الخارج.

وفيما كان إيفان أوجارييف يدبر أمر تلك الخدعة، علم أن جيشا روسيا كبيرا يزحف في اتجاه العاصمة لنجدة الغراندوق، وأنه قد يصل إليها بعد ستة أيام، وإذن فعليه هو أن يسلم أركوتسك إلى التتار بواسطة الخداع والغدر قبل مضي هذه الأيام الستة.

وفي أمسية اليوم الثاني من أكتوبر، اجتمع في قصر الحاكم العام - مقر قيادة الغراندوق - مجلس حرب للتشاور في شؤون الدفاع عن العاصمة، وقد حضره عدا الغراندوق كل من : الجنرال فورانسوف، وحاكم المدينة، ونقيب تجارها وكبار الضباط، وبدأ الغراندوق الاجتماع بقوله : «أيها السادة: إن لي عظيم الأمل في أن نستطيع الصمود حتى يصل المدد المنتظر، ومن حسن الحظ أن المدينة لم يتفش فيها حتى الآن وباء ولا مجاعة، وقد تسلل اليوم إلى أركوتسك رسول أخبرني بأن الجيش القادم لنجدتنا بقيادة الجنرال (كيسيلوف) مؤلف من خمسين ألف مقاتل».

وبعد أن تبادل المجتمعون الآراء التفت الغراندوق إلى مدير الشرطة وسأله :

هل عندك «ما تريد أن تقوله لي؟»

فقال : «عندي التماس موجه إلى سموكم من منفيي سيبريا البالغ عددهم في المدينة نحو خمسمائة»، فسأله : «وماذا يطلبون».

قال : «إنهم يطلبون التصريح بتأليف فيلق منهم يكون في مقدمة الجيش المدافع عن العاصمة».

فقال الغراندوق : «لا بأس، إنهم مواطنون مخلصون ، وقد لمست بنفسى مرارا مبلغ وطنيتهم».

فأردف مدير الشرطة قائلاً : «وهم يلتمسون الإذن لهم في أن يتولى قيادتهم واحد منهم يدعى فاسيلي فيدور».

فسأله : «كم انقضى عليه في أركوتسك؟»

قال : «عامان».

فسأل : «كيف كان مسلكه خلالهما؟»

قال : «كان مسلكا مثاليا لا غبار عليه»

فقال : «إذن فلتحضره لمقابلتي»

ولم يمض نصف ساعة حتى مثل (فاسيلي فيدور) أمام الغراندوق ، وكانت ملامحه تشبه ملامح ابنته «نادية» التي أضناه القلق عليها منذ علم بوفاة أمها وحصولها على الترخيص باللاحاق به في أركوتسك ، ومنذ ذلك التاريخ لم يتلق نبأ عن رحلتها الشاقة وسط مخاطر الغزو الرهيبة.

وسأله الغراندوق : «هل توافق على ما يطلبه إخوانك من تعيينك قائدا لهم؟»

فقال : «نعم، إذا كانت مصلحة روسيا تتطلب ذلك»

فقال : «أيها القومندان فيدور.. إنك لم تعد منفيًا».

فقال : «شكرا يا صاحب السمو، ولكن هل أستطيع أن أقود الذين ما زالوا منفيين؟»

فقال الغراندوق : «إنهم منذ الآن لم يعودوا منفيين».

وهكذا عفا الغراندوق عن الجمع بأسره، وفي نحو الساعة العاشرة مساءً مضى نحو جناحه لينام، وفي تلك اللحظة فتح باب غرفته وظهر على عتبتها حارس يقول :

— صاحب السمو، هناك بالباب رسول من القيصر ! .

رسول القيصر

دخل رسول القيصر غرفة الغراندوق، وكانت تبدو عليه آثار التعب، وهو يرتدى ثياب فلاحى سيبريا، وعلى جسمه آثار جروح وطلقات رصاص، وعلى وجهه ندبة مختلفة عن جلده بالسوط، يوحى حذاؤه الممزق بأنه قطع مرحلة من الطريق مشيا على قدميه!

وقال الرسول وهو يؤدى التحية:

— أفى حضرة سمو الغراندوق أنا الآن؟

فأجاب الغراندوق: «نعم، أنت رسول القيصر؟»

قال: «نعم يا صاحب السمو»

فسأله: «من أين جئت؟»

قال: «من موسكو»

فقال له: «ومتى غادرتها»

قال: «يوم ١٥ يوليو»

فسأله أخيراً: «ما اسمك؟»

فقال: «ميشيل ستروجوف»

لكن هذا الرسول لم يكن سوى إيفان أوجاريف، وقد انتحل شخصية ميشيل ستروجوف، رسول القيصر الحقيقي، بعد أن ظفر به وحصل على رسالة القيصر التي كان يحملها، وشجعه على ذلك أن أحداً في أركوتسك لم يكن يعرف ملامحه أو ملامح ستروجوف، وقد جاء الآن يتوسل بالغدر والحيلة إلى تسليم المدينة للتتار والانتقام من شخص الغراندوق، غريمه الذي أمر بتجريدته من رتبه العسكرية وإزالته أمام الملأ.

وأشار الغراندوق إلى جميع من كانوا في الغرفة كي ينسحبوا، فلما صار وحده مع الرسول الزائف تفرس في وجهه لحظات ثم سأله: «أكنت في موسكو يوم ١٥ يوليو؟» فقال: «نعم يا صاحب السمو، وفي ليلة ١٥ يوليو رأيت صاحب الجلالة القيصر في القصر الجديد»

فسأله: «أتحمل رسالة من جلالته؟»

قال: «هذه هي يا صاحب السمو!».

ومد أوجاريف يده للغراندوق برسالة القيصر ممزقة إلى أجزاء صغيرة.

فسأله هذا : «هل تسلمت الرسالة وهى بهذه الحال؟»

فقال. «لا يا صاحب السمو، وإنما اضطررت إلى تمزيقها كي أخفيها عن أعين التتار»
فسأله ، «هل كنت أسير التتار؟».

فقال : «نعم يا صاحب السمو، بضعة أيام ، وهذا ما جعلني برغم مغادرتي موسكو يوم ١٥ يوليو لم أستطع الوصول إلى أركوتسك قبل اليوم. أي بعد تسعة وسبعين يوما». وتناول الغراندوق الرسالة ، وعرف فيها توقيع شقيقه القيصر، مسبقا بالعبارات الرسمية التقليدية ومكتوبة بخط يده، فلم يبق لديه أدنى شك في صحة الرسالة ولا في حقيقة شخصية الرسول ، وزالت من قسما وجهه علامات الريبة والشك، وراح يقرأ الرسالة بإمعان، ثم قال لإيفان أوجارييف.
— اسمع يا ميشيل ستروجوف، هل تعرف مضمون هذه الرسالة؟

فقال : «نعم يا صاحب السمو، فقد كان يحتمل أن اضطر إلى إتلافها، كيلا تقع في أيدي الأعداء، وفي هذه الحالة كان ينبغي أن أنقل إلى سموكم نصها حرفيا».

فقال : «أتعلم أن هذه الرسالة تطالبنا بإيثار الموت في أركوتسك على التفريط في المدينة؟»

قال : «نعم يا صاحب السمو»

قال: «وهل تعلم أيضا أنها توضح خطط الجيوش إلى أعدت لوقف الغزاة»

فقال: «نعم يا صاحب السمو، لكن هذه الخطط لم تنجح»

فسأله: «ماذا تعني؟»

قال: «أعني أن أيشيم، وأومسك، وتومسك، وغيرها من المدن الهامة قد سقطت بالتتابع في أيدي جيوش فيوفار خان».

فقال له: «ولكن هل وقع قتال، هل التقى فرساننا القوقاز مع التتار وجها لوجه؟»

قال: «نعم يا مولاي لكنهم ردوا على أعقابهم مع الأسف الشديد، إذ لم يكن عددهم كافيا».

فسأله: «أين حدث ذلك اللقاء الذي نتحدث عنه؟» .

فقال: «في كوليفان، وتومسك».

وحتى هذه اللحظة لم يقل إيفان أوجارييف غير الحقيقة، لكنه بغية تثبيط عزائم المدافعين عن أركوتسك بالمغالاة في تصوير تفوق التتار أضاف كاذبا «كما التقوا مرة ثالثة في مواجهة كراسنويارسك؟»

فسأله الغراندوق: «وماذا كانت نتيجة ذلك الاشتباك الأخير؟».

فقال : «إنه أكثر من اشتباك بسيط يا صاحب السمو، كان معركة التقى فيها عشرون ألف روسي بمائة وخمسين ألف من التتار ، وبرغم شجاعة الأولين ، فقد أبيدوا عن آخرهم». فصاح الغراندوق ، بعد أن فشل في السيطرة على غضبه : «أنت تكذب !»

فقال : «بل أقول الحقيقة يا صاحب السمو، فقد كنت في كراسنويارسك ، وهناك وقعت في الأسر!». فاسترد الغراندوق هدوءه واستأنف استجوابه قائلا : «متى وقعت معركة كراسنويارسك هذه؟» فقال : «في اليوم الثاني من سبتمبر».

قال : «وهل اجتمعت كل جيوش التتار الآن حول أركوتسك؟» قال : «نعم»

فسأله : «كم تقدر عددها؟»

قال : «بحوالي أربعمئة ألف»

وكانت هذه مغالاة جديدة من جانب إيفان أوجارييف ، عمد إليها للغرض السالف الذكر نفسه ، ثم عاد الغراندوق يسأله : «ألا أنتظر أي مدد من الأقاليم الغربية؟»

فقال: «ليس هذا ممكنا يا صاحب السمو، على الأقل حتى نهاية الشتاء»

قال: «فيكن هذا، على أنى حتى إن لم أتلق أي مدد من الغرب أو الشرق، ولو كان عدد هؤلاء البرابرة ستمائة ألف لا أربعمائة ألف، لن أسلم أركوتسك أبدا».

على أن الغراندوق المرهف الأعصاب، لم يستطع الاحتفاظ بهدوئه أمام هذه الأنباء الداعية إلى اليأس، فأخذ يذرع الحجرة ذهابا وحيئة أمام بصر إيفان أوجارييف الذى اعتبره فريسة مدخرة لانتقامه، وانقضى ربع ساعة قبل أن يستأنف الغراندوق أسئلته، وهو يعيد قراءة رسالة أخيه قائلا:

«أتعلم يا مشيل ستروجوف أن هذه الرسالة تشير إلى خائن يجب أن أحذر أمره؟»

فقال: «نعم يا صاحب السمو»

فقال: «إنه فيما تقول سيحاول دخول أركوتسك متنكرا، وكسب ثقتي، ثم سليم المدينة إلى التتار عندما تحين الفرصة».

فقال: «أعلم هذا كله يا صاحب السمو، وأعلم أيضا أن إيفان أوجارييف قد أقسم لينتقم من شخص سمو شقيق القيصر».

فسأله: «لماذا؟»

قال : «لأن سمو الغراندوق جرده من رتبه وأذله».

فقال : «أذكر ذلك ، لكن ذلك التعس الذى صار الآن يقود جيوش البرابرة الغزاة، كان يستحق جزاء».

قال : «لقد أراد جلاله القيصر أن تأخذوا حذرکم من خطط إيفان أوجارييف الشريرة ضد شخصکم».

فقال : «نعم .. الرسالة تشير إلى ذلك»

فقال : «وقد قاله القيصر لي بنفسه ، وهو يحذرني من الوقوع في براثن ذلك الخائن أثناء رحلتي».

فسأله : «وهل قابلته؟».

فأجاب بقوله : «نعم يا صاحب السمو ، بعد معركة كراسنويارسك ، ولو أنه أرتاب في أن أحمل إلى سموکم رسالة تحذرکم من خططه ومشروعاته لما تركني حيا».

فقال الغراندوق «وكيف استطعت الفرار من الأسر؟».

فقال : «بإلقاء نفسي في نهر أرتيش!».

فسأله : «وكيف دخلت أركوتسك؟».

قال : «بفضل خروج إحدى فصائل جيشکم لصد هجمة من التتار ، فقد اندسست ضمن فريق المدافعين ، دخلت في ركبهم حينما عادوا إلى المدينة».

فقال له : «حسنا يا ميشيل ستروجوف ، لقد أظهرت شجاعة وجلدا خلال قيامك بمهمتك الخطيرة ، ولن أنساك ، هل لك طلب خاص؟».

قال : «لا شيء سوى شرف القتال مع سموكم جنبا إلى جنب».

فقال : «فليكن لك ما تطلب ، منذ اليوم أجعلك ملحقا عسكريا لي ، وسوف تنام في قصرى».

- فقال : ” ولو استطاع إيفان أوجارييف أن يمثل أمام سموكم متنكرا باسم زائف؟” .

قال : «سوف نكشف أمره بفضلك أنت الذى تعرفه ، وسأمر بقتله بالسوط ، والآن تستطيع أن تذهب

أدى إيفان أوجارييف التحية العسكرية للجراندوق حسب تقاليد فرقة رسل القيصر التي ينتمى إليها ستروجوف ، ثم انسحب من حضرة الأمير ، بعد أن نجح في سبك خدعته وكسب ثقة الجراندوق ، إنه سيعيش في قصر غريمه ، فيترقب كل شيء ، ويتجسس على كل شيء ، وينتهاز كل فرصة ، على أن يبدأ مؤامراته بلا إبطاء ، قبل أن تصل النجدة.

وفي اليوم التالي حرص أوجارييف على أن يدخل في روع ضباط الحرس وقواد الجيش الذين يلتقى بهم في كل مناسبة ما يتفق مع خطة المغالاة في وصف قوة الأعداء وشدة

بأسهم، وكان من أوائل الذين جمعته الظروف بهم «فاسيلي فيدور، أحد المدافعين البواسل عن العاصمة، فقد أراد الأخير الاطمئنان على أخبار ابنته التي لا يعلم من أمرها شيئاً، فاتصل برسول القيصر المزعوم - الذى قطع الرحلة - لعله يقف منه على خيط يهتدي منه إلى طريقها.

وانتهز صاحبنا الفرصة الذهبية، فوثق صلته اليومية بالقومندان الذى يتولى نصيبا كبيرا من مهمة الدفاع عن أركوتسك، وفي أثناء حديثهما عن الابنة الضالة حرص إيفان أوجارييف على أن يزرع في قلب الأب القلق بذور اليأس من سلامتها ونجاتها من مخاطر الغزو، الأمر الذى حطم قلب التعس وبلبل أفكاره.

وفي خلال اليومين التاليين - ٣ و ٤ أكتوبر - استدعى الغراندوق ميشيل ستروجوف المزعوم مرات، وطلب منه أن يعيد على مسامعه كل ما سمعه من شقيقه القيصر في موسكو ليلة رحيله، وكان إيفان قد أعد العدة لتلك المآزق فلم يبد ترددا أو ارتباكاً في إجاباته!.

ثم استغل الخائن حريته الكاملة فعكف على دراسة تحصينات العاصمة، وأماكن الضعف والقوة فيها، وباب «بولشايا» الذى اعتزم أن يسلم مفاتيحه للعدو، وصار يلتقى مع شريكته سنجار عند عتبة ذلك الباب تحت جناح الظلام.

وفي ليلة السادس من أكتوبر ألقى إليها ورقة مطوية حدد لها فيها الساعة الثانية صباحا من الليلة التالية موعدا لتسليم المدينة.

وهكذا رسم إيفان أوجارييف خطته بأقصى دقة وعناية، بحيث كان مصيرها النجاح المحتوم، ما لم يصادفها ظرف ليس في الحسبان ولا في نطاق الاحتمال.

وكان مؤداها أن يقوم التتار بهجومين كبيرين على نقطتين في طرفي المدينة، لتحويل أنظار المدافعين وعتادهم وجيوشهم عن النقطة الثالثة التي يزمع الخائن فتح ثغرة فيها لهم، وهى باب «بولشايا» وقد مهد إيفان لذلك بأن نصح للغراندوق بأن يعزز حاميات المنطقتين المهددتين فيما يزعم، حتى لا يبقى لحراسة الباب الثالث المقصود غير قليل من المدافعين، وعلى هذا يسهل عليه تسليم ذلك الباب لآلاف التتار المحتشدين في الغابات الكثيفة من جهة الشرق.

لقاء غير منتظر !

في الليلة المحددة، كانت الظلمة كثيفة، وكان البرد قارسا شديدا يهراً العظام .

وانتصف الليل دون أن يقع حادث ما، فقد كان الهدوء الشامل يسود الجهة الشرقية حيث بولشايا، وما من نار تشتعل في الغابات الكثيفة التي يختلط عند الأفق مع سحب السماء الداكنة، أما معسكر التتار، فكانت الحركة دائبة فيه انتظارا للإشارة المرتقبة.

وانقضت ساعة أخرى وما من جديد :

وأوشكت ساعة كاتدرائية أركوتسك أن تدق الثانية صباحا، وما من حركة تدل على بدء العدوان المسلح، وبدأ الغراندوق وأركان حربه يتساءلون :

ترى هل أخطأوا حين صدقوا ما قيل عن تأهب التتار لمحاولة الانقضاض على المدينة فجأة؟.

وتتابعت الدقائق، والهدوء أشمل منه في الليالي السابقة، وأولو الشأن على تمام الاستعداد لإصدار أوامرهم تبعا

لتطور الظروف ، وكانت الغرفة الفسيحة التي يشغلها إيفان أوجارييف من قصر الغراندوق تقع في الطابق الأرضي وتطل نوافذها على شرفة تشرف على مجرى نهر «أنجارا» وقد ساد هذه الغرفة ظلام دامس ، ووقف إيفان أوجارييف إلى النافذة ينتظر حلول ساعة التنفيذ ، كي يعطى إشارة البدء ، ثم يغادر القصر ليقوم بدوره الشخصي في المؤامرة .

ولبت ينتظر في الظلام ، كوحش يتأهب للانقضاض على فريسته ، وقبيل الساعة الثانية بدقائق ، طلب الغراندوق استدعاء ميشيل ستروجوف المزعوم إلى حضرته ، فمضى ضابط إلى الغرفة وطرق بابها ، فلما لازم الخائن بالصمت ، عاد الضابط لينبئ الغراندوق بأن رسول القيصر ليس في غرفته .

★★★

دقت الساعة الثانية ، المحددة لتنفيذ المؤامرة ، ففتح إيفان أوجارييف نافذة الحجرة وهبط منها إلى الشرفة ، حيث تجرى تحت قدميه مياه النهر في الظلام ، ثم أخرج من جيبه ثقاباً أشعله وأوقد به قطعة من الكتان المبلل بالبتروول ، وألقاها في النهر الذي كان سطحه قد سكب عليه زيت النفط بأمر منه ، كي يحدث حريقاً مروعا يلتهم أركوتسك ويقلب خطط الدفاع عنها رأساً على عقب .

وهكذا أدى تحالف إيفان أوجارييف مع التتار إلى تصرفه على غرارهم وإشهاره أسلحتهم الوحشية ضد مواطنيه الوادعين .

ولم يكد يلقي بقطعة الكتان المشتعلة في النهر حتى شبت النار في مياهه وانتشرت بسرعة خارقة فوق سطحه بين الضفتين، كما تصاعدت منها الأبخرة الكثيفة التي عقدت في الجو سحباً كثيرة، وسرعان ما ذابت قطع الجليد العائم على وهج النار كما يذوب الشمع، وفي اللحظة التالية تفجرت أفواه المدافع والبنادق عند طرفي المدينة كالرعد القاصف، وأطلقت مدفعية التتار نيرانها بشدة وعنف بالغين، ثم اشتعلت النار في المنازل الخشبية العديدة المتناثرة على ضفتي النهر.

وهمس إيفان أوجارييف لنفسه :

— أخيراً، دنت ساعة الانتقام وكاد يصفق لنفسه، لقد نجح في تشتيت القوى والأذهان بين مقاومة هجمات التتار ومكافحة الحرائق المروعة التي تهدد المدينة بالفناء، وصار باب «بولشايا» بمثابة المهجور من المدافعين، الذين خفوا إلى منطقتي الهجمتين الشديديتين.

وعاد إيفان أوجارييف إلى حجرته، التي كانت أضواء اللهب في الخارج تلقى عليها ظلالاً متراسة، ثم اتجه نحو الباب الرئيسي للغرفة بغية الخروج لكنه لم يكد يفتح الباب، حتى هرعت إلى داخل الحجرة امرأة مبللة الثياب مشعثة الشعر، وللحال هتف إيفان بوحى الاستنتاج المنطقي المعقول :

لكنها لم تكن سنجار، بل كانت نادية...!

كانت نادية في اللحظة التي صرخت فيها ورفيقها أثناء انزلاقهما على قطعة الجليد العائم نحو أركوتسك، قد رأت النار تشب فجأة في مياه النهر، وقد أمسكها ميشيل ستروجوف بين ذراعيه وغاص معها إلى القاع بحثا عن مخبأ يقيهما الحرائق المشتعلة فوق السطح، وكانا في تلك الآونة على بعد ضئيل من الرصيف الأول لأركوتسك، وبعد أن سبحا تحت الماء برهة وضعاً أقدامهما آخر الأمر على الرصيف، فهتف الشاب قائلاً لنادية:

— إلى قصر الحاكم العام.

وبعد أقل من عشر دقائق وصل الاثنان إلى مدخل القصر، واستطاعا أن يدخلاه بسهولة في غمرة الانزعاج الذي طاف بقلوب الناس على أثر احتدام المعركة، برغم أن ثيابهما كانت مبللة. وكان القصر يموج بالضباط الذين يحملون الأوامر الصارمة، والجنود الموكلين بتنفيذها في تلك اللحظة.

وفي غمرة الزحام الذي ساد ممرات القصر وقاعاته انفصل ميشيل ستروجوف، ونادية من غير قصد، فراحت نادية تعدو حائرة عبر ردهات الطابق الأرضي وأبهائه وهي تنادى صاحبها، ملتزمة من كل من تلقاه أن يأخذها إلى حضرة الغراندوق.

وفي أثناء سيرها على غير هدى داخل القصر، انفتح أمامها باب يفضى إلى حجرة مضيئة، فوجدت نفسها وجها لوجه مع الرجل الذى رآته أول الأمر في محطة أيشيم، ثم رآته في تومسك، الرجل الذى سيسلم المدينة للأعداء بعد لحظات. وهتفت الفتاة مأخوذة:

— إيفان أوجاريف؟

ولم يكد التعس يسمعها تنطق باسمه الحقيقي حتى ارتعدت أوصاله كريشة في مهب الريح. ليس أمامه غير أن يقتل بلا رحمة هذه المخلوقة التي عرفت شخصيته، وإلا فشلت خطته في مثل لمح البصر. وعادت نادية تصيح مذعورة:

— إيفان أوجاريف!

وفي هذه المرة كان صوتها مشبعا بالحقد والبغضاء. أما الخائن فقد أسكرته غضبته فاستل خنجرًا من حزامه وتقدم نحو نادية يبغى حصرها في ركن الغرفة. لقد قرر الإجهاز عليها قبل أن تقضي على خطته! وصرخت الفتاة بأعلى صوتها:

— ميشيل! .. ميشيل!

وشد ما كانت دهشتها في هذه اللحظة إذ رأت ميشيل ستروجوف أمامها وجهها لوجه.

وكان هذا قد سمع نداءها فتبع الصوت إلى مصدره، وإذا ألقى الغرفة مفتوحة دخلها، وأجابها وهو يقف بينها وبين إيفان أوجارييف:

— لا تخافي شيئاً يا نادية

فقالت: «آه ، خذ حذرِك أيها الشقيق».

ثم أردفت قائلة: «إن الخائن مسلح، وهو يرى جيداً، أما أنت ؟»

واندفع إيفان أوجارييف نحو غريمه، وقد أحس هذا بتفوقه عليه في المباراة التي أوشكت أن تنشب بينهما.

لكن ستروجوف أمسك بذراع إيفان بإحدى يديه، وباليَد الأخرى انتزع سلاحه منه وألقاه أرضاً.

شحب وجه إيفان أوجارييف غضباً وخزياً، ثم تذكر أنه يحمل سيفاً فاستله من غمده وتأهب لمهاجمة خصمه، وأدركت نادية الخطر الذي يهدد صديقها الأعمى في هذا الصراع غير المتكافئ، فهرعت نحو الباب تصرخ في طلب النجدة.

لكن ميشيل ستروجوف صاح بها حازماً:

— أغلقي هذا الباب يا نادية ولا تنادي أحدا، دعيني أعمل فقد دنت ساعة العمل، إن رسول القيصر ليس لديه ما يخشاه اليوم من هذا التعس، فليأت إليّ إذا جرؤ، إنني في انتظاره.

ولم يفكر الخائن في مبارزة ستروجوف مبارزة قانونية حقة، وإنما أراد أن يقتله غدرا وغيلة.

أراد أن يطعنه طعنة قاتلة قبل أن يحس الشاب باقترابه.

وقفت نادية تتأمل هذا المنظر الرهيب حائرة معجبة، وقد استمدت من هدوء مرافقها هدوءاً شاملاً، بينما استل هذا سكينه التي لم يكن يحمل سلاحاً غيرها.

إنه لا يرى غريمه، ولا يحمل في يده سيفاً مثله، ولكن أية بركة سماوية أنزلت على نفسه السكينة المحببة وهو واقف بلا حراك في مواجهة خصمه القوي المبصر؟.

وفلت سكينة الأعمى من سكينة الخائن، ومن عزيمته، فتردد برهة ثم أدرك حرج الموقف فهجم على ميشيل ستروجوف وسدد سيفه إلى صدره.

ولكن في تلك اللحظة تجنب الأعمى الطعنة بحركة من سكينة الحادة فلم يمس بأذى، ووقف ينتظر الهجمة الثانية ببرود يثير الأعصاب.

وتفصد جبين إيفان أوجارييف عرقا باردا كالثلج، ثم رجع خطوة إلى الخلف، وهجم على ستروجوف بسيفه المدبب، لكن حظ الهجمة الجديدة لم يكن خيرا من حظ الأولى، وبدافع من الغضب والرعب اللذين تملكاه بإزاء هذا التمثال الحي الذى لا تزايله سكينته، ركز بصره في عيني الأعمى المفتوحين عن آخرهما.

وكان لتلك العينين اللتين لا تبصران، واللتين تتغلغلان إلى أعماق روحه، تأثير السحر على عزمته ونفسيته. وفجأة أطلق إيفان أوجارييف صرخة، وقد ومض في رأسه خاطر غير متوقع: «إنه يرى .. إنه يرى».

ثم تراجع خطوة فخطوة نحو نهاية الحجرة مثل وحش يحاول الرجوع إلى وكره وقد بلغ منه رعبه أشده، وعندئذ تحرك التمثال، مشى الأعمى نحو إيفان أوجارييف مباشرة وصاح به: «نعم، إنني أرى، أرى لطمات السوط الذى وصمتك بها أيها الخائن الجبان مدى الحياة، وأرى المكان الذى سأضربك فيه، فدافع عن نفسك، هذه مبارزة أ تطوع فأهبك إياها، وستكفيني سكينتي ضد سيفك».

وصاحت نادية في تأثر: «إنه يرى.. ربا، أهذا معقول؟»

أما إيفان أوجارييف فقد أدرك أنه ضائع لا محالة، لكنه بتأثير وثبة أخيرة من وثبات عزمته المنهارة استعاد شجاعته واندفع بسيفه نحو صدر غريمه الصامد فتقابل السلاحان.

وبفعل صدمة السكين الحادة من يد ميشيل ستروجوف
الصيد السيبري القوي، طار السيف من يد الخائن، في
اللحظة التي انغرس فيها نصل السكين في قلب أوجاريف،
فسقط على الأرض بلا حراك، جثة فارقتها الحياة.

وفي اللحظة التالية دفع أحدهم باب الحجرة من الخارج
فانفتح، وظهر الغراندوق ونفر من أركان حربه ثم تقدم
الغراندوق إلى داخل الغرفة وقد تعرف في الجثة الممددة على
ملحقه الذي يحسبه رسول القيصر، ثم قال بصوت ينطوي
على التهديد:

— من قتله ؟

فأجاب ستروجوف: «أنا..!»

وأمام ذلك الرد وضع أحد الضباط فوهة مسدسه على
صدغ الشاب، متأهباً لإطلاقه في أية لحظة، بينما سأله
الغراندوق، قبل أن يصدر الأمر بتحطيم رأسه:

— ما اسمك ؟

فقال ستروجوف: «يا صاحب السمو، اسألني أولاً عن
اسم الرجل الطريح عند قدميك؟»

قال:، هذا الرجل ؟ إنني أعرفه، إنه من خدام القيصر
المخلصين، إنه رسوله..»

فقال ستروجوف: «هذا الرجل يا صاحب السمو ليس رسولا من القيصر، إنما هو إيفان أوجارييف»

فصاح الغراندوق مأخوذاً:

— إيفان أوجارييف؟، ومن أنت إذن؟

فأجابه في هدوء:

ميشيل ستروجوف.

النصر في النهاية

لم يكن ميشيل ستروجوف في الحقيقة أعمى، ولا كان يوماً كذلك، فإن ظاهرة إنسانية قد أفسدت تأثير السلاح المحمي الذي مر به الجلال أمام عينيه،

كان الشاب وقتئذ ينظر - لآخر مرة فيما يحسب - إلى أمه التي وقفت ملتاعة تشهد تنفيذ الحكم الوحشي في فلذة كبدها وقد مدت نحوه ذراعيها ملهوفة، فامتلات عينا الابن بدموع حاول جاهدا أن يقمعها وراء أهدابه، فلما مر السلاح المحمي أمام عينيه زاد بخار الدموع الأذى عن حدقتيه وخفف من حرارة الحديد فلم تحرق قرنية العين.

وبذلك نجا بصر الشاب من التلف، وسلمت أعصاب عينيه بمعجزة، وللحال أدرك ميشيل ستروجوف مدى الخطر الذي يعرض نفسه له لو أفصح عن سره، فقطع على نفسه عهداً أن يكتُم نبأ المعجزة عن الجميع حتى نادبة خشية أن يبدو منها ما قد ينم عن الحقيقة، ومن ثم مثل دور الأعمى طيلة المرحلة الثانية الشاقة من الرحلة، لكنه رأى من واجبه نحو أمه أن يطمئنها على بصره.

ولما انحنى فوقها ليقبلها وهى ملقاة في ساحة المهرجان بمدينة تومسك همس لها بالحقيقة السارة، وأوصاها بالكتمان.

وشاءت المصادفة السعيدة أن تتحول سخرية إيفان أوجارييف به إلى نصر له، فحين رفع الخائن رسالة الامبراطور أمام بصر «الأعمى» وطلب منه قراءتها، لقد قرأ الشاب الرسالة فعلا في تلك اللحظات، فوعى ما فيها ليبلغه إلى الغراندوق حين يلقاه.

ولم يكد يجهز على إيفان أوجارييف ويفصح للغراندوق عن شخصه حتى سرد عليه محتويات الرسالة وما اقترن بها من ملابسات أفنعت شقيق القيصر .

كما روى له تفاصيل رحلته من أولها إلى منتهاها، والدور المشرف الذى أدته نادية له ولوطنها.

وإذ ذاك سأله الغراندوق :

— ومن تكون هذه الفتاة؟

فقال : «إنها ابنة المنفي فاسيلي فيدور»

فقال الغراندوق :

— بل قل ابنة القومندان فيدور الحر الطليق.

وأمام ذلك النبأ السار ضعفت نادية عن احتمال فرحتها، وهى التى لم تضعف عن احتمال آلامها، فخرت جاثية على ركبتيهما عند قدمي الغراندوق، فأعانها هذا على النهوض

وهو يمتدح بطولتها النادرة.

وبعد ساعة كانت نادية بين ذراعي أبيها.

أما التتار فقد ردوا على أعقابهم وفشلت هجماتهم ، وكان لفاسيلي فيدور نصيب الأسد في صدهم عن باب (بولشايا) الذى اعتزم أوجارييف أن يسلمه لهم.

وفي نهاية التتار عاد التتار إلى معسكرهم مدحورين وقد تركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى ، بينهم الجاسوسة الغجرية سنجار. وفي يوم ٧ أكتوبر وصل الجيش الروسي الذى جاء لنجدة المدينة بقيادة الجنرال كيسيلوف ، فأثر التتار الفرار ، وبذلك نجت أركوتسك.

وفي ركاب الجيش الروسي الذى وصل حديثا جاء الصحفيان المتلازمان :

جوليفيه وبلونت ، وكانا قد تمكنا من بلوغ الشاطئ سالمين بعد فرارهما من العائمة التي هاجمها رصاص التتار في النهر. وكان سرورهما لا حد له برؤية نادية وميشيل ستروجوف سالمين ، بل برؤية الأخير مبصرا.

وبعد أن استراح الصحفيان من متاعب الرحلة عكفا على كتابة تفاصيل رحلتهم ومغامراتهما الشائقة لإرسالها إلى صحفهما ، ثم أعلننا أنهما يعتزمان السفر إلى الصين لتتبع ما يجرى فيها من أحداث.

وحررت الجيوش الروسية جميع البلاد التي غزاها التتار ولم يعد من هؤلاء إلى بلادهم غير عدد ضئيل بعد أن هلك أكثرهم بالحرب والبرد والجوع، .

أما نادية وميشيل ستروجوف فقد تزوجا، وبارك فاسيلي فيدور زواجهما السعيد، وعقدت حفلة الزفاف في كاتدرائية أركوتسك، وحضرها الغراندوق وجمع كبير من كبار رجال الدولة الذين عرفوا الدور الخطير الذى أداه العروسان لإنقاذ وطنهم.

ثم استقل العروسان زحافة سريعة نهبت بهما الطريق نهبا عائدة إلى موسكو وبقدر ما كانت رحلة الذهاب شاقة موجعة كانت رحلة الإياب موفقة مريحة، وقد راحت الزحافة تنزلق بهما فوق سهول من الثلوج الشاسعة.

وفي الطريق وضع الاثنان صليباً على قبر صديقهما نيقولا الذى ضحى بحياته من أجل المحافظة على شرف نادية وكرامتها.

وفي أومسك استقبلت الأم مارفا ابنها وعروسه في بيتها فرحة تتخطف مشاعرها السعادة الخالصة، وضمت عليهما ذراعيها فخورة ببطولتهما.

وحين وصل ميشيل ستروجوف إلى موسكو، استقبله القيصر مهنئاً، ومنحه وسام «سان جورج» تقديراً لخدماته الجليلة لبلاده.

وارتقى الشاب في مناصب الدولة حتى وصل إلى منصب كبير، لكن القصة التي استحققت أن تروى هي قصة تجاربه المريبة.



طبع بمؤسستہ بسطرون
۰۱۲۲۹۳۰۰۰۲۹